فن الحياة

●

تأليف

أندريه موروا

●

ترجمة

أحمد فتحي

●

دار الهلال

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ إبراهيم مصطفى إبراهيم
الإسكندرية

فـــن الحـــب

هل الحب فن ، أم مجرد غريزة ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال ، ينبغى أن نسأل سؤالا آخر : ما هو معنى كلمة « فن » ؟

يقول لنا « بيكون » : ان الفن هو الانسان ، مضافا الى الطبيعة .

ومن طريق الاستشهاد بأمثلة قليلة بسيطة ، يسهل اثبات أن هذا التعريف صحيح تماما . فالطبيعة تمنح المصور « الخامة » التى تعينه على رسم اوحة ، كالأشجار والزهر ، والبحر ، والكائنات الحية ، والنور ... والمصور يقوم بتنسيقها وتبسيطها حسبما يقتضيه ارضاء رغبات عقول الناس .

والطبيعة تمنح عناصر الرواية المسرحية ، كالصرخات، والرغبات الملحة ، وجرائم القتل الغامضة ... والشاعر يتناول هذه المادة المختلطة فيستخلص منها رواية جميلة التسلسل يفهمها المتفرج ويتأثر بها .

والاعتراف بصحة هذا التعبير يؤدى الى الاعتراف بوجود فن الحب . فالطبيعة فى الحب ، وفى كل شىء آخر ، تمنح المواد « الخامة » وحسب . وهى تقسم الكائنات الحية الى جنسين ، وتخلق ضرورة تناسل

الأنواع ، والرغبة الجنسية ، وهى غريزة نافعة فى ارضاء تلك الضرورة ، وفى الجمع بين الجنسين . غير أنه لو لم يكن العقل البشرى قد تناول هذه المواد بالتشكيل والتنسيق على تعاقب العصور ، لصارت غرامياتنا بسيطة وتافهة كغراميات الكلاب أو الخنازير .

واذا نحن تأملنا غراميات الحيوان ، ثم قرأنا رسالة غرامية رائعة ، وضح لنا مدى البون الشاسع بين الطبيعة والفن .

منذ وقت طويل ، سمعت قصة الكهل الذى كان يشترى كتابا ليهديه الى ابنته ، فقال لبائعه فى خجل : « أرجو أن يكون الكتاب خاليا من ذكر المسائل الجنسية » ، فأجابته البائعة بقولها : « لا ياسيدى ، انه قصة غرامية » .

وهذه النادرة ذات مغزى واضح . وان كانت بطبيعة الحال ، ككل ما عداها من النوادر ، لا تخلو من المبالغة فى اظهار الحقيقة . ففى كل قصة حب ، جانب عظيم يتصل بمسائل الجنس ، ولكن معجزة الحب الانسانى ، هى أنه عند الرغبة ـ وهى غريزة طبيعية جدا ـ تحدث مجموعة من المشاعر الجميلة المختلفة .

على أن الرغبة قصيرة الأجل . فكيف استطاع الناس ان يستخلصوا المشاعر النقية الباقية ، من غريزة مقترنة بمثل هذا التقلب ؟ ان مشكلة تطهير الرغبة ، أو تنقيتها ، هى المشكلة التى يجب علينا حلها حتى يتاح لنا أن نفهم فن الحب . ولكن من الضرورى أن نجيب أولا على بضعة أسئلة مبدئيا .

لماذا يحدث اننا ـ من بين آلاف الرجال والنساء الذين نصادفهم ـ نختار شخصا واحدا نركز عليه أفكارنا ؟ هنالك نظريتان جديرتان بالاعتبار ، وكل منهما فيها قدر معين من الحقيقة .

تقول النظرية الأولى اننا نكون فى فترات معينة من حياتنا ، لا سيما فى سن المراهقة ، وقبيل الخمسين ، فى حالة تشوف الى الحب . فهنالك رغبة غامضة كأنها غير شخصية ، تتمخض عن شعور لطيف بالتوقع . وفى مثل تلك اللحظات يستسلم الشاب لأطياف خياله لأنه فى تلك السن دون امرأة حقيقية ، وتقع الفتيات فى حب أبطال القصص ، ومشاهير الممثلين ، أو أساتذة اللغات الأجنبية .

والشباب أقوى عوامل الحب جميعا . ويقول جيته على لسان شيطان روايته « انك بعد ان تبتلع هذه الجرعة ، سوف ترى هيلونة فى كل امرأة » .

وحين يكون الجسد ينتظر على أحر من الجمر ، مقدم الحبيب أو العشيقة المجهولة ، فان أول شخص مقبول يتم اللقاء به قد يكون هو الشخص الذى يوقظ الحب .

والظروف التى يتم فيها اللقاء تلعب كذلك دورا هاما . وكثيرا ما يحدث أن الأشخاص الخجولين الذين لا يعترفون بأحاسيسهم ورغباتهم فى الظروف العادية ، يجدون أنفسهم مرغمين على مخالطات اجبارية .

فالسجون فى زمن الثورة قد كشف عن مواهب غرامية لم يكن وجودها يخطر على البال فى نساء لو كن فى ظروف عادية أكثر دعة وسلاما ، لقنعن بحياة

زوجية رتيبة . وفى عين المرأة ، تكون سمعة الرجل أو شهرته ، بمثـــــابة هالة من النور تحجب اخطاءه عن الأنظار . وما يحرزه الطيـــــار ، أو الممثل ، أو لاعب الكرة ، من نجاح يكون فى كثير من الأحيان سببا فى نشوة علاقة غرامية .

وقد تتسبب المصادفة فى خلق وهم علاقة روحية أو عاطفية . فعلى حين غرة ، ولدى سماع عبارة ما من شخص ثالث ، قد تتلاقى نظرتان ، وتنطلقان بانفعالات متماثلة . وقد تمر سيارة فوق ثغرة فى الطريق فتهتز بعنف ، فتلمس يد يدا أخرى ، وتظل اليدان متلامستين دون مبرر . هذا يكفى ... ان الأحداث ، لا تشابه الطباع ، قد جمعت بين حبيبين .

***

أما النظرية الأخرى فهى على النقيض من سابقتها . وتقول ان « البرق الخاطف » ، أو الحب من أول نظرة ، معناه المقدر المكتوب .

وفى بعض أساطير اليونان أن الناس فى الأصل كانوا عبـــــارة عن رجل واحد وامرأة واحدة ، ثم جاء بعض الآلهة فشطر كلا منهما نصفين ، وكل من هذين يبحث عن النصف الآخر باستمرار . وحين يتلاقى جزءا زوج مكتوب عليهما اللقاء ، فانهما يدركان أمر الصلة بينهما بفضل صدمة عنيفة لذيذة ، هى البرق الخـــــاطف . وجميعنا يحمل فى ذات نفسه « الصورة الأصلية لذلك الجمال المعين الذى يبحث عن نسخة منه فى كل نواحى العالم » . فاذا نحن وجدنا شخصا حقيقيا يتحلى بكل المزايا التى أضفيناها على أطياف خيـــالاتنا فى سن

المراهقة ، استسلمنا للاعجاب الجذلان .

وهنالك أشـخاص يسعدون أحاسيسنا بما يملـكون من الحسن ، كما يأسرون عقولنا بما فى أحاديثهم من رقة ومتاع . ونحن نحبهم دون عناء ، ودون تحفظ . وكل لحظة نقضيها بجانبهم تزيدنا ثقة بامتيازهم بالكمال . ونحن نعلم أننا لم تكن لنحب أن نغير شيئا فيهم حتى لو أوتينا المقدرة على أن نفعل ذلك . ان أصواتهم فى أسماعنا هي أعذب الألحان ، وأحاديثهم تتدفق كأنها أبيات قصيدة رائعة كاملة . ومن أمتع المتع الاعجاب بشخص ما دون تحفظ ، والحب القـائم على اعجاب العقل والجسم معا بالشخص الذى يقع عليه الاختيار ، يستطيع بغير شك أن يكون مصدرا لغبطة لا مزيد على قوتهـا .

***

واخيرا ، نجد ان هنالك طائفة لا يستهان بعددها من الرجال والنساء ، لم تفرض عليهم المصادفة البحتة ولا العاطفة التى لا تقاوم ، زميل الحياة ، بل اختاروا زملاء حياتهم عامدين واعين .

فهل يستطيع فن الحب مساعدتهم فى الاختيار من طريق تقرير بعض القواعد العامة ؟ ربما قيل ان تشابه الطباع ، وسعة الصدر ، والروح المرح بصفة خاصة ، هى فضائل لها قيمة كبرى فى التماس السعادة ، وانها كثيرا ، وليس دائما ، ما يكون مصدرها صحة الجسم والعقل . ومن الواجب أن تدرس بعناية عائلة الشخص الذى يقع عليه الاختيار . والسعادة تزدهر حيثما توجد سعادة ، كما ان الحب سرعان ما يذبل فى الجو الذى

يسوده الكبت والكآبة .

والنســـاء فيما يبدو يظفرن بالســعادة بمزيد من الســهولة ، مع الرجال الذين يمتازون بقدر ملحوظ من الرجولة والنشاط . كما أن الرجال يظفرون بهـا بمزيد من السهولة كذلك مع النساء العـــاطفيات ، الراضيات بأن يكون زمام قيادتهن فى غير أيديهن . وصغيرات السن جدا من النساء ، يقلن انهن يردن ان يتزوجن رجالا يستطعن السيطرة عليهم . ولكننى لم أعثر قط على امرأة سعيدة مع رجل لا تعجب بقـوته وشجاعته . كما أننى لم أعثر قط على رجل سعيد مع امرأة من النوع المتحكم المتسيطر ، الذى تغلب فيه طباع الرجال ، ويتصرف على غرارهم .

والواقع أن عنصر المصادفة فى هذه الأمور ، قلمـا يسمح لرجل أو امرأة باختيار زميل حيـاته بمحض رغبته . ولعل هذا أن يكون خيرا ، فالغريزة هنا ابعث على الاطمئنان من الذكاء ، رغم أخطائها .

ولا ينبغى توجيه سؤال : « هل من الضرورى أن أقع فى الحب ؟ » لأن المرء ينبغى أن يشـعر فى ذات نفسه بالجواب عليه . وميلاد الحب ـ كميلاد كل ما عداه ـ هو من صنع الطبيعة . وفن الحب تجب ممارسته فيما بعد . ويجب الآن أن نحدد اللحظة المعينة التى يبدأ فيها الفنان تشكيل ما بين يديه من المواد « الخامة » .

وقد وصف « ستندال » فى كتابه « عن الحب » ، ميلاد هذه العاطفة وصفا جديرا بالاعجاب . ومن واجبنا أن نعرض للنقط الرئيسية فى حديثه ، وأن نضيف اليها ملاحظاتنا الخاصة .

كل حب يبدأ بصدمة ، اما أن يكون مصدرها الاعجاب، واما أن يكون مصدرها حادثا ما يكشف عن عطف ، أو يثير رغبة : « ان السيدة كارنينا رائعة الحسن » هكذا قال رونسكى لنفسه وهو يغادر القطـــار ، غارقا فى افكاره ، فى رواية تولستوى المشهورة ، ثم يسأل نفسه « ماذا كانت تعنى حين نظرت الى على ذلك النحو » ، وهكذا يدخل شارل جراندى حياة ابنة عمه ذات مساء ، فى دور الرجل المعذب ، ذلك الدور العاطفى ، وهى تحبه منذ تلك اللحظة ، حتى نهاية حياتها ، ذلك فى رواية أوجينى جرانديه لبلزاك .

وبعد أن تثبت الصــدمة اهتمامنا على شخص ما ، يصبح الغياب موصلا جيدا . ويقول الفيلسوف « ألن » ان أعظم قوة للمرأة ، تكمن فى غيابها ، أو تأخرها عن مواعيدها . وحضور المحبوبة لا يلبث أن يكشف لنا عن مواطن الضعف فيها ، أما فى غيابها فانها تصبح واحدة من عرائس الخيال التى كنا نحلم بها فى سن المراهقة ، ونخلع عليها صفات الكمال . ويسمى « ستندال » هذه العملية « بلورة » . حيث تحدث مقارنة بين الشخص الغائب ، وبين قطعة من الخشب لو بقيت فى مناجم الملح بضعة أيام ، تكسوها طبقـــة من قطع كبيرة من البللور ، تجعل لها مثل منظر الجوهرة .

وبعد هذه البلورة يصبح المحبوب شـــخصا آخر ممتازا . وهذا هو السبب فى أن « مارسل بروست » قال ان الحب مسألة اعتبارية ، واننا لا نحب أشخاصا لحقيقتهم وجـــود ، بل نحب ، فقط ، أولئك الذين خلقناهم . « ان الجمــــال انما يكمن فى عين الناظر اليه » .

بعد ان تتم عملية البلورة الأولى ، قد يتم لقاء ثان دون أن يتعرض الحب لأى خطر ، لأن شعورنا يجعل رؤية الشخص الحقيقى مستحيلة بعد ذلك . فقد يقف هو أو هى أمامنا ، ولكننا لانرى سوى البلورة ، ولا نسمع الملاحظات التـــــافهة ، ولا نلاحظ الافتقار الى حسن التقدير ، أو الى الشجاعة . فالغبطة التى نستمتع بها لا يمكن أن يؤثر فيها ، لأن مصدرها هو ذات أنفسنا . وعندما تكون الأمور فى مثل تلك الحالات لا يسفر الحب عن شىء سوى السعادة ولكن النار لا يمكن أن تشتعل دون وقود ، وكذلك الشعلات حديثة العهد بالولادة ، فانها لا تلبث أن تخمد ، الا اذا غذاها شىء من أنفاس الأمل . وليس من العسير ارضاء المحب ، على قدر ما يعنى علامات التشجيع ... فالنظرة ، وضغط يد بيد ، والرد باهتمام ، كلها تسفر عن تأثير مباشر .

فاذا كانت هذه العلامات واضحة ومستمرة ، فانها تستطيع اثارة الحب المتبـــادل ، حيث السعادة التى لا زيادة بعدها لمستزيد ، غير أنه من الممكن أيضا القضاء على هذا الشعور بسلاح الاطمئنان الزائد . ففى كثير من الحالات ، تنمو بدايات الحب وتترعرع بفضل الشكوك ، أو بالأحرى ، بفضل تعاقب الاعراض والاقبال . وكثيرا ما لا تكون لذلك التعاقب علاقة فعلية بعواطف المحبوب ، ولقد كان الحياء والتواضع سببا فيما ظن أن مصدره الازدراء . فبسبب تلك الرغبة فى معرفة دقائق الأمور ، التى لا يحسها سوى المحبين والمخبرين السريين ، نتشاءم من المضايقة التى يسببها صداع ، أو حذاء ضيق ، أو تمزيق جورب . فان مجرد لا شىء ، كاف لازعاج محب . لأنه يحلل النظرات ، والكلمات ، والايماءات ، ويعثر على

ممان مستورة ، ويحاول أن يكتشف ما عساه قد اقترف من الأخطاء التى تفسر له ما يلقى من معاملة خشنة . وكلما ازداد عجـــزا عن الفهم (لأنه ليس هنالك شيء يستطيع أن يفهمه) ازداد تفكيرا فى المرأة التى يحبها ، وازداد حبه لها تغلغلا فى أعماق نفسه . والحب الذى يولده القلق ، يشبه الشوكة التى تجعلها طبيعة شكلها تزيد غوصا فى لحم الانسان كلما حاول انتزاعها .

ومن هذا يبدو ان الدلال ، أو بعبارة أخرى العرض المعمد : التراجع ثم عرض الطعم من جديد ـ مقصود به تماما الى ايقاظ الحب ودعم أركانه . وعلى نحو ماتنقض القطة على كرة من خيوط الصوف تغرى بها ثم تسحب منها ، كذلك تسمح فريستنا البشرية لنفسها بأن تعريها امرأة من ذوات الدلال . على أن اتباع الممنوع ، وزهد النفس فيما تملكه اليد ، من النوازع الطبيعيـــة التى لا يصعب تفسيرها .

غير أن التمادى فى الدلال من شأنه أن يقضى على الحب . ولقد أصرت مدام « ريكامييه » ـ وكانت فترة طويلة من الوقت ، من شهيرات الغوانى ، اللاتى لا يقف فى طريقهن شيء ـ أصرت على أن توقـــع « بنجامان كونستان » فى حبائل غرامها . ونجحت فى ذلك . قالت له : « فلتحاول » ... ولم يلبث الأمل فى النجاح أن جعل من ذلك الرجل الناضج طفلا . قال لنفسه : « انها لا تحبنى ، ولكنها تجدنى لطيفا » . ومنذ أدرك أنهـــا كانت تعبث به ، دون أن تنوى اسداء أياديها ، استولى عليه شقاء عظيم ... « اننى لم أعرف قط غانية من قبل . يا لها من آفة ! » . وبعد ذلك بوقت غير طويل :

« يا الهى ، كم أمقتهـــــا ! » وبعد ذلك انمكست آية « التبلور » فقال : « سأنتهى منها . لقد جعلتنى أقضى يوما فظيما . ان لها عقل طائر ، ولكن ليست لديهـــا الذاكرة ولا حسن التقدير ، ولا الذوق » .

وهكذا نجد أن الفانية قد تمضى فى دلالهـــا الى أبعد مما ينبغى . وفى الفصل الخـــامس من رواية « عدو الشعب » ، من تأليف موليير نجد أن بطلة القصة « سيليمين » قد هجرها كل من كانوا أول الأمر مفتونين بذكائها وجمالها .

ولو حذت الفانية حذو الطبيب فيما يصنع بالمريض على مائدة الجراحة ، حيث يعطى رئتيه الغاز الخـانق مرة ، وغاز الأوكسجين مرة أخرى ، أعنى : لو أن الفانية مزجت قسوتها بما يكفى من الأمل كى يظل مريضها على قيد الحياة ، لما استطاع مقاومة اغرائهـــــا . وهل من الضرورى ممارسة هذه « اللعبة » القاسية ؟ اننى أعتقد أن خيار الناس على استعداد لأن يرفضوا الفوائد التى لا يكاد يرقى اليها الشك ، والتى تعود عليهم بفضــل الدلال ، وذلك بدافع من الحب ، أو طيبة القلب .

ولعل شخصا كريم النفس أن يقول : « اننى أعلم انى باعترافى لك بحبى ، أضع نفسى تحت تصرفك ، ولــكن ، يسرنى أن أفعل ذلك » . فاذا كان الشخص الآخر أهلا لهذه الثقة ، أمكن أن يعيش الحب بأسمى معانيه ، حبا متبادلا ، قوامه الثقة المشتركة . أما اذا لم يكن ذلك الشخص كذلك ، فان من الضرورى اعطاءه جرعات مقوية من الدلال بين الحين والحين .

والمراحل الباكرة من الحب المتبادل ، تعتبر بحق اجمل مراحله : حيث تكون قد تمت عملية تبلور مزدوجة ، ولم يعد هناك خوف من خطر اللقاء . فلقد اصبح كل منهما فى نظر صاحبه هو المخلوق الثانى ، وعندما تدوم حالة مثل هذه ، فان نتيجتها تكون حياة حافلة بالسعادة التامة تقريبا بالنسبة لشخصين . غير أن من النادر ، حتى فى حالة حب كهذا ، أن تتساوى قوتا عاطفتين ، وأن يدوم تساويهما . ومعظمنا يتعين عليه ان يغزو الشخص الذى تتجه اليه رغبته مرة بعد اخرى دون انقطاع . وعلى هذا تتعين اثارة الحب فى ذلك الشخص .

هل من المستطاع اثارة الحب عمدا فى شخص ما ؟ وهل ذلك شيء ضرورى ؟ واذا كان حب الانسان نفسه لا تدعو اليه عاطفة تجيب دعوته ، ألا يكون من الأسهل ، الاصرار على الاستمتاع باللذة ؟

هكذا كانت الطريقة المألوفة فى الحضارات البدائية ، او الموغلة فى القدم : فاذا اشتهى رجل امراة ، اختطفها وهرب بها . وبعدئذ تصبح الأسيرة تحت رحمته . وكثيرا ما حدث انها وقعت أسيرة هواه ، لأنه اختارها دون سواها وأصبح لها سيدا ، أو لمجرد كونه من ذلك النوع من الرجال الذى يمكن أن يستحوذ على فؤادها .

وفى العصور التالية اصبح المال والسلطان يلعبان نفس الدور الذى كانت تلعبه قوة الأجسام . ولقد سجن « اكرايسيوس » ، ملك « أرجوس » ، ابنته « ديانا » ، برج من النحاس ، فدخل اليها « جوبيتر » اله الآلهة ، صورة مطر قطراته من ذهب ، دون عناء .

غير أن حب المغلوبين على أمرهم ، يستهوى الطموحين فنحن نريد ان يقع علينا الاختيار ، ولا نريد أن نكون عبئا يحتمل على مضض . والغزو لا يمكن أن يجلب السعادة الدائمة ، الا اذا كان الشخص المغزو مأخوذا بمحض ارادته . وعندئذ ، فقط ، يكون هناك الشك والقلق ، وتلك الانتصارات المستمرة على العادة والملل ، التى تسفر عن أعظم المسرات . ونساءالحريمالحسناوات يندر أن يظفرن بالحب ، لأنهن سجينات .

ومن الناحية الأخرى ، نجد أن السيدات الطيعات الى ابعد حد ، على شواطىء الاصطياف فى هذه الأيام ، يندر أن تكون بينهن من توحى الحب ، لأنهن متحررات من كل قيد . وأين يكون انتصار الحب حين لا يكون هناك قناع ، ولا تواضع ، ولا احترام للنفس يقيد خطواته .

فالحرية الزائدة عما ينبغى ، ترفع الاستار الشفافة من حول ذلك البيت غير المرئى من بيوت الحريم ، لتحيط بهؤلاء السيدات غير المتمنعات . والحب العاطفى لا يتطلب منهن أن يكن محصنات ،بل أن تكون الحياة التى يحيينها فى نطاق الحدود الضيقة بعض الشىء ، التى يمليها الدين والعرف . وهذه الاشتراطات ، التى روعيت فى القرون الوسطى بصورة تبعث على الاعجاب ، قد أسفرت عن ذلك الحب العف الذى عرفه المجتمع فى تلك الايام . فكانت سيدة القصر الشريفة تظل بين جدرانه بينما ينطلق زوجها الفارس ليشترك فى الحروب ويفكر فى عقليته . وفى تلك الأيام لم يكن الرجل يحاول الا فى النادر ، أن يثير الحب فى المرأة التى شغفته حبا .

بل كان يقنع بأن يحب في صمت ؛ أو على الأقل ، دون أمل . ومثل تلك العواطف المكبوتة نعتبره البعض غير ناضج وغير حقيقي . في حين يرى بعض آخر من ذوي الاحساس المرهف ، أن هذا النوع من الاعجاب على البعد ، جدير بأن يكون مبعث غبطة لا حد لها ، لأنه — بفضل ذاتيته — أقوى تحصيننا ضد الوهم والخديعة .

اذا وقع مراهق في حب ممثلة لم يرها قط الا على خشبة المسرح ، فانه يخلق عليها من رائع الصفات ما يخيل له أن صوتها ووجهها ينطقان به ، مما ليس فيها دون شك . فهو يشـــــاهد تمثيلها في بعض روايات « ماريفو » ، أو « موسيه » ، فيتصور أن لهـــا من السحر الشـــــاعري مثل ما للبطلة التي تقوم بتمثيل دورها . لأنه لا علم له بحقيقة عمرها ، ولا بالتجـاعيد الواضحة في وجهها ، فهو لم يرها الا على أنوار المسرح التي تضفي عليها ما ليس لها من جمال . وهو لا يعرف شيئا عن حدة طبعها أو غرورها ، لأنه لم يعش معها أبدا .

يقول بيرون أن الموت من أجل المرأة التي يحبهـــا الرجل ، أسهل من الحياة معها . والفتاة التي تحب واحدا من كتاب القصة ، يسهل عليها أن تضفي عليا بسخاء ما في أبطال قصصه من صفات ممتازة ، لانها لا تدري شيئا من آلام مفاصله ، وعسر هضمه ، وضيق صدره ، وكسله . ومن الســـــهل أن يظفر الانسان بالاعجاب ، حين لا يكون لأحد سبيل اليه .

وفي سبيل المحافظة على الحب ، يحسن اذن الا يوحيه الانسان ... أفمن الخير أن يظل مجهولا ؟ لا ، فان هذه

العواطف المتصلة بالفكر ، لا يمكن أن يطول أجلهـــا .
« كلما طالت الطريق الى الحب ، ازداد ما يستمتع به المحب المرهف الاحساس » . أجل ، على أن الطريق ينبغي لها أن تؤدى بعد الكثير من المنعطفات الجميلة ، الى الهدف ، بدلا من أن تضله في الفيافي الموحشة . لأن الحب عندئذ ينتهي بالاســــتغراق في النعاس ، والموت بسبب فقر الدم . وبعد حين طال أو قصر ، لا يلبث المحب أن يشعر برغبـــة عارمة في أن يكون محبوبا .

وماذا يستطيع فن الحب أن يلقنه ؟ كيمياء جرعات من أكسير الحب ؟ تعاويذ من السحر ؟ ان ما انحدر الينا عن قديم العصور من الشعر والأساطير ، حافل ذكر الساحرات . كمـــا أننا نعلم أنه « ما أشبه الليلة البارحة » فيما يتصل بهذا الموضوع، وعلى نحو ما كانت عليه الحال في زمن الشـــاعر اليوناني « ثيوكريت » والشاعر اللاتيني « أوفيد » ، لا تزال في باريس ولندن ونيويورك ، غرف خلفية لا حصر لها ، يتردد فيهـــا السؤال القديم ، قدم الزمن ، مائة مرة في كل يوم ، على لسان بعض العجائز المرعبات : « ماذا عسى أن أصنع ، كي أجعله يحبني ؟ » . والتجربة الانسانية ، التي يرجع عهدها الى قرون من الزمن أيضا ، تجيب على ذلك السؤال ، كما تجيب على كل سؤال آخر ، بأن تقترح اقامة الاحتفالات والمراسم .

واستخدام الاحتفالات ، والمناورات ، والحيل ، التي يحاول بها المحبون أن يتملقوا .. يقـــال له الزلفى . والحيوانات ، كالمخلوقات البشرية ، تعمـــد على تزلفها

فى المواسم المعينة ، ولا بأس بأن ننوه بوسائل الاغراء المتادة ، بادئين بأكثرها بساطة ، أى التى هى شائعة بين سائر أنواع المخلوقات ، حتى نبلغ اكثرها براعة ، وهى التى يعمد اليها الجنس البشرى .

من أشيع الوسائل فى سبيل استرعاء الانتباه ، الالتجاء الى الزينة . والازهار بفضل الوانها الزاهية ، تجتذب اليها الحشرات ، لتجلب اليها مادة اللقاح فى الوقت المناسب . كما أن ذباب الليل ، وأنواعا معينة من الديدان ، تضىء نفسها ليلا لكى تعلن للملأ من جنسها انها على أهبة الاستعداد للحب . وكذلك ترتدى النساء اجمل الثياب ، ويتحلين بالمجوهرات البراقة ، كى يقع عليهن اختيار الرجال . ومن حق المرأة وواجبها أن تكون مبعث السرور . وجميعهن أو ما يقرب من أن يكون جميعهن ، يحاول ادراك تلك الغاية . والحمقاوات من العذارى يعتمدن على الاغراء الأطول بقاء ، وهوالغموض . ومعظمهن يتابعن آخر الأزياء ، وهو آخر ما يسترعى انتباه الجنس الخشن . وهكذا نجد أن مصممى الأزياء ، وبائعى القبعات ، والجوهريين ، يكسبون أرزاقهم بفضل رغبة المرأة الدائمة ، فى أن تلفت نظر الرجل .

وبعض النساء ، بسبب التظاهر أو الغرور ، يتجاهلن قوانين « الموضة » ، ولكن مثل هذا التمرد لا يلبث أن يعد مسا من الجنون ، فى مجتمع يخضع فيه كل النساء لنفس المظاهر ، لا فرق فى ذلك بين العاملة الصغيرة والنبيلة العظيمة .

وهكذا يصبح اكثر الأشياء بساطة ، أقلها حظا من

البساطة ، ويصبح الأقل خـــلاعة هو الأكثر خلاعة ، ولا يعود أى تجمل فى حد ذاته تجملا .

وقبل عهد « روفاييل » ، كانت الشابات الانجليزيات اللاتى يترددن على منزل الفنان « وليام موريس » فى ايام الآحاد ، يرتدين ثيابا بســـيطة من الصوف الازرق الخفيف ، ويحطن أجيادهن بقلائد من الخرز الاصفر . ولقد كن يسترعين الأنظار الى أبعد حد ، بين النساء الاخريات اللاتى ظللن على وفـائهن للمجوهرات الثمينة والثياب المزركشة المنحدرة من عصر الملكة فكتوريا .

وان الفنان ليستلفت الانظار اليه ، بقبعته ذات الحافة العريضة ، كما أن الكاتب اليسارى الشاب يستلفت اليه الأنظار بسترته المصنوعة من الجلد . كما أن المتأنق من أبناء الأيام الماضية ، كان يسترعى اليه الانظار بفضل صـــداره الأحمر . وكذلك الذكور من أنواع الحيوان ، لها ما يسعفها بالحلية والزينة . والطاووس واحد من انتصارات الطبيعة على الفن . وفيمـــا يعنى الجنس البشرى ، نجد أن الرجل حين يفضـــل اجتناب التبعات الاقتصادية ، تعين على المرأة أن تلزم جانب الحرص على زينتها . والنظــرة العجلى الى الاعلانات التى تنشرها المجلات الأمريكية ، تكفى لفهم مدى استمرار انشـــغال المرأة بغزو الرجل .

والتفـوق على الآخرين فى أداء أى عمل كان ، طريقة اخرى من طرق الارضاء . وكل محب يبذل غاية جهده فى سبيل اظهار براعته ، وأسلوبه فى ذلك يختلف تماما عن أساليب غيره . وبعض الأطيار ينقض على الماء ليلتقط النباتات لرفقائه . وحين سئل « شاتوبريان » عما عساه

ينشد فى الشرق ، قال : « الشهرة ، كى أحظى بالحب » . ولقد عاد من تلك لرحلة بعبارات خالدة من أجل مدام « دى نواى » . كمـــــا كتبت القصص ، مثل قصة « سان بيف » المعروفة « كلو دور » ، من أجل نساء لابد أن يكن قد وجدن فيها مشـــاعر قد صورت خصيصا لاثارة عواطفهن . ولقد أحال جميع المؤلفين الموسيقيين — على وجه التقريب — أحزانهم ورغباتهم عبارات منسجمة. ولكن لاعب « التنس » يعمد غالبا ، فى سبيل الزلفى الى من يحب ، الى مجرد اجادة الضربات الخلفية ، كمـــا يعمد سائق السيارة الى اظهار جرأته الفائقة ، والراقصة الى اظهار براعتها فى الرقص على أصابع قدميها .

واذا اشتهر الرجل بأنه « زئر نساء » ، أى : « دون جوان » فان ذلك يكون مصدر قـــوة عظيمة الخطر . فحصيفات العذارى يقاومنها ، ولكن العذارى الحمقاوات كثيرا ما يخضعن للرغبة فى أن ينتزعن عاشقا مشهورا من احدى المنافسات ، حتى ان كانت احدى الصديقات . وهذا شعور مركب ، مؤلف من الغرور ، والاحترام لذوق امرأة أخرى ، والحاجة الى تكوين شـــعور بالنفس ، باحراز انتصار صعب المنال . ولقد اختار « دون جوان » عشيقاته فى بادىء الأمر ، ولكنه كان فيما بعد ، هو الذى يختار . وقد قال « بايرون » انه ضحية اعتداء النساء ، أكثر مما كان أى رجل آخر منذ حرب « طروادة » .

***

والرغبة فى الاطمئنان — وهى بين النساء مأثورة الى حد ملحوظ — تجتذب الأضعف منهن الى رجال يبدو لهن بفضل مقدرتهم أو قوتهم ، أنهم قـــادرون على حمايتهن

واعاشتهن . وهن فى زمن الحـــرب ، يحصين عــدد انتصارات المحارب . وفى زمن السلم ، يتصيدن العبقرية، أو الثراء . وتقديم الهدايا بالنسبة الى الرجل العاشق ، وسيلة الى تأكيد وجود قوته . وأطيار البحر المختلفة تقدم الى بنات جنسها التى تهواها أحجـــارا مختلفة البريق فى كثير من الأحيان . وكذلك تفعل أنواع أخرى من المخلوقات ، على غرار ما يفعل الشاب حين يقدم الى خطيبته خيوطا من الصوف فى صورة بساط أو ستار . بل كذلك العصفورة والمرأة ، كل منهما تبدأ فى التفكير فى « العش » ، بمجرد اختيارها للذكر .

والمدح نوع من العطاء ، أو الاهداء . ومعظم قصائد النسيب والتشبيب ، ان لم يكن جميعها ، عبــارة عن أحزان وأمداح . والاحزان مؤثرة ، ولـــكنها سرعان ما تصبح مملة . والمـــدح مدعاة الى السرور ، لأن كل النساء والرجال ، تقـــريبا ، فيهم نوع من « مركب النقص » .

فأجمل النساء تتشكك فى ذكائها ، وأحذقهن لا تثق بمفاتن جسدها . وما أروع الكشف عن المزايا الـكثيرة المحببة ، التى يتمتع بها شخص لا يدرك أنه يملكها ، أو ينظر اليها باعتبار أنها أشياء لا أهمية لها .

ومن المحقق أن المرأة الخجول والمرأة دائمة الاكتئاب ، تتفتح كما تتفتح الأزاهير فى الشمس ، حين تجد نفســها موضع اعجاب . كمـــا أن شهية الرجل الى المـديح لا حدود له .

ولقد حظى بالحب ، طيلة حيـــاتهن ، كثيرات من النساء العاديات اللاتى لا سحر فيهن ، بفضل اتقانهن

أساليب المديح . ولعل من الجدير بالذكر فى هذا المقام ، ان الناس يغتبطون حين يمتدحون ، ليس بما فيهم من مزايا واضحة يعرفونها مثلك حق المعرفة ، بل بتلك المزايا التى يعتقدون أنها تنقصهم .

فالقائد العسكرى لن يشكرك اذا تحدثت اليه عن انتصاراته ، ولكنك تظفر بما لا حد له من امتنانه ، اذا أنت تحدثت اليه عن طريق بريق عينيه . والقصصى المشهور لا يهتم كثيرا لامتداح كتبه ، ولكنك اذا تحدثت بحماس عن موضوع غامض لم يفهمه سوى القليلين ، أو عن نبرة فى صوته ذات صدى يتردد ، فانه سرعان مايبدى اهتمامه لما تقول .

وللنساء أساليبهن الخاصة فى الغزو . ولقد ظل المفروض منذ زمن طويل ، أن النساء ينتظرن حتى يخطو الرجال الخطوة الأولى ، ولكن هذا الفرض كان أساسه مجرد المظاهر . ويقول « برنارد شو » ان المرأة تنتظر الرجل ، ولكن كما ينتظر العنكبوت الذبابة . ولقد كان القصد من الرقص دائما ، هو التغلب على حياء الرجل ، وفى نفس الوقت ، ارغامه على كبح جماح رغباته . والرقص الحديث له هدف أكثر صلة بالحواس الى حد بعيد ، من الرقص العتيق ، أو الرقصات الريفية .. وهو لا يزال من أكثر الخدع نجاحا . وفن الغزو فى كثير من الأحيان ، بالنسبة الى النساء ، هو فن تهيئة الاستلفات ، والتشجيع ، والمساندة الروحية . ولننظر الى مدام « منتنون » قد ودعت ربيع شبابها . وكانت علاقتها بالملك مقصورة على كونها مربية لأطفاله الذين انجبتهم له مدام « مونتسبان » التى كانت امرأة حسناء تتمتع بنفوذ قوى على عقله . ولكن مدام منتنون لم تقنع بأن

انتزعت منها لويس الرابع عشر ، بل لقـــد نجحت فى ادراك الغاية التى لم تجسر مدام « مونتسبان » أبدا على أن تتمناها : فأقنعت الملك بأن يتزوجها .

فماذا كان سر نجاحها ؟ .. لقد بدأت قبل كل شيء بالاتصال بالملك ، كرسول سلام بينه وبين عشيقته التى كان قد بدأ يضيق بثوراتها العاصفة . والرجال يحتملون الى حين ما يقابلون به من مشاهد الغضب والغيرة ، من النساء اللائى يحبونهن حبـــا عميقا . وبعضهم يفضل العلائق الغرامية الصاخبة ، كما يفضلون البحـــار الهائجة على البحار الهادئة . ولكن معظمهم بغير شـــك يحبون الهدوء . وما أسهل ما يسلس قيادهم للملاطفة ، والبساطة ، والرقة ، لا سيما اذا ما كانت امرأة مجنونة فى الماضى ، قد شفتهم من مرض استساغة العنف .

كذلك وضعت مدام « منتنون » لنفسها قاعدة ثابتة ، ى أن تكون حاضرة حين يكون الملك قائما بأداء عمله . ـان الوزراء يستدعون الى جناحها ، وكانت هى تصغى الى التقارير الرسمية فى صمت . أما اذا سألها الملك ، فانها كانت تجيب اجابات فى الصميم ، تدل على أنهـــا كانت تصغى الى كل ما قيل ، وتفهمه ، وتقلب فيه أوجه الرأى . ولقـــد كان ذلك من جانبها آية من آيات الدهاء . فالرجل الذى يستحق أن يسمى رجلا ، يقدم عمله على كل شيء آخر فى العالم ، حتى المرأة التى يحبها . واذا حاولت هذه المرأة أن تصرفه عن عمله ، وتضع نفسها فى أقصى المقدمة من اعتبارات حياته ، فانه قد يسمح لها بأن تمضى فى طريقها الى حين ، ولكنه لا يلبث بعد أيام لن تطول أن ينصرف عنهـــا الى امرأة أخرى عرفت سر

ضرورة انشغاله بعمله .

والطيور تصدح بأغانيها الخاصة ، وتنقض انقضاضها على النباتات المائية ، والأسماك تمارس رياضاتها الغرامية في أمواه تحيط بها الصخور . ولكن الرجال يكتسبون المهارة والنفوذ من طريق الاستعاضة والبدل . فبدلا من أن ينظم العاشق قصيدة من الشعر ، يقرأ لمعشوقته شيئا من شعر « بودلير » . وكذلك عازف البيانو الذى يحاول أن يظفر بحب صديقته ، فيعزف لها بعض ألحان « شوبان » ، فعبقرية النابغة تسمو بمريديه والمترجمين عنه .

والموسيقى حين تملأ ذهنين معا بما فيها من جمال منسق ، وبهجة علوية ، كثيرا ما تمهد للحب بينهما . ولقد تم الارتباط بين أكثر من قلبين ، بفضل بيتهوفن وموزار وفاجنر . والكثير من العلائق الغرامية تكون بدايته فى معارض التصوير . كما أن الروايات قد تكون موضوعات للحديث ونماذج للسلوك . وأحسنها بمثابة دروس فى الحب كما ينبغى أن يمارسه أولئك الذين هم أهل لمباهجه . والثقافة المشتركة تجعل فى الامكان أن يقوم حب على مستوى رفيع من البهجة ، وهى تساعد أيضا على تمضية اللحظات العصيبة ، حين « تبعث السآمة شيئا من المرارة فى غمرة الجذل » . فبتحصيل الثقافة يمهد الانسان نفسه للحب .

والعقيدة الدينية ، أو العقيدة الوطنية أو السياسية ، أو الايمان بضرورة وجمال أى عمل من أعمال الحياة ، اذا اشترك فيه المتحابان كان عاملا رائعا من عوامل تقوية الحب . ومن العسير حقا على صاحب العقيدة الراسخة

ان يكن شعورا دائما للشخص الذى لا يشاركه ما يمتقد بأى حال . وفى مثل تلك الحالة ينبغى لغير المتقد أن يتذرع بما لا مزيد عليه من اللباقة والاحترام والا فان الأمل فى التحول ينبغى أن يكون حاضرا فى ذهن الشخص الآخر ــ وهذا التحول كثيرا ما يعقب الحب ، اذا قدر لمثل ذلك الحب أن يعيش . وان اشتراك الرجل والمرأة فيما يؤمنان به دون تحفظ ، ضمان مؤكد لحصولهما على السعادة . وبهذه الوسيلة تدفع بنا قوتنا العقلية والعاطفية معا ، فى الاتجاه المختار . وكل عمل يكون الحافز فيه هو الحب ، يكون عملا ممتعا . ولكن ، ليس فى الدنيا شيء يعدل متعة مزج العمل بالحب . ومثل هذا المزيج الممتاز ، يسفر عن خلق تلك الأزواج المدهشة من العلماء ، والفنانين ، والمصلحين ، الذين هم ليسوا أزواجا ، بل فرقا . وهنا لا تجدى المغازلة ، فقد احتل الاندماج مكانها .

***

بعد مغازلة قد تكون مديدة أو وجيزة ، وقد تكون ساذجة أو غير ساذجة ، يولد الحب . ولكن كثيرا من الحب يموت فى مهده . وتغذيته على الوجه الصحيح ، تتطلب عناية دائما . والجدة ، التى هى اقوى عوامل الانجذاب ، هى كذلك أسرعها تلفا . وفى بداية الأمر ، يكتشف كل فى الآخر الف اكتشاف . ولدى كل منهما ذاكرة شابة : ناس يوصفون ، وأغنيات تغنى ، ونوادر ، مما يختلط بالملاطفات الغرامية فيملأ الأيام بهجة وجذلا . ولكن مما يؤسف له أن هذه المدخرات لا تلبث أن تنتهى الى غايتها ، كما أن تلك القصص التى كانت تبدو مسلية الى أبعد حد ، أصبحت الآن تبعث على الضجر ، وكأنهـا

اسمال بالية . كم من الرجال والنساء من يكون أكثر مقدرة على تسلية الغير حين لا يكون فى صحبة رفيقه المعتاد ، لأنه يستطيع أن يتحدث بغير تحرج ، عن اشياء سبق الحديث عنها مرارا وتكرارا . وفى المطاعم ، يتناسب طول فترة الصمت بين الرجل والمرأة ، مع طول الفترة التى قضياها من حياتهما معا .

على أن هذا لا يحدث الا بين من ليس عندهم استعداد للحب ، وليست لديهم الموهبة التى تمكنهم من الاحتفاظ بنضارة دائمة . فالشخص الذى يحب حقا ، يجد متعة فى التجول كل يوم بين افكار من يحب ، كما يستمتع قسيس القرية بالتجول فى حديقته كل مساء . وبعضهم مخلص على الدوام ، اما لأنه ينظر الى الحب نظره لمسألة جدية ، واما لأنه خجول ومحب لحياة البيت . وبعض البيوت بالذات ، تقوم سعادتها على الاشتراك فى النفور مما فى العالم الخارجى من ألوان الصراع ، وعلى الرغبة فى حياة منعزلة بين ناس مألوفين وأشياء معتادة ، وباختصار ، على الرغبة فى الأمان .

ولكن ذلك الذى يحب بمزيد من التوسع ، يتعلم اذا اقتضت الحال ، أن « يجدد » نفسه . وأساليب الانسان فى ادخال السرور ، تستنفد يوما بعد آخر ، ولكن الانسان ينبغى أن يدخل السرور ، وهو كذلك يفعل .. بل قد يكون الجهد المبذول فى سبيل ادراك تلك الغاية جهدا غير شعورى .

واذا كان شخص ما يتمتع بجاذبية ، فانه لا يفقدها ، ابدا ، والجاذبية لا يدركها الاغبياء . وكلمات وأفعال الشخص الذى يتمتع بالجاذبية ، هى مصدر مسرات

متصلة .

والتقدم فى السن لا يغير الانسان من هذه الناحية . والوجه الجميل تدركه الشيخوخة بصورة لطيفة ، والانسان يغتبط اذ يجد وراء الشعر الابيض ، النظرة والابتسامة اللتين منحهما حبه منذ عهد عهيد .

***

هل هناك فن نستطيع به أن نتجنب ادخال الضجر الى نفوس الناس ؟

ان السر العظيم يكمن فى السماح لهم بأن يكونوا طبيعيين . فمن العسير أن يتخذ الانسان لنفسه موقفا غير طبيعى ، دون أن يفقد شيئا من جاذبيته . والحكماء من المحبين يجهدون فى الاحتفاظ بالميول الطبيعية لمن يحبون .

وهناك رجال يرجون تغيير طبائع النساء ، ويفرضون يهن الأذواق والأفكار . وهذا حمق بحت . فاذا نحن جدنا امرأة تختلف أعظم الاختلاف عن مثاليتنا ، وجب ينا الا نحبها . أما اذا وقع عليها اختيارنا بصورة قاطعة فانه يصبح من واجبنا ألا نعترض سبيل نموها .

وفى الصداقة ، كما هو الحال فى الحب ، يسعدنا أن نرى أولئك الذين نستطيع معهم أن نكون على سجيتنا دون تحرج أو تظاهر .

ويحرص البارعون من المحبين على تدبير لقاءاتهم فى الأماكن الجميلة . ومن هنا نشأت عادة قضاء شهر العسل الحميدة . على أنه ليس من الضرورى أن تكون تلك الرحلات طويلة . فالمرأة العاشقة تعرف بغريزتها كيف تهيىء عشها . وبعضهن يعرفن جيدا كيف يستفدن

من سحر الطبيعة والفن . فهن يدركن متى يؤثر عشاقهن العزلة ، ومتى يرغبون فى حضور الحفلات الموسيقية . والنساء دائمــا أعمق ادراكا من الرجال ، للجوانب الاجتماعية من الحياة . ويجب أن يترك بأيديهن أمر تدبير غراميات الرجال .

واذا حرص رجل على ألا يرهق امرأة تمنحه الكثير من حسن المقاصد والحنان المؤثر ، كان من واجبه أن يدرك أهمية الدور الذى يلعبه الحب فى حياتها .

وليس هناك شيء أكثر غباء من الرجل الذى يحتقر آراء المرأة ، لأنه ينظــر اليها من قمة عالية من قمم الفلسفات أو المعتقدات . فاختلاف آرائها عن آرائه ، راجع الى أن آراءها أكثر بساطة وأرسخ أسسا . فاذا نشب بينه وبين عشيقته خلاف ، فانه لن يستطيع أبدا أن يقنعها بطريق الجدل ، بل تعين عليه أن يعمد الى الحنــان ، والصمت ، والصبر . ولا ينبغى له أن ينسى أنها تفوقه كثيرا من حيث كونها ضحية الاعصاب فى جزء كبير من عمرها . فاذا هو ، فى تلك اللحظات العصيبة ، عال بانحراف المزاج ذلك الذى هو مجـرد شكوى جسد مريض ، فهو انما يعرض للدمار صـلة كانت سعيدة، وقد تكون سعيدة من جديد ، لغير ما سبب سوى حالة طارئة عابرة .

ومن العبث ، ولكنه من الطبيعى الى حد ما ، أن نقارن بين نوازع المرأة ، وبين حركات البحر المحيط . والزوج الحكيم لا يستبد به الغضب أبدا ، فعليه أن يقتدى بالملاح فى العاصفة ، اذ يطوى شراعاته ، وينتظر ، آملا ، دون أن تضع العاصفة حدا لحبه للبحر .

وهناك عدة قواعد يجب ان يتبعها ابناء الجنسين فى تعلم فن اجتناب ادخال الضجر الى نفس المحبوب .

وأول هذه القواعد أن يظهر الشخص فى أعظم لحظات رفع الكلفة ، من الاحترام الوافر مثل ما كان يبديه فى لحظات اللقاء الأول . والأشـخاص الطيبو التنشئة ، مهذبون بطبيعتهم . وكل الاشياء يمكن أن تقال بأسلوب رقيق .

والقاعدة الثانية هى الاحتفاظ بروح المرح فى جميع الحالات ، ومقدرة الشخص على السخرية من نفسه ، وادراك ما فى معظم الخـلافات من سخافة ، وعدم تعليق أهمية فاجعـة على المواجع المختزنة . ومن العبث أن يزاد طين العذاب الراهن بلة ، بذكريات مشاحنات سابقة .

والقاعدة الثالثة هى استثارة الغيرة فى حدود معقولة ، أى تجنب قلة الاكتراث ، وعدم الثقة ، وكلاهما أليم .

والقاعدة الرابعة هى التمهيد لعمليات بلورة جديدة ، من طريق الانفصال بين الفينة والفينة . فهناك خطر من العطلات الغرامية أو الزوجية . ولكن هذه العطلات قد تسفر عن فائدة اذا هى كانت قصيرة ، واذا ما تخللتها الرسائل .

وقد يحدث أحيانا أن شخصين ، بسبب رفع الكلفة ، والتكاسل ، لا يلبثان أن يفقدا نغمة الحنان فى أحاديثهما ، ولكنهما يستطيعان استعادتها من طريق العبارة المكتوبة .

وأخيرا ، فان القاعدة الختامية ، التى لا يكاد يعرفها أحد ، هى التشبث بأهداب الخيال : « لماذا لا أزال أحن اليها ، بعد أن فزت بها ؟ السر فى ذلك هو أنها وان كانت

لى ، فانها لن تكون ملكى ابدا » . وهذه نقطة عظيمة ، فى تقدير بعض النساء .

وعدم املال المحبوب ، يكاد يكون فنا محفوفا بالمخاطر ، اذا أدرك المحب الملل منه .

فهل هناك أيضا فن يحول دون حدوث الحالة الاخيرة ؟ ام أنه يجب الاعتراف بأن هنـــــاك نوعين من الرجال والنساء : النوع المخلص ، والنوع غير المخلص . المستقر وغير المستقر . وانه اذا كان شخص ما ينتمى الى أحد النوعين ، فلا جدوى مطلقا من تظاهره بالانتماء الى النوع الآخر .

وانى لأرى أن الطبيعة فى جميع الأشياء ، تتولى تقديم مادة يجب أن تقوم الارادة بضبطها . والرجال والنساء لا يولدون وفيهم عدم الاستقرار ، وانما تجعلهم يصيرون كذلك ، تجاربهم الغرامية الباكرة .

وقد يكونون عاطفيين بحكم طباعهم ثم يصادفون والدين من ذوى الطباع الباردة .

واذا حدث هذا ، فانهم اذا كانوا من رعاة الاخلاق اصبحوا مخلصين وغير سعداء . اما اذا لم يكونوا كذلك فانهم يصيرون غير مخلصين ودائمى القلق حتى يصادفوا « أنصافهم » المكملة ، ومن ثم يتحولون فجأة . وقـد تصل حياة المغامرة الى خاتمتها على حين غرة ، بفضل اكتشاف الزميل المناسب .

واذا كان للضعف الجسدى أهمية ملحوظة ، فهنالك أيضا ، الضعف النفسانى . والرجال ليسوا على الدوام فى حالة جسدية مرضية ، كما أن النساء كثيرا ما يغلب

فيهن البرود ، ولهذا فان غزواتهن تمنحهن ما يرضى فيهن الكبرياء والخيال معا .

وكبرياء الرجل أو المرأة فى حالة فقدان الثقة بالنفس ، تجب تغذيتها . ولقد سمع « بيرون » أول فتاة وقع فى حبها وهى تقول : « كيف أستطيع أن أحمل نفسى على الاهتمام بهذا المشلول ؟ » ، وبعد ذلك قضى بقية حياته وهو يثأر لنفسه .

وقد تقسو المرأة على « مجموعة الحيوانات » التى تعرفها ، لأنها فى صغرها كانوا يعدونها فتاة دميمه ، ولهذا يحتاج احترامها لنفسها الى تقوية ، ولابد لها من تأكيد قوتها باستمرار .

والطفولة الشاعرية ، اى غير الحقيقة ، كثيرا ماتتمخض عن خيال لا يمكن ارضاؤه أبدا . ولقد تنقل « شاتوبريان » من امرأة الى أخرى ، لأنه كان فى صدر شبابه قد اكتوى بعذاب الكبت الجنسى ، وحرم من النساء اللائى يستطعن أن يضعن لعذابه حدا ، فأقام لنفسه مثلا أعلى انفق كل حياته فى البحث عنه . لشد ما خاب أمله فى العشيقة بعد العشيقة ، حتى جاء اليوم الذى جعله تقدم السن فيه أكثر ادراكا ، فخيل اليه أنه عثر على رمز مثله الأعلى : « جولييت ريكامييه » .

***

تنبع القداسة الحق من التواضع ، واللطف ، والبر ، أكثر مما تنبع من « التجليات » الدينية والتقشف . وعلى هذا النحو يمكن التعرف على الحب الحقيقى ، ليس بالهجمات العنيفة التى تشنها الشهوة العارمة ، بل بما يسود الحياة اليومية من الانسجام الرائع الدائم .

وهناك قصة تروى عن راهبـــة شابة أقبلت على القديسة « تيريزا » تسألها أن تخبرها ما هى القداسة ؟ .. وكانت الراهبة تتوقع أن تحدثهـــا القـــديسة عن التصورات الدينية وما اليها ، ولكنها بدلا من ذلك أخذتها الى دير كانت قد أنشأته حديثا ، وجعلتها تقضى فيه عدة أشهر ، حيث لم تصادف سوى انعدام وسائل الراحة ، والصعوبات ، وخيبة الأمل ، والهزيمة ، والعمل .

وأخيرا جمعت الفتاة أطراف شـــجاعتها وسألت متى يخبرونها عن القداسة ؟ فقالت القـــديسة جوابا على سؤالها :

« ليست القداسة شيئا أكثر من احتمالنا كل يوم ، فى حب وصبر ، للحياة التى عشناها فى هذا الدير » .

ان المباهج العاطفية الرائعة التى ينعم بها جمــــاعة المحظوظين من المتحابين ، تشبه أيام الصيف التى يملؤنا فيها دفء الشمس باسترخاء سعيد الى أبعد حد ، حيث يبلغ من صفاء السماء أننا لا نستطيع أن نتصورها ملبدة بالغيوم ، وحيث يصير أكثر قرى السهل تواضعا ، وكأنه انعكاس صورة جمال سحرى فى الضوء الذهبى . وأيام كهذه بذكرياتها المسحورة ؛ والأمل فى أن تجلب مثيلات لها أخريات ، تمنحها القوة اللازمة والشجاعة على احتمال الأشهر القاتمة الحافلة بالعواصف .

ولما كان كل من الصيف والشهوة غير قـــادر على أن يتجـــاوز دورته الطبيعية ، فمن واجبنا أن نتعلم حب الأيام الغبراء ، وصبابات الخـــريف ، وأمسيات الشتاء الطويلة .

ويقول « آبيل بونار » فى هذا المعنى : « ان أصدق الحب مثله مثـــل ثوب فحم من ثياب الاحتفالات ، مصنوع من حرير مشجر ، ومبطن بحرير لا نقوش فيه ولكنه يمتاز بلون لطيف نادر ، حتى ان الانسان ليكاد يفضله على الحرير المشجر » .

ما هذه السعادة الأكثر رقة ورصانة ، التى تأتى فى لحظات الحب الأولى لتحتل مكانها الى جانب الرغبة الجنسية ، فى حياء أول الأمر ، ثم لا تلبث ان تبسط نفوذها بهدوء ؟

من أى شىء صنع هذا الحب ، الذى تلده الرغبة ، ثم يعيش بعد فنائها ؟

من الثقة والعادة والاعجاب .

ان كل زميلاتنا من الكائنات الحية تقريبا ، تخدعنا ، غير أن القليلين منا قد عرفوا متعة لقاء امرأة أو رجل ، يصدر فى اخلاصه وصراحته عن طبع أصيل ، وكان سلوكه فى كل موقف تقريبا ، على وفق رغباتنا ، ولم يتخل عنا فى أحرج اوقاتنا .

وهؤلاء القليلون ، يعرفون ذلك الشـــعور الرائع ، الثقة . وهم ، مع شخص واحد على الأقل ، يستطيعون فى كل يوم ، ولفترة وجيزة من الوقت ، أن يرفعوا عنهم ثقل خوذاتهم ، وأن يتنفسوا بحـرية ، وأن يكشـفوا عن وجوههم وقلوبهم دون خوف .

والثقة شىء ثمين الى درجة أنها ، كالرغبة الجسدية ، تضفى على أتفه الفعال جمالا . والرجل والمرأة فى أيام شبابهما كانا ينشدان الأماكن الخالية كى يتعانقا ، وهما

الآن ينشدانها كي يفضي كل منهما الى الآخر بأسرار فؤاده . ولقد أصبحت نزهاتهما على الأقدام ، على مثل أهمية مواعيدهما الغرامية فيما مضى . وهما يفكران فى الشيء الواحد فى وقت واحد . وكل منهما نصيبه الألم الجسمانى اذا شكا الآخر ألما نفسيا . وكلاهما مستعد لأن يجود بالحياة نفسها فى سبيل الآخر ، والآخر يعلم ذلك .

ولا شك فى أن الصداقة المثالية يمكن أن تتمخض عن مثل تلك المشاعر ، ولكن الصداقات التى لا تحفظ فيها نادرة الى ابعد حد . فى حين أن الحب العظيم يستطيع أن يهب لأبسط الناس صحة الحكم ، وانكار الذات ، والثقة بالناس .

كيف يمكن أن توصف حياة زوجين سعيدين ، فى خريف غرامهما ؟ كيف يمكن ايضاح أن الاله لا يزال الها ، مع أنه ربما كان قد اتخذ لنفسه مظهرا فانيا ؟

ان سيمفونية السعادة ، التى يتولى أمر موسيقاها مؤلف عبقرى ، قد تكون عملا رائعا . كما أن موسيقيا قليل المواهب ، قد يفضل شيئا من النغم الصاخب . على أن الألحان المتصاعدة الصافية فى بعض المعزوفات الموسيقية الشهيرة ، وهى ترتفع بروح سامعها الى مراق غير مألوفة ، تكون أقدر من الكلمات على ايقاظ التسامى القوى الطبيعى ، فى انسجام لا يمكن أن ينال منه شيء . ومن هذه الألحان مقدمة « بارسيفال » من موسيقا « فاجنر » ، واللحن الجنائزى من موسيقا « فوريه » .

واذا كنت قد أشرت الى « اللحن الجنائزى » فان فكرة الموت هى الهنة الوحيدة فى تلك الموسيقا التى تكاد تتجاوز حدود الكمال . ولقد عبر « كافنترى باتمور » بقصيدة

من روائع شعره ، عن شدة حزن رجل وجد نفسه فجأة ، بعد حياة طويلة حافلة بالسعادة ، ازاء الجسد المسجى للمرأة التى كانت هى الدنيا بأسرها بالنسبة اليه ، فلم يلبث ان راح يعاتبها على هجرها اياه ، فى أسى والتياع وحنان :

ما هكذا كان عهدى بوفائك العظيم الرحيم ..

انت التى ليس لها ما يبعث فى نفسها لوعة الحزن !

الا تندمين يا غرامى ؟

على أنك ذهبت ..

عصر ذلك اليوم من أيام الصيف .

وعلى شفتيك عبارة مفاجئة غير مفهومة .

وفى عينيك نظرة مذعورة .

الى رحلة سوف تطول اياما .. وأياما ..

دون قبلة واحدة ، أو كلمة وداع ؟

كل هذا لم يكن من مأثور وفائك الرحيم العظيم ، فى شىء !

***

حين يجعل الانسان كل شىء فى حياته ، رهينا بوجود انسان واحد سريع العطب ، فان ذلك يكون نيلا منه ، ومصدر خطر عليه .

على أن الموت نفسه ليست لديه اية قوة تستطيع ان تقضى على الحب الأعظم .

ولقد حدث مرة أننى قابلت فى أسبانيا عجوزا من الفلاحات تمتاز بوقار غير عادى . وان انس لا أنس قولها

لى : « أوه .. ليس عندى ثم ما يدعو الى الشكوى .
لا شك فى أن حياتى كان فيها متاعب .. فحين كنت فى
العشرين ، أحببت شابا أحبنى فتزوجنا .. وبعد أن
مضى على زواجنا أسابيع قلائل ، قضى نحبه . ومهما
يكن من شىء ، فاننى قد فزت بنصيبى من السعادة .
ثم قضيت السنوات الخمسين الأخيرة وأنا أفكر فيه » .

وياله من عزاء ، على تعاقب سنوات من الحزن
والوحدة ، أن يستطيع الانسان ابتعاث ذكرى واحدة على
الأقل ، لا تشوبها شائبة !

وبفضل حب عظيم كهذا ، يملأ أفكارنا وأحلامنا بالصور
المشرقة ، تظفر بقسطنا من شىء يسمو عن مدى ادراكنا .
ومن الاصطدام الخاطف بين غرائزنا ، تومض شرارة
مقدسة .

على أن آخر كلمة عن فن الحب ، لم يقلها «ستاندال» ،
بل — كما قال « ستاندال » نفسه فى مناسبات كثيرة —
قالها « موزار » الموسيقى المعروف . اذهب الى حفلة
موسيقية ، وأنصت الى تلك الألحان الصافية ، والايقاعات
الرائعة ... فاذا خيل اليك عند ذاك ، أن حبك فيه
اختلاط ، وحدة ، ونشاز ، كان معنى ذلك انك لم تزل فى
فن الحب مبتدئا مفتقرا الى التجربة والمران .

أما اذا كنت فى شعورك ، مدركا لهذا الاستيعاب
التدريجى للجمال ، هذا الفهم الرائع ، هذا التوفيق البارع
بين التيارات المتعارضة المصطرعة ، على نحو يتخطى حدود
كل نشاز ، فانك تكون قد دخلت فى مغامرة من المغامرات،
القليلة فى الحياة ، الجديرة بأن يمر بها الناس : حب
عظيم !!

فن الزواج

اذا كان فن الحب . هو فن تحويل الرغبة الهائمة ، الى عاطفة دائمة ، فان من واجبنا أن ندرس حالة رجل تعتمل فى نفسه تلك الرغبة ، ندرس حالة رجل تعتمل فى نفسه تلك الرغبة ، فيقول له القانون : « قف ! انك لا تستطيع الاذعان لغرائزك الطبيعية ، الا اذا وقعت عقدا يربطك ، رباطا قانونيا ، بالمرأة التى تتجه اليهـا رغبتك ، وبالأطفال الذين قد يولدون ، نتيجة معاشرتك اياها » .

وهذه الرابطة يصعب التحرر منها على أى حال ، على وفق ما يقضى به الزمن والعادة .

فالمسلم يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد ترديده عبارة بسيطة . أما من يعتنق المذهب الكاثوليكى ، فانه لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك ، ويتزوج مرة أخرى ، الا اذا منحته الكنيسة اذنا بابطال زواجه الاول . وهو اجراء عسير وكثيرا ما لا يقدر له النجاح .

وبين هذين النقيضين ، كثير من الخلود الوسط . وهذه الرابطة القانونية تفرض فى بعض الاحيان فرضا مشددا ، حيث يخفف من وطأة المعاشر الاجبارية ، خيانة تحدث فى

الخفاء ، أو تحتمل على مضض . وفى بعض الاحوال ، على نحو ما يجرى فى أمريكا : تحل الرابطة القانونية بمزيد من السهولة ، ومن ثم يتم الزواج الجديد ــ وهو نظام يرى البعض أنه أكفل لصيانة الاعتبارات الخلقية .

ومهما بلغ من صلابة الرابطة أو مرونتها ، فان شعائر الزواج وعقوده ، فى كل بلاد العالم تقريبا ، مطاوبة من الرجال والنساء . وفى اعتقـــــادى أن هذا هو الوضع السليم ، وسأحاول تعليل ذلك . ولـــكن أعداء الزواج يجب أن يسمح لهم بالكلام أولا .

***

ان أول الاعتراضات على مبدأ الزواج ، وأكثرها انطواء على الجد ، قد عبر عنه « شيللى » خير تعبير ، اذ قال ان الحب يموت اذا تعرض للكبت ،وان النزوات العاطفية الجامحة ، لا يمكن أن تخضع لحكم القانون . ولكن ، اذا صح أن الحب لا يمكن أن يتفق مع رابطة قانونية ، فلماذا فرضت هذه الرابطة فرضا ؟

وهنا يقول المعارضون (ويجب أن نذكر أنهم جميعامن الرجال) : « لأن من مصلحة النساء أن يحتجزن الى الابد أولئك الرجال الذين تسرعوا كثيرا فوقعوا فى حبهن » . ويقول « برنارد شو » مثــلا ، فى كتـــــابه المعروف « الانسان والانسان الـــكامل » : ان الرجال يحتملون الزواج كارهين ، ولكن النساء يرغبن فيه من كل قلوبهن . ولقد أجرى على لسان « دون جوان » فى كتابه المذكور هذه الرواية :

« حينما كنت من سكان البسيطة ، وتقـــدمت بتلك المقترحات الى سيدات كن برغم كونهن من طريدات المجتمع ،

قد صنعن منى بطــلا هائلا من أبطال الأساطير ، لم أكن أقابل فى قليل من الأحيان بمثل هذه الطريقة . كانت السيدة تقول انها سوف تتقبل اتصالى بها ما دام شريفا . فلما سألت عن معنى هذه العبارة ، عرفت أن معناها أن لى أن أستولى على ممتلكاتها اذا كان لها أى ممتلكات ، أو أتولى الانفاق عليها طول حياتها اذا لم تكن تملك شيئا ، وأن على أن أصحبها صحبة دائمة ، وأن أستشيرها وأجاذبها أطراف الحديث حتى آخر أيام حياتى . كما أن على أن أفرض على نفسى التزامات تجعلنى على الدوام عرضـــــة لتوقيع العقوبات ، وفوق كل شىء ، أن أدير ظهرى الى من عداها من النساء ، من أجلها . ولم أعترض على هذه الشروط لأنها كانت خيالية وغير انسانية . على أن شططهن العجيب كان السبب فى أننى قد أسقط فى يدى . ولقــــد أجبت على وجه العموم ، بكل صراحة ، بأننى لم أحلم قط بشىء من تلك الأشياء ، وانه اذا لم تكن الســـيدة تفوقنى أو تعادلنى من حيث الشخصية والثقافة ، فان أحاديثها لن تلبث أن يهبط مستواها ، ومشورتها لن تلبث أن تضللنى ، كما أن صحبتها الدائمة ـ فيما أعلم ـ قد تصبح مصدر ضـــــجر لا يحتمــل بالنسبة لى . وأننى لا أستطيع أن أتنبأ فضلا عن مستقبل أيامى حتى آخر العمر . وأن اقتطاعى من كل العلاقات الطبيعية الاختيارية التى تربطنى باخوانى فى البشرية ، من شأنه أن يضيق أفقى ويشوهه ، اذا أنا أذعنت له . والا فانه سيجلب على لعنة المجهول . وأخيرا ، فان كل مقترحاتى عليها لم تكن لها أية صلة على الاطلاق بأى أمر من تلك الأمور ، بل كانت نتيجة احساس بسيط للغاية ، من جانب رجولتى ، نحو أنوثتها » .

ومن الواضح أن مدار حجة المعارضين لمبدأ الزواج ، هو أنه نظام الفرض منه دعم شيء لا يمكن دعمه ، وتحقيق الدوام لشيء لن يدوم . والكل متفقـــون على أن الحب الجسدى كالجوع والظمأ من حيث كونه غريزة طبيعية ، ولكن دوام الحب ليس غريزيا . فاذا اتفق — كما هى الحال مع رجال كثيرين — أنه لم تكن هناك مندوحة عن أن يلتمس الحب الجسدى بعض التغيير ، فما ذلك الوعد المبذول بالتفانى حتى آخر العمر ؟

يقول أعداء الزواج انه يقضى على شجاعة الرجل ، وقوة تفكيره . ويقول الكاتب الفرنسى الأشهر « رومان رولان » : ان الرجل المتزوج ، لا يزيد عن نصف رجل . ويتحدث الشاعر الانجليزى « لورد كبلنج » عن ضـــابط ممتاز فى الجيش اسمه الكابتن « جادسبى » أقدم على الزواج ، فجعل من نفسه زوجا مثاليا ، وضابطا تافها . فبدافع عن رغبته فى الحرص على حياته من أجل زوجته ، لم يعد يؤدى واجباته العسكرية بنفس الشجاعة والحماسة . كما أن الوزير السياسى العظيم « أرستيد بريان » قـــد صرح بأن رجل الدولة لا ينبغى له أبدا أن يتزوج وهـــو يقول فى ذلك : « أنظروا الى الحقائق ، كيف استطعت طوال سنوات عملية شاقة أن أحتفظ بهدوئى . فى المساء بعد كفاح يوم حافل ، كان فى وسعى أن أنسى ... لم تكن لى زوجة طموح غيور تذكرنى بنجاح زميلى ، أو تخبرنى بالأشياء الكريهة التى كانت تقال عنى .. وهذه هى قوة أولئك الذين يعيشون وحدهم » .

ان الزواج يزيد الرجل ضعفا . لأنه يضاعف له رقعة الشراع المعرض لأنواء الحياة الاجتماعية .

او لم تعمد الكنيسة الكاثوليكية ، وهي تفضل الزواج على العـــزوبة الى التنويه بما فى حيـــاة العزوبة من وقار فائق ، حيث فرضتها على قســـاوستها ؟ أو لم يصرح الأخلاقيون مئات المرات بأنه ليس فى الدنيـــا أسخف من فيلسوف متزوج ؟ وذلك بأنه حتى اذا استطاع ان يتخلص من مواطن ضعفه ؛ فانه لا يستطيع أن يخلص زوجته من مواطن ضعفها . وهذا صحيح أيضا اذا كانت المرأة هى الممتازة بمواهبها الروحيـــة . يقول أعـــداء الزواج : « ان حياة الزوجين تقوم على المستوى العقلى للطرف الادنى بين الطرفين يؤلفانها » .

ان الرجل والمرأة اللذين يتفقان فى أيام شبابهما على نبذ الحياة العاطفية انما يتخليان ، بذلك عن الســـعى وراء المغامرة ، ونشوة المصادفات الجديدة ، والانتعاش المدهش ، الذى يسفر عنه الوقوع فى الحب من جديد .

ان نبع النشاط الحيوى الأهمية الى ابعد حد ، قـد تقطعت بينه وبينهما الأسباب ، فهما مقضى عليهما بمثل غفلة الأحداث . وحياتهما التى لم تكد نبدأ ، قد انتهت ولا شىء يستطيع أن يذود شبح السآمة عن حياة لحمتها الأعباء وســـداها الواجبـــات : لا جديد من الآمال ، ولا المفاجآت ، ولا الغزوات . وسرعان ما يذبل حبهما الوحيد بفضل مسئوليات المنزل ، وتعـــليم الأطفال . ولسوف يبلغان سن الشيخوخة ، دون أن يعرفا شيئا من مباهج الشباب. ان الزواج يقضى على الحب الشاعرى الذى هو المسئول الوحيد عن قيام ذلك الزواج !

هذه هى حجة اعداء الزواج ، وهى ابعد ما تكون عن الضعف ، ولكن نظام الزواج فى الواقع قد تعرض فى

غضون سبعة آلاف من السنين، لمتاعب سياسية واقتصادية ودينية ، استطاع أن يتغلب عليها جميعا . وبدلا من أن ينهار ويختفى ، اشتد عوده واستفحل أمره . فلنحاول أن نفهم الأسباب الاجتماعية الجوهرية التى كفلت له له البقاء .

ان الكائنات البشرية انانية بحكم طبيعتها ، وليس هذا جرما ، فهكذا ينبغى أن تكون حتى تكفل لنفسها البقاء . ولديها غريزة المحافظة على النفس التى تدفع بها ــ كما يقول ــ « سبينوزا » ــ الى أن « تحافظ على بقائها » ؛ ومن ثم تحصل على الأمن ، والغذاء ، والمأوى ، حتى ان كان ذلك على حساب غيرها من الكائنات الحية . ولو أن هذه كانت غريزتها الوحيدة ، لكان من المستحيل أن ينشأ ، ومن المستحيل أن يدوم بقاء المجتمع الانسانى . لأن الرجل كان يصبح بالنسبة الى زملائه حيوانا متوحشا خطرا .

وغريزة المحافظة على النفس فى المدنيات البدائية ، تخضع لغريزة أخرى لا تقل قوة عنها : هى غريزة القبيلة . فالرجال البدائيون ، كالذئاب أو القردة ، تعيش فى قبائل لأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها بمفردها . والقبيلة تتطلب التفانى الغريزى وتناله من الفرد ، لتحقيق الامن المشترك . والذئب والرجل ، كلاهما يضحى بنفسه فى سبيل ذلك الأمن . وفى هذا شىء من غريزة المحافظة على النفس ، لأن القبيلة اذا ما تعرضت للغزو ، فان كل واحد من أعضائها يقضى عليه القضاء الأخير .

ولكن الحياة حين تفقد بعض مخاطرها ، وحين تقلل الحضارة من مجازفات الحصول على الطعام ، وتلزم

الحيوانات المفترسة غاباتها، وتصبح الحدود موضع الاحترام الى حد ما ... تتلاشى غريزة القطيع هذه ، وتحل محلها الأنانية .

على أنه لابد من السيطرة على الأنانية، والا تعذرت الحياة فى المجتمع الانسانى . لن يكون هنالك تشارك فى الملكية، كما أن القوة سوف تستخدم عندئذ بغير رحمة، والضعفاء يصبحون عبيداً .

كيف تمكن السيطرة على هذه الأنانية ؟ بتسبيب الصراع بين غريزة المحافظة على النفس وغيرها من الغرائز التى تعادلها فى القوة . ولا يوجد من هذا النوع سوى غريزتين اثنتين : الغريزة الجنسية ، وغزيرة الأمومة .

وحتى الوحوش الكاسرة ، يتحول ما فيها من قوى الافتراس ، الى حنان وتدليل فى أوقات الوصول والامومة . ولكن هذه الهدنة من جانب الأنانية ، مرقوتة قصيرة الأجل . وبعد أن يتم ارضاء الغريزة الجنسية ، ويشب الصغار عن الطوق ، مباشرة ، ينفرط عقد المجموعة العائلية الصغيرة ، ويعود أفرادها الى حياة التوحش ، ويستأنف القتال .

وعلى العكس من ذلك ، حدثت معجزة الجمع بين المخلوقات البشرية ، ذات الأنانية الوحشية ، وتحويلها الى جاليات اجتماعية قوية تصمد فى وجه الزمن . فكيف كان ذلك ؟

ان هذه العملية ، اذا قدر لها النجاح ، هى عبارة عن تكوين جالية من الخلايا الاجتماعية ، أو العائلات ، يمكن فيها القضاء على الأنانية بسهولة ، لأن ذلك يحدث بصورة طبيعية ، بفضل الرغبة الجنسية والأمومة .

كيف يستطيع الانسان أن يبنى خلية اجتماعية دائمة ، على أساس من الرغبة الجنسية ، فى حين أنها كثيرا ما تغير هدفها ؟

كيف يحول الانسان غريزة الى مؤسسة ؟

ان قبائل الآدميين الرحل التى كانت تعيش قبل أن يعرف الزواج المنظم ، كان لديها شعور مدهش أوحى اليها ان تجعل الرجال يقطعون العهود على أنفسهم فى الوقت الذى تجعل فيه الغريزة الجنسية ذلك سهلا ميسورا .

ونحن نعرف جيدا أن هذا النوع الباكر من الزواج يختلف عما عندنا الآن ، وأنه كانت هناك جاليات فيها زيجات وفيها حالات تعدد زوجات وغير ذلك . ولقد دأب الزمن على تطوير تلك العلاقات البدائية الى نوع من أنواع العقود يكفل طول عمر الرابطة بين الرجل والمرأة ، وحماية المرأة من الرجال الآخرين ، واعالة الأطفال والشيوخ ، واخيرا ، صنع ذلك النسيج الاجتماعى الذى أهم خلاياه الزوجان .

وهنا يحتج « برنارد شو » على لسان « دون جوان » بأن أمر ذلك النسيج لا يعنيه كثيرا ولا قليلا ، وأن الحياة عنده ليست سوى تجدد دائم للرغبة والمتعة دون قيود .

ولكن ، هل صحيح أن الحرية فى التعبير ضرورية ، أو حتى مستحبة ، لتحقيق السعادة ؟

وهل نجد أولئك الذين يعيشون هذا النوع من الحياة ، أسعد ، أو أكثر نصيبا من الحرية من غيرهم ؟

كلا .. بكل تأكيد ، ان المشاكل التى تجعل من الزواج

امرا عسيرا (المشاحنات ، والغيرة ، وعدم التجـــدد ، واختلاف الأذواق) تتشابه فى جميع العلاقات . والحب الحر ، ليس حرا . فلتتأمل قصة « لست » الموسيقار ، مع مدام « داجول » . واقرأ من جـــديد فى رواية « آنا كارنينا » ، الفصل الخاص بهرب « آنا » مع «رونسكى» .

ان « رونسكى » يشعر بأنه أسلم ارتباطا من رجل يبدأ رحلة زواجه ، لأن عشيقته تخاف أن تفقده .

ان الكلمات والاشارات التى لا تقترن بكثير من الأهمية لدى زوجين ، يكون لها أسوأ الأثر لدى الرجل والمرأة اللذين لا تجمع بينهما رابطـــة قانونية ، حيث يشب الى ذهنيهما السؤال المشئوم على الفور : « هل انتهى كل شىء ؟ » .

لم يكن يستطيع أن ينقذ « رونســـــكى » أو اللورد « بيرون » سوى القسوة المطلقة . ولكن « بيرون » لم يكن فى حقيقته قاسيا . بل كان مرغما ـ دون رغبة منه على الاطلاق ـ على أن يسافر ويحارب الأتراك ، حتى لا يجرح شعور عشيقته . ومهما بلغ من ايلام متاعب زواجه ، فقد أراد « بيرون » أن يصالح المجتمع بتجديد علاقته .

ومن المحقق أنه قد يحدث ـ لا سيما فى البلاد التى ليس فيها زواج ـ أن يضطر رجل وامرأة الى المعيشة معا ـ بحكم الظروف ـ دون اجراء قانونى ، ولكن مثل هذين الزوجين غير الشرعيين ، لا ينجوان من متاعب المستقبل الا فى النادر .

وهكذا يكتشف « دون جوان » ، وعشيقته أيضا ، أن الزواج يمنح الرجل والمرأة أحسن الفرص للوصول الى علاقة مرضية .

فالرابطة الاجتماعية لا تعترض سبيل الحب ، بل تمنحه مزيدا من القوة . وفى بداية كل علاقة غرامية ، تجعل الرغبة كلا من الرجل والمرأة أقدر على فهم صاحبه وتقديره ، فاذا لم يكونا متزوجين ، فان مشاحناتهما الأولى قد تقضى على كل ما بينهما . واذا كان الانفصال سهلا الى درجة تزيد عما ينبغى ، فان أتفه مناقشة قد تتسبب فيه . فاذا أصيب أحد المتحابين بمرض عضال ، فان الآخر قد تدركه الملالة ، ومن ثم يتحطم زورق الحب على صخرة ذلك المرض .

ومن جهة أخرى ، فان الأمر يكون على العكس من ذلك بين الشخصين المتزوجين ، فقد يكون المرض بمثابة فرصة متاحة تظهر فيها الرعاية القلبية المخلصة التى من شأنها أن توثق الصلة بين الزوجين . وكذلك تقدم السن ، الذى لا يستطيع ادراكه سوى القليل من العلاقات غير الشرعية . فانه يزيد الزواج قوة حتى لا يكاد يتطرق اليه أى وهن .

فالزواج هو الرابطة الوحيدة التى يستطيع الزمن تقويتها .

وهو نوع العلاقة المقدر له ــ أدق التقدير ــ أن ينمى التعاطف والتفاهم بين الجنسين . وبالنظر الى وفرة معرفته بامرأة واحدة ، وما اكتسبه منها من المعرفة بشئون النساء بصفة عامة ــ فان الرجل السعيد فى زواجه، يكون أحكم وأثقب نظرة الى الحياة من « دون جوان » الذى كان يناصب النساء العداء .

والرجل الأعزب خارج على المجتمع ، وحريته حرية فوضوية . ومن تتقدم به السن دون أن يتزوج ، رجلا كان أو امرأة ، يشغل باله طول التفكير فى نفسه ، بصورة

تنطوى على الخطر ، وقد يفقد الاتزان العقلى .

ومن لم يتزوجوا من عظماء الفنانين (بلزاك ، ستاندال ، فلوبير ، بروست) قد يكونون متمتعين بكامل قواهم العقلية . ولكن العزوبة بلا شك خطر على الرجل العادى .

ولنصرف النظر عن الفنان ، الذى هو شخص غير عادى ، والذى يعيش معظم حياته دون أن تحكمه قوانين العالم الواقعى ، لأنه يهرب منها الى قوانين من نسج خياله ... ولنفكر فى الحلول الممكنة بالنسبة الى الاشخاص العاديين غير المتزوجين .

لقد عمدت جماعات صغيرة من الرجال والنساء ، الى محاولة ادراك السعادة من طريق الانغماس فى الملذات . ولقد كتب عن مثل تلك الجماعات كل من الكاتب الانجليزى «آلدس هكسلى» والقصصى الأمريكى « ارنست همنجواى»، وأعجب أمورهم هو ما كان يخيم على الحياة التى عاشوها من فاجع الحزن والسآمة .

وهل يستطيع أحد أن يتصور امرأتين أكثر تعاسة من « لادى بريت » فى رواية « ان الشمس أيضا تشرق » ، أو من « لوسى تانتاماونت » ، فى رواية « نقطة ضد نقطة » .

ان الرجل المبتذل يرفض أن يجعل من رغبة جسده حجة يعلل بها مشاعر عميقة وطويلة الأجل . والتكرار الآلى للعملية الجنسية قد يساعده ، بصفة مؤقتة ، على نسيان ما يخالج نفسه من اليأس ، كما يفعل المخدر أو المسكر ، ولكنه انما يقطع ما بينه وبين كل احساساته الحية . وربما كان هذا ، باستثناء رعب الحياة ، والموت المقترب

على نحو ما ، يقترن بحيـــــاة الاستهتار فى كثير من الأحيان .

ولقد بلغ من ضجر المتبذلين فى القرن الثـــامن عشر ، وضيقهم بفحش مباذلهم أن اتخذوا من قصة « هلواز » العاطفية ، موضوعا لقراءتهم المفضلة .

وتعاقب العلاقات الغرامية يزيد المشكلة تعقيدا ، فليس من السهل أن تعيش المرأة مع زوج . وليس بالأسهل من ذلك أن تعيش مع عشيق . ومثل تلك العـــلاقة ينتهى بالرجل أو المرأة حين تتقدم السن ، الى حياة الوحـدة الموحشـة ، وقلما يساعدان بذلك على اسعاد الأطفال .

والحضارات القائمة على تعدد الزوجات ، قد أفسحت الطريق دائما للحضارات التى تقوم على نظـــام الزوجة الواحدة . فتعدد الزوجات ينجم عنه اضعاف الرجال ، ويقضى على جمال البيئة التى يكون شائعا فيها . وهو على اى حال غريب عن أذواق ومطالب نساء عصرنا الحديث .

ولنتأمل تطور العـــــادات الاجتماعية فى روسيا ، فى غضون السنوات القلائل الماضية .

ففى بداية الثورة ، تمنى كثير من الرجال والنساء أن يضيقوا الخنـــاق على الزواج ، أو يزعزعوا أركانه حتى يصبح مجرد اسم لا حقيقة له . ويبدو اليوم أنه بفضل جهود المرأة بصفة خاصة ، استعاد الزواج وضعه السليم وبناءه المتين .

ولقد قرأت فى كتاب عن شباب روسيا ، أن مجموعة من الشباب حاولوا أن يقضوا حياتهم دون زواج . وقد كتبت شابة فى هذه المجموعة الى حبيبها تقول : « اننى

أريد لنفسى قليلاً من السعادة ، ليست عظيمة ، ولكن مشروعة . وأنا أحلم بركن هادىء أستطيع أن أكون فيه وحدى معك . ألا يستطيع المجتمع أن يفهم أن هذا انما هو ضرورة انسانية لا » .

والحق ، فيما يبدو ، هو أن زواج المرأة الواحدة ، الذى يهون الطلاق قيوده فى بعض البلاد ، كما تهونها فى بلاد أخرى الخيانة الزوجية المصبور عليها ، انما يتغلغل فى حضارتنا الغربية ، باعتبـــاره الحل الذى ينطوى على أقل الآلام بالنسبة لأكبر عدد من الناس .

***

وكثيرا ما يحدث أن تكون خيرة المحب الحرة ، والحب نفسه ، هما جذور الزواج . ولكن الحال لا تكون كذلك فى جميع الحالات .

فالكثير من الحضارات القــديمة ، وكل المدنيات الشرقية على وجه التقريب ، تفرض زيجات مضادة لرغبة أحد الطرفين المعنيين أو كليهما . وفى فرنسا كان الزواج فى القرن التاسع عشر مسألة « ترتب » ويمهد لها ، أحيانا بمعرفة القسس ، وأحيانا بمعرفة مدبرين محترفين ، أو مسجلى عقود . وفى معظم الأحيان ، كان يتولى أمر تدبير الزواج أسرتان يعنيهما ذلك الأمر .

ولقد كان الكثير من تلك الزيجات سعيدا ، بل كان فى بعض الاحيان أكثر سعادة من معظم الزيجات التى قامت على أساس من الحب المتبـادل ، وذلك ممـا لا يصعب فهمه .

فالحب العنيف يعطى صاحبه صورا عن الناس لا تفصح عن حقائقهم . والرجال الفارقون فى الحب الى آذانهم ،

يطمعون من الزواج فى أن يمنحهم قدرا هائلا من السعادة ، ولهذا لا يلبثون أن تدركهم خيبة الأمل فيه .

وفى الولايات المتحدة من زيجات الحب ما يزيد عما فى أية بلاد أخرى ، ولكن الامريكيين كثيرا ما يعمدون الى الطلاق بعد فترات قصيرة من زواجهم .

تقول « روسى دى سال » ، وهى فرنسية تعيش فى امريكا وتعرفها جيدا : ان الكثيرين من الشباب الامريكى يتوقعون أن يجدوا ، حين يتزوجون ، حبا لا تشوبه شائبة. فهم قد أنفقوا وقتا طويلا فى دور السينما التى عرفوا فيها أن الحب هو أن يذهبوا بالفتيات الجميلات الأنيقات فى رحلات الى الريف المتجدد الجمال ، وعرفوا كذلك أن كل شجار بين عاشقين ينتهى بقبلة طويلة . ولكن أحدا لم يقل لهم ان الرحلات متعبة وباهظة التكاليف ، والريف الجميل ليس من السهل العثور عليه ، وأن رفقاء السفر متقلبو المزاج وعصبيون . كذلك لم يبح لهم أحد بالسر فى أن سيدات « هوليوود » جميلات فقط الآن وراءهن جيشا من الحلاقين واخصائيى التجميل والمدلكين . ولم ينبههم أحد الى أنهم فى غضون حياتهم الزوجية سوف يتعين عليهم أن ينظروا مرات ومرات ، الى امرأة فى ثياب المنزل ، شعرها غير مصفوف ، ومزاجها منحرف . كما أن أحدا لم يقل للزوجة الصغيرة ان الرجال أنانيون ، وكثيرا ما يدركهم الاعياء بسبب الاجهاد فى العمل ، وانهم غير صبورين ، وسريعو الغضب .

فما هى النتيجة ؟

ان الزوجين مما سرعان ما تستولى عليهما خيبة الأمل . وبدلا من أن يقول كل منهما لنفسه « ليس فى هذه الدنيا

شيء كامل منزه عن النقص حتى الحب » ، فانهما يظنان أنهما قد أساءا الاختيار ، وأن الكمال لا شك موجود فى شخص آخر . وعندئذ يحصلان على الطلاق كى يستأنفا البحث .

ومن المحقق أن العلاقة الجديدة لا تؤدى بهما الى الاقتراب من ذلك « الكمال » المستعصى على البحث . وهما يمضيان فى تكرير الزواج والطلاق الى أن تتقدم بهما السن ، وتؤدى بهما التجربة التى اكتسباها بعد كل ما مر بهما ، الى الرضا بذلك التسامح الزوجى الذى كان ينبغى أن يقنعا به فى حالة غرامهما الأول .

وفى كثير من جامعات أمريكا اليوم ، يدرس قليل من المبادىء الفلسفية الخاصة بالحياة الزوجية .

ومن النادر أن زوجا وزوجة يرقدان فى نومهما بطريقة واحدة ، أو لهما نفس الأفكار عن القراءة فى الفراش ، وعن عدد الأغطية ، ودرجة حرارة الغرفة ، ونوع وجبات الطعام . وهذه الأمور لا يمكن تسويتها الا اذا كان كلاهما على أدب جم ، ويمتاز بروح المرح ، والمقدرة على بذل التضحيات الشاقة .

والتغاضى عن أسرة وأصدقاء الشخص الآخر ، الذين يوحون عدم الثقة فى بادىء الأمر ، بل يوحون العداء فى بعض الاحيان ، يتطلب جهدا عظيما من قوة الارادة ، وكثيرا من سعة الصدر . وبهذا وحده يمكن أن تأتلف مجموعتان مختلفتان .

وهناك حالات عرضية تحرز فيها العلاقة الجسدية الناجحة بين شخصين ملتهبى العاطفة ، نجاحا مباشرا

وممتعا . وفى أحيان أكثر ـ على أى حال ـ تعطى المرأة رجلها المتعة دون أن تحظى بمثلها ، ويزيد من عذابهــــا ما قرأته من الروايات والقصائد الشعرية الحافلة بسحر سوء العرض .

على أن المسايرة الصابرة ، والاحتمال المشترك ، والكثير من الفهم الذكى ، والانطواء على النفس تماما ، أحيانا .. كل ذلك يكون ضروريا لا غنى عنه قبـــل تحقيق التوازن الجسدى ، وهذا ينطبق على زواج الحب بقدر ما ينطبق على زواج « المصلحة » !

وقد عرض « بلزاك » فى كتـــابه « مذكرات زوجتين شابتين » لوصف نوعى الزواج ، بكلام لا يزال صحيحا حتى يومنـــا هــذا بالنسبة لأولئك الذين يستطيعون ادخال التغييرات الضرورية على مفرداتهم اللغوية وعلى طباعهم .

فلقد كتبت احدى بطلتيه « رينيه دى لستوراد » الى صديقتها تقول : « ان الزواج يمنح الحياة ، فى حين أن الحب لا يمنح سوى لذة الجسد . والزواج يستطيع أن يبقى بعد انقضاء اللذة الجسدية ، ويفسح المجـــــال لاعتبارات أخرى اغلى قيمة الى حد بعيد . ولهذا فان الزواج السعيد قد يقوم على تلك الصداقة التى ، بفضل جوهره الممتاز ، تغطى كثيرا من الضعف الانسانى بطبقة براقة ناعمة » .

ومن الناحية الاخرى ، تتزوج صــــديقتها « لويز دى شوليى » زواج حب ، وتفسده بغيرتها المسرفة ، وتتسبب فى موت زوجها ، وأخيرا تجلب الدمار على نفسها .

ونظرية بلزاك ترمى الى أنه اذا أمكن الجمع بين الصحة

والذكاء ، وطيب الأرومة والأذواق ، والمركز الاجتماعى ، استطاع الشابان الصحيحان ادراك الحب .

والواقع أنه منذ الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) أخذ زواج المصلحة يختفى من فرنسا شيئا فشيئا ، بعد أن كان شيئا مألوفا فى عصر « بلزاك » والجيلين اللذين جاءا من بعد جيله . كما أن بلاد أخرى حيث تحتل مكانه الخيرة الحرة لشخصين يلتقيان بمحض المصادفة .

فما سر هذا التطور ؟

السر فيه هو أن جمع الثروات الطائلة واختزانها قد اصبح اكثر الأفكار سذاجة وبعدا عن واقعية الحياة .

ولقد حدث الكثير من التغيرات السريعة ، ووقع الكثير من الكوارث المالية غير المتوقعة ، حتى لقد طاشت احلام الطبقة المتوسطة . وحين تختفى وسيلة النظر الى المستقبل ، فمن العبث أن يكون الانسان حكيما .

يضاف الى هذا حقيقة أخرى . وهى أن شباب اليوم يعيش حياة اكثر تحررا مما مضى ، وأن فرص اللقاء المتاحة تزداد اتساعا .

كما أن المركز الاجتماعى ، ومهر الزواج ، قد حل محلهما جمال الصورة ، ولين العريكة ، وتوافق الأذواق فى الرياضة البدنية ، والجاذبية الجسدية أو الفكرية .

ومهما يكن من شىء ، فان الجاذبية المتبادلة من الناحيتين الجسدية والفكرية ، لا تكفى وحدها لتحقيق السعادة الزوجية .

وبغض النظر عما اذا كان الدافع الى الزواج هو الحب او المصلحة ، فان المطلب الجوهرى الذى لا غنى عنه هو وجود الرغبة الصادقة لدى كل من الطرفين المتعاقدين ، فى وقت الخطبة ، فى انشاء علاقة دائمة .

واذا كان « زواج المادة » عند الفرنسيين فى القرن التاسع عشر بين أبناء وبنات الطبقى الوسطى ، ليس بالزواج الحقيقى الا فى أحيان نادرة ، فذلك مرجعه الى أن الرجل يتزوج « مهرا » كان يقول لنفسه فى أيام الخطبة « أنا مللتها ، فسوف أخونها مع نساء أخريات » .

والزواج القائم على رغبة الجسد يمكن أن يكون على درجة مماثلة من عدم النجاح ، اذا نظر اليه الزوجان باعتباره مجرد تجربة ، واذا كانت المرأة تقول لنفسها وهى مخطوبة : « اذا ظهر لى أنه لا يدخل السرور على نفسى ، فسوف أحصل على الطلاق » .

ويجب على كل من الزوجين أن يقسم قسما غير منطوق به ، اذا كان مقدرا لهما أن يكبحا جماح نزواتهما ونزعاتهما المختلفة . وانه لقرار رائع ذلك الذى يتخذه الواحد من الزوجين حين يقول : « اننى أقيد نفسى مدى الحياة ، وهذه هى خيرتى . وسوف تكون غايتى دائما ، لا أن أبحث عمن يدخل السرور الى قلبى ، بل أن أدخل السرور على قلب من وقع عليه اختيارى » .

ومع ذلك فان هذا القرار وحده كفيل بأن يسفر عن زواج ناجح . واذا لم يكن القسم مخلصا فان فرص السعادة تكون ضئيلة جدا أمام الزوجين ، لأنها سوف تتعرض لاحتمال التبدد ، حين تصادفها العقبات الاولى ، وصعاب الحياة التى لا مفر من مواجهتها .

والمصاعب العامة فى الحياة أقوى كثيرا من الشخصين اللذين ينبريان للتغلب عليهما . وأهم أسباب هذه المصاعب هو الاختلاف بين طرق الجنسين فى المعيشة وفى التفكير .

ونحن فى أيامنا هذه أكثر ميلا مما ينبغى ، الى تجاهل أهمية ذلك الاختلاف ، فتعليم المرأة يشبه تعليم الرجل الى حد بعيد ، والنساء يقمن بأعمال الرجال بكفاية ملحوظة . ولهن حق الانتخاب فى كثير من بلاد العالم .

وهذا عدل .

غير أن هذه المساواة لا ينبغى أن تجعل الرجال ينسون أن النساء لم يزلن نساء .

يقول « أوجست كونت » فى تعريف الجنس المؤنث انه هو الجنس المؤثر العاطفى . ويقول فى تعريف الجنس المذكر انه الجنس العامل .

وينبغى أن يفهم من هذا أن فى النساء صلة أقرب كثيرا مما فى الرجال ، بين العقل والجسم . وأفكار المرأة اقل غموضا من أفكار الرجل .

والرجال يحبون أن يبتكروا الخطط ، وأن يتخيلوا العالم على غير صورته الراهنة ، وأن يلحقوا فى أفكارهم ، وفى فعالهم أيضا ، اذا سمحت الظروف .

ووقت النساء أضيق كثيرا ، ولهذا لا يسمح لهن بعمل الكثير ، لأنهن ينهمكن عن رغبة أو عن غير رغبة فى الانشغال بالحب ، وشئون الامومة .

وفى بعض أنواع الكائنات الحية ، تنفرد الانثى وحدها بالاهمية ، حيث لا يقوم الذكر بأى دور ، الا فى لحظات

الاتصال الجنسي . والنحل تقتل ذكورها بعد انقضاء تلك اللحظات المثمرة .

ومزاج الرجل يختلف تبعا لما يقدر له من فشل أو نجاح ، فى المحاولات التى يبذلها فى سبيل غزو العالم الخارجى . أما المرأة فان مزاجها يختلف باختلاف خوالجها السيكلوجية ، وهى تبدو فى نظر الشاب الجاهل المتخبط ، كثيرة النزوات ، بل غير متماسكة ، وشديدة العناد .

يقول « بلزاك » . ان كثيرين من الازواج الشبان ، جاهلون بأمور النساء الى درجة تجعله يفكر فى القرد حين يحاول العزف على القيثارة .

والمرأة لا تفهم حق الفهم حاجة الرجل الى العمل ، لأن النشاط من دأب أجهزته الطبيعية . وهو لهذا ينشغل بالبناء ، والترتيب ، والصيد ، والقتال ، وغير ذلك . وهو فى الاسابيع الاولى للزواج ، يخيل اليه أن الحب سوف يحتل مكان كل شيء ، لانه عاشق . وهو يرفض الاعتراف بالضجر ، ويشكو أنه تزوج من مريضة مرغمة على أن تلزم جانب الراحة على الدوام ، ولاتعرف ماذا تريد .

أما المرأة فانها تكون ضيقة الصدر برفيقها الجديد الذى يذرع غرفة النوم بالفندق فى عصبية ظاهرة ــ وهذا هو السلوك التقليدى لزوجين يقضيان شهر العسل . وفى معظم الحالات يكون مثل هذا الموقف قليل الأهمية ويمكن التصرف فيه بسهولة ، بقليل من الحنان وشيء من روح المرح . فالرغبة فى المحافظة على الزواج ينبغى أن تكون فعالة على الدوام ، كما يجب تجديد القسم على ذلك بصفة مستمرة .

وحتى فى أسعد الزيجات وأطولهـــا عمرا ، لابد من استمرار تلك الاختلافات الجوهرية فى الطباع ، وهى خلافات ينبغى أن يعترف بها ، وأن ينظر اليها بعين التقدير ، وأنها لا يمكن أن تختفى . والرجل لابد أن يصادف عقبات خارجية يتغلب عليها . والمرأة لابد أن تحب ، وتحب .

والرجل يسعده أن يتمكن من اختراع جهاز يفسر الكون ، والمرأة يسعدها أن تتفانى فى أداء عمل صغير ، فى هدوء بيتها . وكل شيء يصنعه الرجل ، يحمل طابع الحاجة الخارجية . فسقف بيته معرض للأمطار والجليد، ومحركه وزورقه تعبث بهما الرياح والمياه . وعلى العكس من ذلك كل ما تشغل به المرأة نفسها على صلة بالجسم الانسانى . فوسائد الأريكة تستقبل ذلك الجسم وتعمل على راحة أطرافه ، ومرايا مائدة الزينة تعكس صورته . وهذه سمات واضـــــحة جلية لطرازين مختلفين من العقول .

والرجل يبتكر المبادىء والنظريات ، فهو عالم رياضى وفيلسوف . والمرأة فى انهماكها التام فى الواقع ، لا تهتم كثيرا للنظريات المجردة ، الا اذا كان صاحبها رجلا تشعر بالانجذاب اليه ، أو اذا كانت تشعر باليأس ازاء مايبديه ذلك الرجل من الاهمال لشـــــأنها . وميل المرأة الى التفلسف كثيرا ما يكون بمثابة حداد مستتر على حب ضائع . وكل حديث المرأة التى تتمتع بأنوثة حقيقية ، مقصور على رواية النوادر ، أو تحليل الشخصيات ، أو الثرثرة البارعة حول أعمـــــال الناس ، أو الحقائق العملية .

وأهم العوامل فى تكوين شخصية الرجل الحق الرجولة ، صحبة امرأة ذات أنوثة حقيقية ، سواء أكانت حليلة أم خليلة أم صديقة . فهو من طريقها يستطيع أن يظل على اتصال مستمر بالادراك العميق البشرى ، وهذا ما يجهله الرجال الذين لا يعبأون بالنساء .

وأفكار الرجل تسافر بالطائرة ، وتحلق فوق الفراغ والزمان ، وهى تحيط بالمجالى المترامية التى قد لا تكون الا خيالا من الخيال ، وقد تخطىء فتأخذ قشور القول على أنه اللباب ... فى حين أن أفكار المرأة تسافر سيرا على الأقدام .

وهل ينبغى على النساء اجتناب السياسة ، لأنهن لا يحببن الأفكار الخيالية ؟ ان العكس من ذلك هو الصحيح ، فمن رأيك أنهن يستطعن أن يؤدين خدمة للرجال ، بتخليص السياسة من الافكار الخيالية . وفيم الخلط بين السياسة العملية ، التى هى قريبة الى حد بعيد من التدبير المنزلى ، وبين سياسة المبادىء ، التى تتصف بالغموض الشديد ، وانعدام الجدوى ، وكثيرا ما تنطوى على الأخطار ؟ والسياسة بالنسبة الى النساء يتمثل فيها حسن الادراك ، والصحة . والرجال أوفياء للأفكار . فالرجل يدافع عن حزبه ، أما المرأة ، فانها تدافع عن السلام ، وعن بيتها ، حتى لو اقتضاها ذلك أن تغير الحزب الذى تنتمى اليه .

ولسائل أن يسألنى : كيف تستطيع الاستمرار فى التفرقة بين عقل الرجل وعقل المرأة ، فى حين أن النساء يدرسن المناهج التعليمية نفسها التى يدرسها الرجال دون عناء ، ويتفوقن عليهم فى الامتحانات بسهولة ؟ اننا

لا نعيش فى أيام يستطيع الواحد منا أن يكتب فيقول : « ان المرأة المتعلمة تعتبر سلاحا جميلا ... تحفة فى معرض ، ليس لها أية فائدة عملية » . وحين تتحدث طبيبة مقيمة فى مستشفى الى زوجها الطبيب ، ففى أى شىء يختلف عقلها عن عقله ؟ .

هذا الشىء هو ببساطة ، أن أحدهما عقـــل مذكر ، والآخر مؤنث . فالشابة تستطيع اذا اقتضت الحال ، أن تشارك الشاب حياته الفكرية . والعذارى يستمتعن بالدراسة والصراع . ان عذراء الأساطير تكون فى حصن منيع ، قبل أن يغزو الحب قلبها ، أما بعد ذلك ، فماذا يحدث لها .. انها لا تلبث أن تصبح عزلاء لا حول لها ولا قوة ، وتصير امرأة أخرى .

أذكر أن فتاة من طالبات الطب (واحدة من عذارى الأساطير المنهزمات) قالت لى مرة : « اذا كان واحد من الرجال هنا غير سعيد بسبب غرامه الذى فشل ، فانه يزور مرضاه ويعنى بهم كمألوف عادته . أما أنا ، فاننى حين يستبد بى الحــزن ، لا أملك ســوى الرقاد فى فراشى ، والاستسلام للبكاء » .

والنساء لا يعرفن الســـــعادة الا اذا عشن فى دنيا حافلة بالعواطف . على أنه من الخير العميم لهن ، أن يتعلمن من العلوم نظام الرجولة . ومشـــكلة الانسانية الكبرى هى التوفيق بين العلوم وبين طلاسم اللاهوت ، وهى كذلك مشكلة الحياة الزوجية .

ويستطيع النساء أن يقمن بادارة أعمال تجارية كبيرة ، وبعضهن يقمن بذلك بمهارة مدهشة ، ولكن القيام بهذا الدور لا يناسبهن . ولقد صرحت واحدة من أكثرهن نجاحا بقولها : « هل تعلم أننى كنت دائما أريد أن أجد

رجلا يشغل منصبى ! وعندئذ أصير مساعدة له ، وما أعظم ما يمكن أن تكون مقدرتى على مساعدته ، لو أننى أحببته ! » . ومما ينبغى ادراكه أن النساء مساعدات ممتازات ، ولكن مقدرتهن محدودة فى ميدان الخلق والابتكار . والشىء الحقيقى الذى تخلقه المرأة ، انما هو طفلها .

فماذا هنالك ، فيما يعنى النساء غير الامهات ؟ ان فى كل حب عظيم شيئا من الامومة . والمرأة المخلصة تحب الرجل القوى لأنها تعلم ما فيه من مواطن الضعف . وهى تتولى حمايته بقدر ما يتولى هو حمايتها ونحن جميعا نعرف نساء يفرقن من يخترن من الرجال ، فى لجة غامرة من الحب الغيور الرهيب .

وحتى النساء اللائى ترغمهن الظروف على القيام بأدوار الرجال ، يقمن بها كنساء . ولم تكن الملكة « فكتوريا » ملكا عظيما . ولكنها كانت ملكة عظيمة تقوم بتمثيل دور الملك . ولقد كان « دزرائيلى » كما كان « روسبرى » ، من وزرائها ، ولكنهما كانا كذلك من المعجبين بها ، ومن أطفالها . وكانت شئون الوطن فى نظرها كشئون منزلها . كما كانت الخلافات الدوليةعندها أشبه بالخلافات العائلية . ولقد قالتلوزيرها«روسبرى» انها تحب الجيش ، لأن والدها كان ضابطا . ولما جاءها خطاب من امبراطور ألمانيا ذات مرة ، سألت وزيرها : هل من اللائق أن يستخدم حفيد مثل تلك العبارات ، حين يكتب الى جدته ؟

وأنا لا أزعم بأى حال أن أحد الجنسين يمتاز عن الجنس الآخر . وأعتقد أن المجتمعات التى تفتقر الى أثر المرأة ، تتعرض للتردى فى حضيض من الانحراف عن

الطريق انسوى ، يدعو ـ لزيفه وزيغه ـ الى اصطناع العنف وسيلة للعود به الى السراط المستقيم .

ومن المؤسف أننا شهدنا كثيرا من مثل هذا . فالحضارة التى تقوم على الرجال وحدهم ، كحضارة اليونانيين القدماء ، مقضى عليها بالفناء لانهماكها فى السياسة ، والفيبيات ، والفرور . والنساء وحدهن ، يستطعن أن يعطين رهبان العقائد والنظريات ، احساسا بما فى الحياة من قيم حقيقية غير معقدة . ومن المحال أن تقوم حضارة صحيحة بغير التعاون بين الجنسين . ولكن التعاون الحقيقى بين الجنسين لا يمكن أن يوجد ، الا اذا اتفقنا على تقبل ما بينهما من الفوارق ، ونشأ بينهما احترام متبادل .

***

من بين الأخطاء التى كثيرا ما يتورط فيها اليوم علماء النفس والكتاب القصصيون ، أنهم يضفون على الحياة الجنسية أهمية تزيد عما ينبغى . ففى فرنسا ، كما فى انجلترا ، وحتى فى الولايات المتحدة ، حفل أدب السنوات الثلاثين الماضية بذكر المدن الكبرى ، والثراء السهل ، كما كان هذا الأدب موجها الى النساء أكثر مما هو موجه الى الرجال . وفى هذا الادب يبرز الرجل فى صور الناسى لدوره الحقيقى ، وهو الكفاح مع آخرين من الرجال ، من أجل خلق عالم « ليس بالعالم الجدير بك يا حبيبى » ، بل عالم قد يكون جميلا فى حد ذاته ، عالم مدهش يتيح له أن يشعر بأن رسالته هى التضحية بكل شىء ، حتى غرامه ، وحتى حياته . وكذلك الحال فى السينما ، فلقد أعطت الحب من الاهمية فوق ما يستحق ، كما أعطت العقل دون ما هو أهل له .

على أن هنالك كثيرا من الوسائل لحسم النزاع الذى لا مفر منه ، بين طبيعة المرأة ـ التى يحـــدد الحب أوضاعها تماما ـ وطبيعة الرجل ، التى يشغلها العالم الخارجى . والأولى : هى السيطرة الانانية على الرجل ، الذى هو الخالق المبدع .

قال « د . هـ . لورانس » الكاتب الانجليزى المعروف: « ليست المرأة هى التى تحدو الرجل الى قمم غاياته ومثله ، بل هو ايمانه الذى يدفعه الى ما وراء حدود المرأة ، حيث أقصى غايات مواهبه الكامنة . والرجل مسئول عن الوصول الى هذه القمم أمام الله وحده ... ومنذ قال السيد المسيح : « أيتها المرأة ، ماذا ينبغى أن أفعل بك ؟ » ، أصبح على كل رجل أن يعيد نفس العبارة لزوجته أو أمه ، كلما كان لديه عمل من الاعمال ، أو القى عليه ضميره رسالة من الرسالات » .

وهذا يفسر ، وقد يبرر ، ثورة الرجل العـــامل أو الفنان ، فى وجه ما يلقى فى منزله من الطغيان .

ولقـــد كان هروب الـــكاتب الروسى الفيلسوف « تولستوى » من منزله ، عملا جديرا بالرثاء . لانه انتظر حتى أدركته الشيخوخة واقترب منه شبح الموت، ثم أقدم على ذلك العمل المنطوى على شجاعة غير ذات فائدة . على أنه هرب بذهنه قبل أن يهرب بجسمه بوقت طويل . لم يكن ثم علاج للتعارض بين مبادئه وأسلوب الحياة الذى فرضه نظام معيشته المنزلية .

ولقد هجر الرسام النابغة « جوجان » زوجته وأطفاله وثروته ، ليعيش بمعزل عن النـــاس فى « تاهيتى » ،

واخيرا اكتشف حقيقة نفسه . ولكن الهروب فى هاتين الحالتين جميعا ، كان دليلا على الضعف .

فالرجل الخلاق المبتكر حقا ، كان جديرا به ان يصر على أن يكون موضع الاحترام من أولئك الذين يحيطون به . وفى بيت الشـــــاعر الألمانى « جيته » ، لم تتح السيطرة لأية امرأة . لأنه كان كلما بدا له أن امرأة منهن تعترض سبيله فى أداء رسالته الحقيقية ، وهى أن يكون هو نفسه ، احالها تمثالا ، أعنى بهذا أنه كان يضعها فى قصة أو قصيدة ، ثم ينصرف عنها .

وحين يتعين على الرجل أن يختار لنفسه بين الحب والعمل ، أو بين الحب والواجب ، تتألم المراة ، وتقاوم جهد استطاعتها ، ونحن جميعا قد عرفنا من رجال البحر والجيش من ضحوا بمستقبلهم المهنى لأسباب عاطفية .

ولقد كتب « آرنولد بنيت » مرة مسرحية جاء فيها أن واحدا من مشاهيرالطيارين قد تزوج المرأة التى كان يحبها بعد أن تغلب على مصاعب كانت تعترض سبيل ذلك الزواج . وكانت زوجته امرأة عادية ، ذات جمال ، وذكاء ، وجاذبية ، وخيال خصب ، وقد استقر رأيها منذ البداية ، على ان تسيطر عليه بسحر لا يقاوم .. وذهبا الى فندق فى الجبال رشفا فيه كئوس السعادة الغامرة مترعة . ولكنه لم يلبث أن سمع أن الرقم القياسى الذى يعتز به اكثر من كل شىء آخر ، يوشك أن يضربه واحد من منافسيه ؛ فاستولت عليه فور ساعته الرغبة فى التغلب على هذا المنافس . ولكن زوجته تحدثت اليه عن حبها ، وأنصت هو اليها . غير أنه كان مشغولا طول حديثها بالتفكير فى محرك طائرته . فلما اقتنعت آخر الامر

بانه يريد ان يذهب حقا ، سالته وهى حزينة الفؤاد عما اذا كان لم يفهم أن تلك الايام القليلة لها من الأهميه بالنسبة لمستقبلها وعملها كامرأة ، ما يعادل أهمية الطيران بالنسبة لمستقبل عمله كرجل ، على انه لم يفهم ذلك ، ولا شك فى انه كان على حق .

ان الرجل يفقد رجولته اذا طغت العاطفة على أهدافه ومثله . لقد ركع كل من « شمشون وهرقل » عند قدمى حبيبته . وتغنى كل الشعراء القـــدامى بأساطير من استعبدهم الحب من الأبطال . واضحى « باريس » جنديا تافها . كما أفســـدت « كارمن » عاشقها ، وجعلت « مانون » حبيبها لا يخرج من جريمة الا الى جريمة أخرى .

وعلى هذا النحو تماما تخشى الزوجة حين تريدالسيطرة على حياة زوجها من كل ناحية . وعندما يفقد الرجل احساسه بأهمية النشاط الخلاق ، فانه يشعر بالضياع ، ويضيع فعلا ، فاذا أصبحت زوجته ، أو زوجته وطفله ، محور حياته ، فان اليأس يصبح له بالمرصاد .

ومن ندر الشر دائما ألا يجـــد رجل الجد والنشاط سعادته أبدا الا فى صحبة امرأة . فذلك يدل فى أحيان كثيرة على أنه يخشى الصراع الفعلى . فالرجال الذين يتمتعون بالرجولة الحقيقية ، يحبون تصادم الاذهان ، كما كان أبطال التاريخ يحبون تقارع السيوف .

غير أن للمرأة دورها ، كما أن لهذا الدور أوقاته ، فى حياة الزوجين السعيدين . ويقول « لورانس » : أن الرجل لا يمكن أن يظل مخلوقا معجزا يتألق نضارة أربعا وعشرين ساعة فى كل يوم . أما « كونفوشيوس » أو

« نابليون » أو من اليهما من الآخرين ، فقد كان الأولى أن يكون لديهم من الرجولة ما يكفى لأن يعود الى البيت فى موعد تناول الشاى ، وأن يضع قدميه فى خفيه ، ويجلس مأخوذا بسحر زوجته ، فبذلك يتاح للمرأة عالمها ، وتنجاب شكوكها : فى عالم الحب ، والعاطفة ، والحنان . ومن واجب كل رجل فى ساعته المحددة ، أن يخلع حذاءه ، ويسترخى ، ويتسلم لهذه المرأة وعالمها . وخير للرجل أن يكون خارج البيت فى وقت النهار ، مع رجال آخرين . وأن يعود فى المساء الى جو يختلف تماما عن الجو الذى كان فيه .

والمرأة المخلصة لا يثير غيرتها انشغال زوجها بعمله ، أو بحياته السياسية أو الفكرية . وهى تتألم بين الحين والحين ، ولكنها تخفى تلك الحقيقة ، ولا تبخل عليه بالتشجيع . ولقد كتمت « أندروماك » دموعها عندما حانت ساعة رحيل « هكتور » ، لأنها كانت تدرك ما يراد من المرأة .

***

ومن المهم بوجه خاص ، أنه مهما بلغ من عمق الرغبة فى الزواج ، فان من الصعوبة بمكان أن يحصل الرجل والمرأة على توازنهما . ومهما بلغ من عمق حبهما وشدة ذكائهما ، فانهما سيجدان نفسيهما ، فى الأيام الأولى على الأقل ، بحيث يكون كل منهما فى صحبة شخص غريب سيكون مصدر مفاجئات لا حصر لها .

على أن الأسابيع الأولى للزواج قد سميت منذ عهد طويل ، شهر العسل . والواقع أنه اذا حدث اتحاد وثيق ، فان كل المصاعب تنسى فى نشوة الليالى الاولى ، حيث يتخلى الرجل عن أصدقائه ، والمرأة عن رغباتها

الشخصية . وفى قصة « جان كريستوف » وصف صادق لامرأة فى الأيام الأولى لزواجها ، قد « وجدت متعة دون عناء ، فى قراءة كتاب عسر الفهم لم تكن لتستطيع أن تدرك معانيه فى أى وقت آخر . ولقد خيل اليها أن الحب قد ارتفع بها عن الأرض . وعلى نحو ما يفعل من يمشى وهو نائم ، كانت تطأ بقدميها أسطح المنازل . وراحت تسير فى بطء ، وهى لا ترى شيئا ، وتبتسم فى حلمها . ثم بدأت ترى الأسطح ، فلم يزعجها ذلك ، ولكنها سألت نفسها : ماذا كانت تفعل هناك ، على ذلك الارتفاع . وعادت الى منزلها » .

وعلى هذا النحو يعود كثير من النساء الى بيوتهن بعد الزواج بأسابيع قلائل أو سنوات قلائل . لقد حاولن ألا يكن انفسهن ، فنال منهن الاعياء دون أن تنجح المحاولة .

وفى ذلك تقول الواحدة منهن : « لقد حاولت البقاء معه ، ولكننى كنت مخطئة ، لأنى لست مخلوقة لذلك » .

أما الرجل فانه يشعر من جانبه بأنه قد بلغ ما لا مزيد عليه ، وأنه قد أدركه الاعياء بسبب الحب المتناهى ، فيحلم بنشاطه السابق . وعندئذ لا يلبث « شهر العسل » أن يلقى سلاحه أمام ما يطلق عليه اللورد « بيرون » اسم « شهر العصير » ، وهو فترة تسودها السخرية والانقباض ، بعد التحمس المسرف ، وفى غضونها توضع أسس الزيجات غير المتكافئة . وهى فى بعض الاحيان لا تكون كذلك تماما ، بل الى حد محدود فقط ، ومع هذا ينعدم التفاهم المشترك . حيث يحتمل كل من الطرفين الطرف الآخر ، فى عطف متباعد .

وقد شرحت لى احدى الأمريكيات هذه الحالة فى بعض المرات فقالت : « اننى أكن لزوجى اعزازا شديدا . ولكننا نعيش فى جزيرتين منفصلتين ، ولما كان كلانا يجهل السباحة ، فاننا لن نلتقى من جديد أبدا » .

ولقد كتب الفيلسوف الفرنسى « أندرى جيد » يقول : « مما يثير بعض العجب ، أن نجد زوجين يعيشان ، أولا وأخيرا ، حياة واحدة ، يمكن أن يظل أحدهما غريبا عن الآخر » .

على أن المسألة أحيانا تكون أكثر خطورة من كل ذلك ، فان انعدام التفاهم يؤدى الى البغضاء . هل رأيت مرة زوجين يبغض كل منهما الآخر فى صمت ، وهما يتبادلان نظرات تنطق بالاستنكار ؟ ان زواجهما غير سعيد . فهل تستطيع أن تتصور الاحن الخفية التى لا يمكن الافصاح عنها بسبب انعدام وجود اللغة المشتركة ، والسرير الذى يرقد فيه غريبان ، تمثالين من الحجر يفصل بينهما سيف ، وفى صمت ، اتسعت الاعين المفتوحة ، وأخذ الرجل ينصت الى انتحاب المرأة ، وعبراتها تتساقط واحدة بعد أخرى فى الظلام ؟

وليس فى الامكان الوصول الى أى حل الا من طريق التغاضى والتسامح . وبصرف النظر عما اذا كانت المسألة مسألة زواج شخصين من الناس ، أو مسألة ادارة شئون الحكم فى أمة ، ينبغى أن يوضع نصب الأعين أن الكمال غاية لا يمكن ادراكها ، وحتى اذا تم ادراكها بمعجزة من معجزات الحب ، فانها لا يمكن أن تدوم . وكل ما نستطيعه هو أن نحاول فى صبر وباستمرار ، أن ندرك كمالا نسبيا أو تقريبيا .

ولا جدوى ابدا من أن يتزوج الانسان كانه يشترى ورقة من أوراق النصيب ، قائلا لنفسه « من يدرى ؟ ربمـــا اصبحت سعيدا ! » . بل الأفضل جدا من ذلك ان يقدم الانسان على الزواج وكأنه فنان يضطلع بمهمة خلق عمل فنى .

ومن واجب كل من الزوج والزوجة ان يقول : « ان هذه قصة أريد أن احياها ، لا أن أكتبها . وأنا أعلم أنه ينبغى لى أن أضع موضع الاعتبـــار ، نواحى الشـــــذوذ فى الشخصيتين اللتين قد تم رسمهما فعلا ، ولكننى أريد أن انجح ولسوف انجح » .

واذا لم يكن لتلك الرغبة وجود فى بداية الزواج فانه لا يكون زواجا حقيقيا ، بل مجرد علاقة غرامية مشروعة .

من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية أن قدسية الزواج تقوم على رعاية كل من الطرفين لعهده ، وليس على مجـرد البركات التى يمنحها القسيس . فاذا قال لك رجل او امراة : « اننى سأتزوج . ومن الطبيعى اننى سأحاول أن يدوم هذا الزواج ، اما اذا منى بالفشل ، فهنالك أوجه العزاء المألوقة ، أو الطلاق » .. فى هذه الحالة يكون من أوجه واجباتك أن تنصح بعدم الاقـــــدام على ذلك الزواج . فمثل هذا الاجراء لا يكون زواجا .

صحيح أنه مهما توافرت النية الحسنة الى أبعد حد مستطاع ، فضلا عن التحمس والحـــذر ، فان الانسان لا يستطيع ان يتأكد من النجاح فى أى شىء ، لا سيما اذا كان الأمر يشمل اكثر من شخص واحد . أما اذا كان الايمان غير موجود منذ البـــداية ، فان الفشل يكون محققا .

وليس الزواج بالشيء الذى يمكن ادراكه دفعة واحدة ، بل يجب تجدد ادراكه باستمرار . ولا ينبغى للزوجين أن يستسلما للهدوء الخامل قائلين : « لقد فزنا فى المباراة ، فلننعم بالراحة » . فهذه المباراة لا فوز فيها أبدا . وفرص الحياة تجعل كل شيء ممكنا . ولنتذكر كم من البيوت قد تقوضت أركانه ، بعد أن كان يبدو حصنا منيعا قادرا على الصمود فى وجه كل الاحداث — فى غضون سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) — ولنتذكر ما هى المخاطر التى يتعرض لها الجنسان جميعا فى متوسط العمر .

ان الزواج الناجح عبارة عن صرح لابد من اعادة بنائه كل يوم . ومن الطبيعى أن اعادة البناء هذه لا ينبغى أن تصحبها تفسيرات ، أو تحليل ، أو اعتراف .

ولقد تحدث الكاتب الفيلسوف « ميريديث » عن الأخطار العظيمة التى ينطوى عليها تبادل النقد الموغل فى البحث والاستقصاء . فالموضوع يجب أن يكون أكثر بساطا والتزاما لجانب التكتم . والمرأة الحقيقية تشعر شعورا غريزيا بهذه الدلائل المهددة ، بهذا الضجر الذى لا يكاد يحسه أحد . وتصف لها غريزتها أنواع العلاج . والرجل نفسه يعلم أن النظرة أو الابتسامة ، تكون أحيانا خيرا من الشرح والتعليل .

على أنه مهما اختلفت الوسائل ، فانه لابد من أن يكون هناك تجديد للبناء . وليس فى حياتنا اليومية شيء يمكن أن يبقى مع الاهمال ، بما فى ذلك البيوت ، والمواد المختلفة ، والصداقات ، والمباهج . والأسقف تسقط ، والحب ينتهى ، و « البلاط » يحتاج الى التثبيت من

جديد ، « والتعاشيق » الخشبية لابد من اصلاحها ، وسوء التفاهم تجب ازالته . وبغير هذا تخاق المرارة ، والأحاسيس المتغلغلة فى أعماق الروح ، تصبح مراكزلنشر العدوى ، ويحدث في يوم ما ، أثناء مشاحنة ، أن ينفجر الدمل ، ويستولى الرعب على كل منهما ، اذ يرى صورته وقد اكتشفها ذهن الآخر .

ولا يمكن أن يكون الزواج ناجحا الا اذا احترم كل من الزوجين ذوق الآخر . ونعود فنقول ان من السخافة أن تتصور أن شخصين من الناس يمكن أن يدور فى رأسيهما نفس الأفكار ، وأن تكون لهما نفس الآراء ، ونفس الرغبات فهذا شيء مستحيل ، كما أنه غير مستحب .

وفى شهر العسل ، كما قلنا آنفا ، يريد العاشقان أن يعتقدا أنهما متماثلان فى كل شيء . غير أنه يحين الوقت ـ ولا مفر من ذلك ـ الذى تعود فيه الشخصيات القوية سيرتها الأولى ، وتسترد حقوقها . وفى مثـــل هذا يقول « آلان » انه « اذا أراد الانسان أن يتخذ من الزواج ملجأ أمينا ، فمن الواجب أن تحل الصداقة محل الحب تدريجا » .

كيف يحدث هذا الحلول ؟ كلا . . . ان المسألة أكثر تعقيدا من ذلك . ففى الزواج السعيد حقا يجب المزج بين الصداقة والحب . وهنـــــا تكتسب متـانة آصرة الصداقة ، ما يفوق الوصف من الاندماج والتعاطف .

وقد يدرك شخصان أنهمــــا غير متشابهين من حيث العقلية والثقافة ، ولكنهما يتقبلان فى غبطة ، ما بينهما من فوارق الطباع ، ويجدان فى ذلك فرصة متاحة تمهد لهما سبيل الارتقاء الروحى .

والرجل الذى يبذل جهدا صـــادقا فى محاولة ازالة نسيج العنكبوت عن الشئون الانسانية ، يجد أكبر العون فى قرب عقل امرأة ، يقظ ، ذكى ، متحفظ ، لامع ، يضىء ذلك النصف من دنياه ، الذى تمتد فوقه الظلال : وكذلك هى أفكار النساء . وكثيرا ما لا يكون بعد هذا موضع لمسألة الحب الجسدى فى مثل تلك الحالات ، ولو أنهـا ربما كانت فى بداية الأمر على جانب من الاهمية . وفى مثل هذه العلاقات ، يتم تطهير الحاجات الاولية . ويتخذ العقل من اللذة الجسدية وسيلة للوصول الى أشياءتفوقها فى الاهمية الى أبعد حد . ولا يصبح فقد الشباب نكبة على زوجين مؤتلفين حقا ، فان اغتباطهما بتقدم السن بهما معا ، يطغى على حزنهما لتقدم السن .

وللأديب الناقد « الكونت دى لاروشفوكو » فى هـذا كلمة مأثورة ، حيث قال : « هناك زيجات طيبة ، ولكن لا وجود للزيجات الرائعة » . وأرجو أن أكون قد برهنت على أنه يمكن أن يبلغ الزواج حد الروعة ، ولكن مثل تلك الزيجات ليس بأسهل أنواع الزواج . وكيف يمكن أن تكون حياة شخصين معا حياة سهلة هينة ، فى حين يكون كلاهما عرضـــة لنوبات من الغضب ، ولارتكاب الأخطاء ، وللاصابة بالمرض ، مما يفسد طريقة معاملته للآخر ؟ .

والزواج الذى يخلو من المشاحنات ، يكاد يشبه أمة لا تتعرض لأية أزمة ، من حيث كونه شيئا لا يتصـــور وجوده أحد . على أنه بعد أن يجتاز الحب عقباته الأولى ، ويذهب التعاطف بالكبرياء ويحل محلها اندماج لين وادع ، فان الازمة ربما تكون قد مرت بسلام ، وبغير قليل من السهولة .

وعلى هذا فليس الحب ما يتصوره العشاق الخياليون، بل هو مؤسسة قائمة على غريزة . ونجاحه لا يتطلب التجاذب الجسدي وحسب ، بل يتطلب قوة الارادة ، والصبر ، وموافقة الشخص الآخر ، وهي مطلب عسر على الدوام . . . واخيرا ـ اذا نفذت هذه الشروط ـ يمكن ان ينشأ عطف جميل دائم ، ومزج فريد وخفي بالنسبة لمن لم يعرفوه أبدا ـ بين الحب ، والصداقة ، والحساسية ، والاحترام . وبغير ذلك لا يمكن ان يوجد زواج حقيقي .

فن الحياة العائلية

لو أنني اردت ان القى موعظة دينية عن موضوع الحياة العائلية ، لاستشهدت بكلمة المصلح الاجتماعى الشهير « بول فاليرى » حيث قال : « يوجد فى كل أسرة من الأسر ، نوع معين من الضجر الداخلى المستور ، ينجو بفضله أعضاؤها ويعيشون معيشاتهم الخاصة . وكذلك توجد فى كل اسرة قوة قديمة مقتدرة ، تسجل وجودها حين يلتئم شمل الجميع فى غرفة الطعام لتناول وجبة العشاء ، حيث يشعر أفرادها بالحرية فى أن يكونوا على سجيتهم تماما » .

وأنا أحب هذه الكلمة لأنها تستدعى ما فى الحياة العائلية من النبل ، وما فيها من الشر ، على السواء . فان الضجر الداخلى ، والاحساس العميق بالاندماج يوجدان فى كل اسرة على وجه التقريب .

ومن منا لا يستطيع الملاءمة بين تصريحى « فاليرى » ، هذين المتعارضين ، حين يستدعى ذكرى اجتماع أفراد بعض العائلات بعد فراق ؟ ومن منا لم تعذبه الحياة فى وقت ما ، حتى التمس لنفسه ملجأ فى جو منزل عائلى هادىء فى الريف ؟

ان الصديق يحبك لذكائك ، والعشيقة تحبك لما فيك من جاذبية ، ولكن حب أسرتك لك لا يعرف التسبيب والتعليل ، فلقد ولدت فى تلك الأسرة ، وأنت من لحمها ودمها . ومع هذا فانها قد تثير من غضبك فوق ما تثيره اية مجموعة من الناس فى هذا العالم .

ومن منا الذى لم يقل فى مرحلة ما من مراحل شبابه : « انني أختنق هنا ، لم أعد أستطيع الحياة مع عائلتى ، انهم لا يفهموننى ، وانا لا أستطيع أن أفهمهم ؟ » . ومع هذا ، فمن الرجال حين يجد نفسه وقد أحاط به قوم غرباء ، مستحقرا أو مهملا اهمالا ، لا يحن الى العودة الى أولئك الذين كان فى أعينهم هو محور الكون ؟ .

لقد صرحت « كاترين مانسفيلد » فى يومياتها وهى فى الثامنة عشرة ، بأنها رأت من واجبها أن تهجر أسرتها ، لأن عقلها لم يكن ليستطيع أن ينمو نموا طبيعيا . وعندما كانت بمنأى عنهم فيما بعد ، ومريضة بين غرباء ، تذكرت فى نفس يومياتها ، كيف أن جدتها قد أحضرت لها وهى لا تزال طفلة ، بعض اللبن الساخن وشيئا من الخبز ، وضعتهما الى جانب سريرها ، وقالت لها بصوتها الناعم الجميل : « اليك هذا ، يا حبيبتى » .. ولقد بدا لها فى اشتداد عذابها ، أن تفكيرها فى أن تجد نفسها قد عادت فجأة الى الأسرة التى احتقرتها هى يوما ما ، تفكير سعيد يفوق كل تصور .

والحق ان الأسرة ، كالزواج ، من المؤسسات التى تضفى عليها أهميتها تعقيدا . والأفكار النظرية تنفرد دون سواها بكونها أفكار بسيطة ، لأنها لا تتصل بالحياة الا قليلا . والأسرة ليست خلقا تمخضت عنه نزوة مشروع

يخبط خبط عشواء ، بل هي نتيجة طبيعية لانقسام انواع الكائنات الحية الى جنسين ، وعجز الطفل الآدمى فترة طويلة ، وحب الأمومة الذى يرعاه فى عجزه، والحب الأبوى الذى هو أكثر افتعالا وأحدث عهدا فى تاريخ الانسانية ، والذى هو مؤلف من مقدار من الحب للأم ، ومقدار معادل له من الحب للطفل .

***

ونحن فى حل من أن نقول عن الأسرة ما قلناه عن الزوجين . والعلاقات العائلية وثيقة لأن الغرائز تدعمها . والأسرة عبارة عن جماعة طبيعية أو غريزية قد استحالت الى جماعة دائمة بفضل ما تلقاه من مساندة القوانين والعرف . فواجبات الوالدين نحو أطفالهم ، وواجبات الأطفال نحو والديهم ، وتشريعات المواريث .. كل هذه قد نمت وترعرعت من حول شعور طبيعى ، طبيعى الى درجة انه قد اكتشف وجوده بين بعض أنواع الحيوان وهو غريزة الأمومة .

وشعور الأم نحو طفلها شعور نقى وجميل الى ابعد حد . وليس ثم خلاف فى هذا. والأم بالنسبة لطفلها بمثابة بعض الملائكة ، وهى فى ذلك تتمتع بالقوة فى كل ناحية . واذا هى سهرت عليه فانها تكون منبع كل المسرات ، وكل الحياة . واذا هى عنيت به مجرد عناية ، فانها تظل الشخص الذى يمحو الألم ، ويمنح الغبطة ، فهى الملجأ الأعظم ، الذى يجلب الدفء ، والراحة ، والصبر ، والحب . وطفل الأم بالنسبة اليها بمثابة اله ، ومن كبرى حسنات الديانة المسيحية أنها قد ادركت هذا .

وفى الامومة ، كما فى الحب ، يسهل التفاني والحدب ،

لأنهما من ضروب الأنانية ، والأم تضحى بنفسها بمحض رغبتها فى سبيل طفلها ، لأن طفلها جزء من ذات نفسها ، ومن لحمها . ولقد اقتضت الضرورة أن يتعلم الهمج الحب ، قبل وجود أى مجتمع انسانى والفضل فى ذلك يرجع الى الحب الجنسى ، ثم الى حب الامومة ، وهكذا وعوا الدرس .

والحب الجنسى قائم على رغبة الجسد . وحب الامومة قائم على انكار الذات ، وهو بذلك أنقى أنواع الحب الفريزى . وحب النساء للرجال ، فى حد ذاته ، مشوب بحب الأمومة . هل أحبت « جورج صاند » الشاعر « موسيه » ؟ وهل أحبت الموسيقار « شوبان » ؟ أجل ، ولكن حبها كان أميل الى حب الأمومة منه الى الحب الجسدى . ولم يكن فى حالتها تلك شذوذ . وحين وقع « روسو » فى غرام « دارين » فى شبابه ، كان يدعوها « ماما » . ومع أنها كانت عشيقته ، فقد كانت تعامله بما تعامل به الأم طفلها من عناية ورعاية . وكذلك كان الموقف تماما بين مدام « دى بيرنى » وبين الأديب « بلزاك » فى شبابه .

وعلى هذا النحو يمكن أن تقوم العلاقات بين الرجال فى شبابهم وبين النساء الناضجات الأنوثة ، بحيث تبلغ درجة الحب من جانب الشاب ، وتصبح مزيجا عجيبا مرتابا ، من حب الأمومة والحب الجسدى من جانب المرأة ، فى ثقة ممن لا تستطيع أن تحبه الا اذا شعرت بأنها تحمى شخصا أضعف منها ، يوقظ فيها أعمق الغرائز .

والمرأة من هذا الطراز تصبح متعلقة بالرجل القوى فى

الظاهر فقط ، واذا هى احبته فانما تحبه لما فيه من مواطن الضعف . (وينبغى أن تقرأ فى هذا المعنى ما كتبه « برنارد شو » فى كتابيه المعروفين « كانديدا » و « الأسلحة والرجل ») .

ثم الطفل ؟ انه اذا أسعده حظه بأم هى أم حقيقية ، تعلم منها فى باكورة حياته كيف يمكن ان يكون الحب كاملا وغير أنانى . وحب الأمومة يدل الطفل على أن الدنيا ليست فى جملتها وتفصيلها بالمنطوية على العداء ، وأن من الممكن العثور دائما على الحنان والعطف ، وأن فى الدنيا أناسا يمكن منحهم الثقة التامة فى سذاجة وعدم تحفظ ، ويمنحون كل شىء دون أن يطلبوا شيئا فى مقابل ما يمنحون . ومن أعظم الأمور بدء الحياة فى مثل ذلك الجو .

والمتفائلون الذين يحسنون الظن بالحياة على الدوام ، وعلى رغم الشقاء وسوء الحظ ، يكونون فى معظم الأحيان أبناء أم رءوم حكيمة . ومن الناحية الاخرى ، يجوز أن تكون الأم ذات أثر فاجع السوء اذا كانت حمقاء ، كثيرة الأخطاء ، غير منصفة . وهى تجعل من ابنائها أشخاصا متشائمين عصبيى الأمزجة .

ولقد عرفت فتيات كن فى سن المراهقة على خلاف دائم مع أمهاتهن . وبمراقبة مراحل نضوجهن ، وجدت ان الكثيرات منهن قد ظللن على ما فى نفوسهن من مضض وميل الى التحدى ، وبقين على اقتناع بأن كل النساء يحملن لهن شعورا عدائيا ، كما بقين غير مستطيعات الحب لأنهن فى طفولتهن قد أفزعهن ما لمحنه أو حدسنه من أمور الحب ، من أم لم يكن وسعهن أن يعجبن بها .

وعلى العكس من ذلك ، فان الأم المسرفة فى العطف وفى الانسياق وراء العاطفة ، قد تكون ذات اثر سيىء على وليدها ، اذ تثير فيه من الأحاسيس المرهفة ما لايتلاءم مع سنه الصغيرة . ولا شيء يمكن أن يكون أخطر على الصبى من أن يشوب احترامه الواجب لأمه ما هو متصل بالحواس دون أن يدرى . وهذا يصل الى نوع من العلاقة الروحية الشاذة ، كان من ضحاياه ، الكاتب الفيلسوف «د.هـ.لورانس» ، الذى ابدع فى وصف مثل ذلك الوضع فى قصته المعروفة « الأبناء والعشاق » ، التى يشرح فيها كيف يمكن أن يصبح الشاب عاجزا عن الحب ، بسبب ما ساد طفولته من الحيرة والاضطراب .

والحالات التى أشرنا اليها فيها تطرف . وهى حالات شاذة بعض الشيء . والحياة العائلية — فى الظروف العادية — تتاح فيها فرصة التدريب على الحب . ولهذا السبب نشعر بسعادة غريبة فى العودة اليها ، برغم ما نكن لها من أوجه النفور . على ان ذلك التدريب اذ نتذكره لا يكون هو السبب الوحيد فى المشاعر الوثيقة التى نعود بها . وعش الأسرة هو المكان الوحيد الذى نستطيع فيه أن نكون على سجيتنا ، كما قال « بول فاليرى » .

فهل هى ميزة عظيمة غير عادية ؟ او ليس فى استطاعتنا أن نكون على سجيتنا فى أى مكان يقع عليه اختيارنا ؟ كلا بالتأكيد ! ان علينا أن نلعب دورا فى الحياة ونحن نختار وجهة النظر ، ولكن شخصيتنا مقدورة علينا . وأمامنا واجبات رسمية نؤديها . كما أن الحياة الاجتماعية تفرض علينا مطالبها ، والقسس ، والأساتذة ، ورجال الأعمال ، من بين كثيرين غيرهم ، ليس من حقهم أن يكونوا على سجيتهم فى جزء كبير من حياتهم .

وفى الأسرة الموحدة ، يتضاءل الدور الاجتماعى حتى يصل الى الحـــد الأدنى بالنسبة الى أعضائها . فهم يجتمعون فى البيت فى المساء ، ويجلس الوالد فى مقعده المريح ليقرأ الصحيفة ، أو تداعب أجفانه سنة من النوم . وتنهمك الأم فى شغل الابرة ، بينما تتحدث الى ابنتهـــا الكبرى عن المسائل الثلاث أو الأربع ، التى تشغل فكر كل ربة بيت . ويقرأ أحد الأبناء قصة بوليسية ، وهو يترنم بشىء من نغم الموسيقا . أما الابن الثانى ، فانه مشغول باصلاح بعض الأدوات الكهربائية . فى حين يتلهى الابن الثالث بادارة مفاتيح الراديو دون قصد معين . وكل هذا يفسد الهدوء والسكينة بعض الشىء . فالصوت الصادر عن جهـــاز الراديو يزعج الوالد فى قراءاته واغفائه . وصمت الوالد يضايق الأم ، وحديث الأم مع ابنتها يغيظ الأولاد . وهذه المشاعر لا تخفى ، لأن محيط الأسرة لأكثر من قدر ضئيل الى أبعد حد من التأدب . وكل عضو من أعضائها يعتقد فى قرارة نفسه أن الآخرين مجانين لا ينبغى احتمالهم ، ومع هذا فهو يحتملهم ويعلم أنهم قد يضيقون به مثل ضيقه بهم ، وأنهم لا شك محتملوه مثل احتماله لهم .

وهؤلاء الناس لا يجدون نشوة الســـعادة فى الحيـــاة العائلية . ولكنهم ــ كما أسلفنا ــ يمكنهم أن يكونوا على سجيتهم . وهم مقبولون لدى بعضهم بعض ، ويستطيعون أن يجدوا الراحة هنالك . وهم يعـــرفون أنهم بين أشخاص قد اعتادوا الحياة معا ، واذا اقتضت الحال فانهم يتقاسمون المتاعب فيما بينهم . واذا حدث أن واحدا من الممثلين على المسرح الذى نتحدث عنه الآن ، قد شكا صداعا على حين فجأة ، تصحبه حمى ، فان القلق لا يلبث أن يستولى على الآخرين على الفور . فتشغل الأخت

نفسها باعداد فراش . وتعنى الأم بالسهر على راحة المريض ، ويذهب أحد الاخوة الى الصيدلى ، ولا يجد المريض نفسه وحيدا .

والرجل الذى يعيش الحياة وحيدا بلا أسرة ، جدير بأن يرتعد من شدة البرد . وفى البلاد التى تكون فيها الحياة العائلية أقل تماسكا — لأسباب مختلفة — يشعر الرجال بحاجتهم الى مزيد من الاندماج مع اخوانهم والتفكير بعقلية الجماعة ، تعويضا لما فقدوه من تلك العصبة الصغيرة التى يسود جوها الدفء والود .

ولقد تتجاوز الروابط نطاق محيط الاسرة التى قوامها الوالدون وأبناؤهم . ولقد حدث بين أفراد الشعب الرومانى أن الروابط قد نشأ عنها نوع من القبائل كان قوامه — فضلا عن الاقارب الذين تربط بينهم صلات النسب — أشخاصا يصل بينهم مجرد المصاهرة ،وآخرين ممن يعولهم الغير ، وعبيدا .

وفى عالمنا الحديث ، زاد تفكك الاواصر بين افراد الشعب بسبب اتساع نطاق تشتت العائلات ، وان كانت لا تزال وطيدة الاركان . وفى كل عائلة فرنسية ، يوجد أبناء عمومة أبعدون ، وعمات عانسات ، على استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل الأسرة . وهنالك عائلات سياسية وجامعية كبيرة يحتكر أبناؤها المناصب والاوسمة والارباح ، حتى الجيل الثالث والرابع .

ونحن جميعا نعرف سيدات ممن تقدمت بهن السن ، لا يعنيهن أمر أحد فى غير نطاق العائلة . فى حين يعنيهن أمر كل اعضائها حتى اذا كن لم يقابلن مثل ذلك العضو أبدا . وبهذه الطريقة تتدهور العائلة فتصبح نوعا من

الانانية الجماعية التى ليست حبا ولكنها حلف دفاعى ضد العالم الخارجى .

ومن الطبيعى أن مثل تلك الأنانية العائلية قد تصبح خطرا اجتماعيا اذا بولغ فيها . ومهما يكن من شىء فقد حدث فى بعض مراحل الحضارة الباكرة ، أن الحياة الاجتماعية كانت قائمة على غريزة الأمومة ، ثم أصبحت بعد ذلك بوقت طويل ، قائمة على غريزة الأبوة .

من الجلى أن الحياة العائلية تنطوى على أخطار لا يستهان بها . ويشهد على هذا ما يملأ أذهان كثير من المراهقين ، من النزوات الثائرة . وليس الحب كل شىء فى الأسرة . بل انها قد تنشأ فيها كراهيات تزيد من حدتها المصالح المتعارضة ، وتغذيها بحيث لا يجدى فى اطفاء نيرانها أى قدر من التأدب .

ولقد وصفت مساء أسرة ساد فيه الاستجمام العقلى والجسدى معا ، حيث تصرف كل عضو بطريقة طبيعية تماما . مساء قضاه الجميع فى الاستراحة .. أجل ، ولكن الى أين تؤدى هذه الحرية ؟ انها ، كغيرها من الحريات غير المحدودة جميعا ، تؤدى أحيانا الى ذلك النوع من الفوضى الذى يجعل الحياة عسيرة الى أبعد حد .

وقد كتب « آلان » عن عائلات قد اتفق أفرادها اتفاقا صامتا على أن كل شىء لا يتفق مع رغبات واحد منهم يصبح محرما على الآخرين . ولا شىء فى أحاديثهم سوى التبرم :

« ان أحدهم تضايقه رائحة الأزهار . والآخر تضايقه الاصوات العالية ، فلابد من أن يسود الصمت فى الصباح

حتى لا يتضايق هذا ، وفي المساء حتى لا ينزعج ذاك . واحد لا يحتمل النقاش في المسائل الدينية ، والثاني يكاد يتميز من الغيظ اذا تناول الحديث مسألة سياسية . والجميع متفقون على استعمال حق الاعتراض « الفيتو » ، وهم يستعملون هذا الحق دون هوادة . يقول أحدهم للآخر : سوف يلازمني الصداع طول النهار ، بسبب أزهارك . ويقول ثالث منهم لرابع : لم يغمض لي جفن في الليلة الماضية ، لأنك صفقت الباب بعنف ، في الساعة الحادية عشرة تقريبا .

« وهم في أوقات تناول وجبات الطعام ، يجلسون في شبه مؤتمر ، ويدلي كل منهم بشكواه . وجميعهم يعرف الخرائط المعقدة جيدا ، ولا يكاد يعتني بغير ذلك في تعليم الأطفال » .

وفي مثل تلك العائلات يتولى أتفه الاعضاء اعداد البرنامج اليومي ، كما يتولى أبطأ الافراد في السير ، تنظيم نزهة عائلية يحدد هو فيها خطوات المشاة . انكار الذات ؟ نعم . ولكن هناك أيضا الانحطاط ، وتخفيض مستوى الحياة الفكرية . وتدل على هذا حقيقة ملموسة ، هي أنه كلما حضر زائر من أذكياء الناس ، وجلس الى مائدة الاسرة ، فلماذا ، في مثل تلك المناسبة ، نجد أن الشخص الذي من عادته أن يجلس صامتا ، أو يتحدث حديثا كله لغو وتفاهة ينقلب فجأة الى متحدث بارع يكاد يكون عبقريا ؟ السبب هو أنهم يبذلون في حضرة الشخص الغريب عنهم ، مجهودا لا يبذلون مثله فيما بينهم وبين أنفسهم ، أي في محيط العائلة .

ولهذا السبب نفسه لا يحسن بالعائلة أن تسرف في الانطواء على نفسها . اذ ينبغي أن تتدفق اليها تيارات

جديدة ، كما تتدفق الى خليج مفتوح أمام مياه المحيط .
وذلك القادم من الخارج قد يكون غير مرئى . ووجوده فعلا ليس بالضرورى . فقد يكون موسيقيا موهوبا أو شاعرا عظيما . وقراءة آيات من الكتاب المقدس كل يوم ، تهذب عقول الكثير من العائلات المتدينة . وكثيرون من أبرع الكتاب الانجليز مدينون بأسلوبهم لهذه القراءة الدائمة لكتاب عظيم .

واذا كان هناك عدد من النساء فى انجلترا اليوم ، يتمتعن بموهبة طبيعية فى الكتابة ، فقد يكون الفضل فى ذلك راجعا الى انهن قد اتخذن من هذه القراءة حصنا وقاهن شر الاسترسال فى الثرثرة العائلية التافهة ، وجعلهن يتعرفن فى حداثتهن الى أسلوب رفيع .

وكذلك كانت الدراسات اللاتينية مصدر مرانة مماثلة بالنسبة الى مدام «دى سيفينى» ، ومدام «دى لافاييت» ، وغيرهما من السيدات الفرنسيات فى القرن السابع عشر . وأعضاء بعض العائلات يكتسبون عادة مستهجنة خطرة هى عدم اتمام الجمل ، فهم يفهمون بعضهم البعض بسهولة وبكلمات قليلة ، دون أن يبذلوا أى مجهود على الاطلاق . ولمكافحة هذا الشر ، ينبغى رفع المستوى الفكرى من طريق التعرف المستمر على خير ما تمخضت عنه الانسانية من الأشياء ، وبالمعتقدات الدينية المخلصة ، وحب الفنون (ولا سيما الموسيقا) ؛ والاشتراك فى المذهب السياسى ، ونوع من العمل المشترك ، يمكن رفع الأسرة فوق مستواها .

وهناك خطر آخر ، هو ان الأسرة تجد صعوبة على الدوام فى أن تنظر الى أحد أعضائها بعين الجد . وليس هذا عداوة ولا غيرة ، ولكنه مجرد كون الاسرة معتادة أن تنظر

اليه على ضوء مختلف . ولتقرأ سيرة حياة الشقيقات الكاتبات الانجليزيات الشـــهيرات اللائى يحملن اسم « برونتى » ، فانهن لم يكن قصصيات فى تقدير والدهن . بل كان عملهن وفنهن بالنسبة اليهن ، مجرد عبث بالنسبة الى والدهن المستر « برونتى » الذى لم يكن يقـــدر أهميته أبدا .

على أن زوجة « تولستوى » قد عرفت مدى عبقريته ، كما أن أطفاله قد أعجبوا به وحاولوا أن يفهموه ، ولكن — على رغم محاولاتهم — كانت زوجته وأطفاله يرون فيه كائنا بشريا ممتلئا بألوان الشـــذوذ والمعـــايب ، بنفس الوضوح الذى كانوا يرونه فيه الكاتب العظيم . ولقد كان بالنسبة الى زوجته هو الرجل الذى يقول ان من الخطأ أن يستخدم السادة الخدم ، ثم يطلب اليها قبل موعد تناول الغداء بلحظات أن تعد غداء مناسبا يكفى خمسة عشر ضيفا .

ولقد سبق لى أن قلت ان الانسان يستطيع أن يكون على سجيته فى محيط الأسرة . أجل . ولكن من غير المستطاع أن يكون أى انسان آخر فى ذلك الجو الذى لا كلفة فيه . فان الانســان لا يستطيع أن يرتفع فوق نفسه . فليس ثم مكان للقديس ولا للبطل . وأعضـــاء الأسرة الواحدة قد لا يبخسـون قدر العبقرى فيمـــا بينهم ، ولكنهم قد يهبطون به الى الحد الأدنى من تقديرهم بطريقتهم فى التقدير التى هى ليست ميزانا للقيم ، بل هى مجرد اغتبـــــاط بأن مثل ذلك الرجل ينتمى الى الأسرة . واذا أصبح واحدا من أسرة « فلان » واعظا عظيما أو شهيرا من رجالات الدولة ، اغتبط جميع أفراد تلك الأسرة ، لا بسبب تأثرهم بمواعظه أو ايمانهم بقيمة

ما يدعو اليه قريبهم من وجوه الاصلاح ، ولكن بسبب افتخارهم بنشر اسم عائلتهم فى الصحف السيارة . والعمة العجوز تنصت لاذاعات محاضرات ابن أخيها فى الراديو عن الموضوعات الجغرافية ، لا لأنها مولعة بالجغرافيا ، ولكن لأنها مغرمة بابن اخيها .

***

واثر التفاهة المسئول عن تحديد المستويات ، مع تلك الأهمية القصوى التى يقترن بها النضج العقلى ، هما السبب فى كثير من الثورات على الحياة العائلية .

وهناك مناسبات كثيرة يعتقد فيها عظماء من الرجال انه ينبغى لهم كى يساوقوا أقدارهم ، أن يهربوا مما فى عائلاتهم من دفء وارتباط . وفى احدى تلك اللحظات ، يعكف « تولستوى » على حياة تشبه الرهبنة . ويسمع بعض الصبية هتافه بقوله : «لسوف تهجر اباك وأمك» . ويهرب المصور الأشهر « جوجان » من أسرته ، ليعيش فى « تاهيتى » حياة رهبان الفن . وكل منا ، يحدث له مرة واحدة فى حياته على الأقل ، أن يسمع النداء الداخلى للأخ الأكبر ، ويشعر بأنه هو الابن الضال .

وانى لاعتقد ان فوائد مثل ذلك الهروب ، هى خيال محض ، فان فرار الانسان من عائلته ، أى من الروابط التى تكون فى بداية أمرها طبيعية ، ثم تصبح اختيارية تصل ما بينه وبين قومه ، معناه انشاء روابط اخرى لا تبلغ مبلغ الأولى من حيث كونها طبيعية ، لأن الرجل لم يخلق ليعيش وحيدا . فهو قد يمضى الى حيث تحيط به عزلة حقيقية او مبالغ فيها ، يوجد فيها كذلك الالتزام والتورط والهجر ، كما أنه قد ينحرف الى الجنون كما حدث للفيلسوف الألمانى «نيتشه» . والحكمة

الحقيقية ــ على نحو ما عرفها جيدا «ماركوس أوريليوس» ــ لا يمكن اكتسابها باعتزالنا هذا العالم . والفـــرار من الحياة العائلية سهل ولكنه لا يجدى ، والارتفـــاع بمستوى الحياة العائلية هو شيء أنبل من ذلك وأصعب منالا .

على أن هناك فترات معينة من حياة الشباب يكون فيها من الطبيعى تماما أن يروا روابط الحياة العـــائلية ، أوضح مما يرون مميزاتها العظيمة ، وهـــذا ما يقال له السن الحرجة ، ولكى نتحدث عنها حديثا واعيا ، ينبغى علينا أن نتوخى المزيد من صحة الحكم ــ من داخل نطاق الأسرة ــ على العلاقات بين الأجيال .

ولقد سبق لى فعلا أن وصفت بدايات تلك العلاقات : عن الحنان الغريزى الذى لا يعرف التحفظ من جانب الأم ، والعبادة والثقة من جانب الطفل .. وهكذا تكون الحالة الطبيعية .

واكثر الأخطاء شيوعا فيما يظن أنه ليس بالمؤذى من بين ما يقع فيه الآباء والأمهات ، تدليل الطفل الى درجة مؤذية ــ أى السماح له بأن يعتقد أن لديه قوة خارقة فى حين أنه انما يبدو كـذلك بسبب مواطن الضعف فى والديه . ولا شيء أشد خطرا عليه من ذلك . فتكوين شخصية الطفل انما يبدأ فى غضون الأشهر الأولى من حياته ، وهو فى مدى سنة واحدة ، انما يصبح خاضعا للنظام أو غير خاضع له على الاطلاق . وكثيرا ما سمعت غيرى يقول ، كما أننى انا نفسى كثيرا ما قلت : « ما أقل تأثير الانسان على أطفاله . فان لهم شخصياتهم كمـا هى هى ، والانسان لا يستطيع ان يفعل شيئا يـــكفل تغييرها ! » .

غير انه كان من الممكن تغييرها فى حالات كثيرة ، من طريق التعليم المبكر الذى لا يكاد يفكر فيه . فالطفل فى اول أيام حياته يجب حمله على الحياة فى نطاق قاعدة مقررة ، حيث يكون الألم فى انتظاره آخر الأمر اذا هو لم يستجب لدواعى النظام .

وللمجتمع قوانينه التى لا تتغير . وعلى كل من الناس أن يتولى تعبيد طريقه بيديه — وهى مهمة عسيرة تتطلب صبرا ، وتسامحا ، ومثابرة . والطفل الذى أفسده التدليل يعيش فى دنيا من الأوهام ، ويعتقد الى آخر حياته أنه يستطيع بابتسامة أو ايماءة غاضبة ، أن يحصل على ما يريده من نتائج . وهو يريد أن يحاط بمثل والداه اللذان لم يكونا على شيء من الصرامة معه . ولقد عرفنا جميعا أطفالا مدللين قد شبوا عن الطوق وكبروا : رجالا وصلوا الى المناصب الرفيعة ثم فقدوها بسبب سلوكهم الذى يشبه سلوك الأطفال ، ونساء بلغن الستين ولا يزلن يعتقدن أن فى وسعهن ادراك كل رغباتهن ، من طريق ادعاء الغضب . والعلاج هنا بيد الأم التى تستطيع أن تعلم الطفل ، فى أشهره الأولى التى يتلقى فيها تعليمه الباكر فى الحياة ، أن هناك قواعد يجب أن يذعن لها .

ولقد أوضح العالم النفسى الشهير « ادلر » ، مدى الضرر الذى يمكن أن يقع ، والأمراض النفسانية التى يمكن أن تحدث ، نتيجة لتخبط أمهات معينات لا يستطعن التزام خطة الحياد . والعلاقات بين الاخوة والأخوات هى نماذج للصداقة فى كثير من العائلات . ولكن من غير الحكمة أن يعتبر ذلك وضعا طبيعيا بين أوضاع الأمور . ورواية « الاخوة الأعداء » تعالج موقفا محزنا

لوحظ مثله وعالجه المؤلفون منذ بدء الحضارة ، ولا تزال مأساته تتجدد الى ما لا نهاية . وفارق العمر بين أطفال الأسرة الواحدة يلعب دورا ذا أهمية ملحوظة فى تكوين الشخصية . والطفل المبكر يكون فى الأغلبية العظمى من الحالات طفلا مدللا يفسده الاسراف فى التدليل . وايماءاته وابتساماته تبدو فى أعين زوجين شابين لا يزالان فى نشوة الحب ، مدهشة ورائعة . وهو سرعان ما يصبح قطب الرحى فى الأسرة . ولا ينبغى أن يتصور أحد أنه غير مدرك لذلك . فان العكس من هذا هو الصحيح ، لأنه لا يلبث أن يعتقد أن كل ذلك الاهتمام ، وكل ذلك المركز الهام هما من حقه . فاذا ولد للأسرة طفل آخر واضطر الطفل البكر الى اقتسام حب والديه مع هذا المنافس ، أو اذا وجد نفسه متعرضا للاهمال بسببه ، فانه لذلك يقاسى أهوال العذاب . حيث تحس الأم بطبيعة الحال أن الطفل الأصغر يحتاج اليها . ولقد راقبت هى نمو طفلها البكر بشعور من الأسف . وهى الآن تخص طفلها الثانى بالقسط الأوفر من حبها . وهذا التحول المفاجىء يترك فى الطفل الأول مرارة تستقر فى عقله الناشىء لا يمكن محوها منه بسرعة .

ومثل هذه الأحاسيس يكون عميقا فى الأطفال الى درجة انه يتمنى الموت للدخيل الذى اغتصب منه قوته ، وبعض الأطفال يحاول أن يستعيد الاهتمام به من طريق الشكوى . كما أن المرض فى كثير من الأحيان يكون طريق النصر المهمدة امام الأطفال المرهقين .

والمرأة التى تعمد الى استدرار الرثاء كى تصير موضع الاهتمام ، فى دنياها ، طراز شائع معروف من النساء ، ولكن الطفل أيضا يستطيع أن يلعب مثل ذلك الدور .

والأطفال الذين يكونون حتى يولد لهم أخ أو اخت ، لا غبار على سلوكهم، قد يصبحون بعد ذلك الحادث سيىء السلوك الى درجة لا تحتمل . وهم يثيرون سخط والديهم بما يصدر عنهم من تصرفات لا يمكن تعليلها ، وهذه الحماقات التى قد تسبب الاشمئزاز والندم للأطفال انفسهم ، انما هى فى حقيقة أمرها جهود يبذلوها لكى يحماهم الوالدون محمل الجد .

ومن رأى « أدلر » — وأعتقد أنه الحق فى كثير من الأحيان — انه يمكن التعرف بوضوح على الطراز السيكولوجى الذى ينتمى اليه الطفل البكر ، طول حياته ، من واقع اهتمامه بالماضى ، ومدى تحفظه ، واكتئابه وحبه للتحدث عن الطفولة الباكرة بسبب كونها أسعد مراحل الحياة .

والطفل الأصغر يعيش من أجل المستقبل ، المستقبل الذى ربما كان الطفل البكر قد حصل فيه على الامتياز ، وكثيرا ما يكون شديد الاحتقار لغيره ، وآراؤه السياسية كثيرا ما تكون اكثر نضوجا من اخيه الأكبر . ومعظم السبب فى ذلك فى حالة المدنيات القديمة ، راجع الى وراثة الأخير . وآراء السير « وليام هاركورت » السياسية المتطرفة ، كان يعارضها أخوه الأكبر ، ولقد رد عليه بقوله : « أيها العزيز ، ان الأراضى لك ، فدع لى أفكارى » . وكذلك يجد الانسان حين يدرس نمو « شاتوبريان » العقلى ، أن مركزه باعتبار كونه الابن الأصغر ، قد جعله يعطف على الأفكار الثورية فى القرن الثامن عشر — فى أيام شبابه على اقل تقدير .

وأصغر الأطفال تفسده كثرة التدليل هو الآخر . . لا سيما اذا كان أصغر كثيرا من اخوته ، ولكنه يكون

طفلا سعيدا لأن امتيازاته لن يغصبها منه أحد أبدا . وهو قرة أعين اخوته الكبار ، الذين يحيطونه بعطف أبوى . وهو فى كثير من الأحيان ينجح فى حياته بسبب ثقته بنفسه أولا ، ثم لأنه ــ بالنظر الى كونه يعيش مع اخوة أكبر منه ــ يتخذ من اخوته قدوة له ، ويحاول ان يلحق بغبارهم . وهو يكتسب اللباقة والكياسة ، لأنه أضعف الجميع ، ومن ثم يتعين عليه أن يتفاهم ويتسامح .

ومن الأهمية بمكان أن يشعر الأطفال بأنهم يتمتعون بأنصبة متساوية من الحب . كما أنه لا ينبغى أبدا أن يسمح لهم باكتشاف وجود خلاف بين والديهم . فمثل هذه الأشياء يكون مصدر آلام لهم . والأطفال الذين يصبحون ثائرين على كل شيء عندما يكبرون ، كثيرا ما يكونون هم الذين لاحظوا فى طفولتهم وجود بون شاسع بين أقوال والديهم وأعمالهم . والبنت التى تنظر الى أمها بعين الازدراء ، جديرة بأن تنظر بنفس العين الى كل النساء . والأب الطاغية قد يكون السبب فى أن يعتقد أطفاله ــ ولا سيما البنات منهم ــ ان الزواج نوع من العبودية . ويبدو لى أن من واجب الأب أن يبتغى فوق كل شيء ، أن يمنح أطفاله أعظم قدر من السعادة على نحو ما يتفق مع نوع الحياة المقدر لهم أن يحيوه . وهذا الحد الأقصى من السعادة لابد منه لأن الحياة قصيرة ، ولأن ذكريات الطفولة هى أغلى ما يملكه الأطفال ، وكذلك لأن شقاء الطفولة المكبوتة الكئيبة ، قد تلازم ظلاله حياة الطفل بعد أن يكبر .

وفى نفس الوقت ، يجب أن يكون الوالد حازما ، وينبغى أن يجعل أطفاله يدركونه منذ بواكير أيامهم أن الدنيا لا يمكن غزوها بسهولة ، فهم اذا لم يدركوا ذلك ،

وجدوا بانتظارهم خيبة آمال فاجعة . وأنا أعرف أولادا جنبتهم أمهاتهم كل صدام مع الحياة ، حتى ان أول ما يصادفونه من لقاء زملاء خشنين غلاظ القلوب ، يدفع بهم الى اليأس . فهم عاجزون عن مجابهة الحيــــاة ، ولا يلبثون أن يستسلموا للفشل . ويبدو لى أن الاصرار على ضرورة مراعاة الطفل مراعاة دقيقة لعدد قليل من القواعد ، فيما يتصل بالعمل والسلوك ، مع بذل الوالد كل ما فى وسعه لضمان سعادة الطفل ، هما خير الوسائل للتأكد من أن الانتقال من مرحلة الطفولة الى مرحلة المراهقة ، وسوف يتم دون التعرض الا للحد الأدنى من الألم .

***

على أن ألفة العمر بين الأم والابن قد تكون من انبل العلاقات جميعا . ولقد تحدثنا عن حب الأم لطفلهــــا حبا يشبه العبادة . وعلى مر الأيام – ولا سيما بعد وفاة الوالد – تصبح تلك الألفة أقوى ، لأن الابن يحب أمه ويحترمها ، كما أن الأم بدورها تحيط رب الأسرة الجديد باحترامها الممزوج بحنانها ورعايتها . وهذا المزج الرائع بين المشاعر يتمثل بصورة أوضح فى سن الشيخوخة ، أو فى المجتمعات الريفية ، حيث تظل الأم مشرفة على ادارة المزرعة مع ابنها وزوجته .

وما أكثر ما رسم الكتاب الروائيون شـــخصية الأم المتسيطرة التى لا تحب ولدها الحب الكافى الذى يجعلها تدرك أن سعادته قد أصبحت بين يدى امرأة أخرى . ولقد سبق أن قلنا ان « د . هـ . لورانس » قد عالج هذا الموضوع بصراحة . والأم من الطراز الذى يتحدث عنه ، قد تظن أن حبها العميق لولدها قد تكون مخطئــة

فى ذلك الظن .

ولقد كانت « مسز رسكن » على حق حين قالت أن زوجها كان ينبغى له أن يتزوج أمه . ولم يكن فى وسع « لورانس » أن يصف هذا الموقف مثل ذلك الوصف الذى ينبض بالاحساس ، لو لم يكن يمسه هو من قريب .

على أن العلاقة بين الأم وابنتها تختلف عن ذلك من بعض الوجوه ، ويحدث أحيانا أن يبلغ من اشتداد الألفة بينهما أن تصير البنت — رغم زواجها — غير قادرة على أن تصبر عن رؤية أمها فى كل يوم . ومن الناحية الأخرى على أى حال ، فان تنافسا ينشأ بين المرأتين ، أما أن يكون سببه أن الأم لا تزال صغيرة السن ، ومحتفظة بجاذبيتها ومكتوية بنيران الغيرة ، واما أن يكون السبب هو أن الابنة تغار من أمها بدافع من قلة ثقتها بنفسها . وفى مثل هذه الحالات ، يكون من واجب المرأة الأكبر سنا ، أن تكتم مشاعرها .

والحب الأبوى يختلف عن ذلك تماما . والرابطة الطبيعية موجودة ، ولكنها ليست عظيمة القوة . ولقد وصف « بلزاك » فى قصته المعروفة « الأب جوريو » ، والدا يضحى بنفسه تضحية تامة فى سبيل أطفاله . ومع اننا لا ننظر بعين الاستنكار أو الدهشة الى مظاهر الحب الأبوى مهما بولغ فى ابدائها ، فانه يبدو لنا ان « جوريو » كان رجلا مريضا .

ونحن نعلم أن الآباء فى كثير من المجتمعات البدائية لا يكون لهم أى شأن بتربية الأطفال ، اذ يتولى أخوالهم أمر تربيتهم . وحتى فى الجماعات المتدينة التى فيها أرباب عائلات ، يوكل أمر تعليم صغار الأطفال الى المرأة . والطفل الصغير جدا ينظر الى الوالد نظرته الى المحارب

أو الصياد . وفى العصور الحديثة ، ينظر اليه باعتباره رجل الأعمال الذى يعود الى البيت لتناول طعامه ، وكله شواغل غامضة ، ومشروعات ، ومناقشات .

والوالد يتمثل فيه العـــالم الخارجى ، وهو الذى يشرف على أداء الأطفال لأعمالهم . وهو شخص لا يكاد يقنع بشىء ، لأنه فى معظم الحالات ، لم يظفر بالحياة التى كان يريدها ، ولهذا فهو يرجو أن ينجح أولاده حيث منى هو بالفشل . أما اذا كان هو رجلا ناجحا ، فانه يشتط اذ يتطلب أن يكون أولاده منزهين عن كل عيب أو نقص . ولما كان ذلك محالا ، فان حبه المسرف لهم لا يلبث أن ينقلب الى قسوة . وفوق هذا ، فانه يريد منهم أن يؤمنوا بما يؤمن به هو من المثل العليا ، وهم لا يفعلون ذلك الا نادرا . ويحدث فى بعض الاحيان ، فيما بعد ، أن ينشأ تنافس بين الوالد وولده ، على نحو ما يحدث بين الأم وابنتها : فالوالد لا يستطيع بسهولة أن يقنع نفسه بالتخلى عن ادارة أعماله ، بل انه ربما ساءه أن يجـــد ابنه أكثر منه كفاءة فى تلك الناحية . ومن الجائز أن تنشأ بين الوالد وابنته ألفة مماثلة لتلك التى تنشأ بين الأم وولدها ، وفى العالم الحديث نسخ مطـــابقة للأصل من « آنتيجون » ، مثل ابنة « تولستوى » الصـــغرى ، أو بنات بعض الرجال الرســـميين والسفراء ، الذين اتخذوا منهن سكرتيرات سريات . وهنا أيضا نجـــد حقيقة الحياة فى احدى القصص ، فان « الأب جراندى » كما صوره « بلزاك » ، قد أراد أن يورث ابنته ما فيه من شراهة ، وبعد وفاته ، كانت ابنته تشبهه فعلا .

وحين يلمس الوالدون المصاعب التى يواجهها أطفالهم فى اتصالاتهم الأولى بالحياة الحقيقية ، يتذكرون أخطاء

انفسهم ، ويتوقون الى حماية اطفالهم المحبوبين ، ويحاولون محاولات ساذجة أن يجعلوهم يستفيدون من تجاربهم . ولكن هذه التجارب يندر أن تكون ذات فائدة للآخرين على الاطلاق . فكل انسان يجب أن يعيش حياته الخاصة به ، والافكار تتغير بمرور السنين . وذلك النوع من الحكمة ، الذى يكتسبه الناس بفضل تقدم السن ، لا يمكن أن يكتسبه الشباب .

ولا يمكن أن تكون التجربة ذات قيمة الا اذا كانت قد جلبت الألم ، فترك الألم آثاره فى كل من الجسد والعقل معا . وليالى السهد ، ومصارعة الحقيقة ، تجعل من الساسة رجالا واقعيين . فكيف يمكن أن تعطى هذه التجارب اعطاء مفيدا ، شبابا مثاليا يعتقد أنه قادر على تحويل الكون دون أن يبذل فى سبيل ذلك أى مجهود ؟

ان نصائح « بولونيوس » كلها بديهى يشيع فيه الغباء، ولكن كلا منا حين يبدأ فى اسداء النصح ، لا يلبث أن يصبح هو « بولونيوس » . وهذه البديهيات الفجة تكون بالنسبة الينا حافلة بالمعانى ، والذكريات ، والتصورات . وهى بالنسبة لأطفالنا شاردة عن واقع الحياة ، وباعثة على الضجر . ونحن نتمنى أن نجعل من الفتاة ابنة العشرين ربيعا ، امرأة ناضجة الحكمة . وهذا مما يستحيل تحقيقه استحالة مادية .

قال « فوفينارج » ان نصائح السن المتقدمة ، كشمس الشتاء ، التى تمنح الضياء ولا تمنح الدفء . والشبان يثورون ، والكبار يصابون بخيبة الأمل ؛ ويسود جو من التوتر والتأنيب . ونحن الوالدين ، لا نشكو أبدا من حماقة الأطفال التى لابد منها .

وفي قصيدة من شعر « كوفنتري باتمور » سماها « اللعب » ، كان أحد الآباء شديد الصرامة مع ولده . فهو في المساء يذهب الى غرفة نوم الصبي ، فيجده مستغرقا في النوم ، ولكن أهداب عينيه لا تزال مبتلة من اثر الدموع . ويجد أنه قد وضع على مائدة مجاورة لفراشه ، في عناية وحذر ، حجرا فيه عروق حمراء ، وبضع صدفات ، وعدد من الزهرات الزرقاء في زجاجة ، وقطعتين من قطع العملة الصغيرة ، على أمل أن يتعزى في تعاسته برؤية الأشياء التي يحبها . وسذاجة الطفولة هذه التي تمس شغاف القلب ، لا تلبث أن تجعل الوالد يحسن فهم عقلية ولده ، ومن ثم يندم على قسوته .

وفي فترة مراهقة أطفالنا ، يجب أن نحاول استدعاء ذكريات فترة المراهقة التي مرت بنا ، والا نشكو ما لديهم من الأفكار والأحاسيس والحالات النفسية ، التي مصدرها فترة المراهقة . وهذا مطلب عسر . فنحن جميعا حين نكون في سن العشرين ، نقول : « اذا قدر لي يوما أن يكون لي أطفال ، فسوف أستطيع التقرب اليهم بحيث أكون لهم ذلك الأب الذي لم يستطع أبي أن يكونه لي » . ولكننا حين نبلغ الخمسين ، نكون أشبه بوالدينا الى حد بعيد ، أما أبناؤنا ، على نحو ما كنا نرغب كثيرا ، ومن غير فائدة أيضا ، فانهم يكونون أشبه بنا . على أن هذا يحدث بعد أن نمضي في سبيلنا ، ويصبح دورهم على ظهر البسيطة مماثلا للدور الذي لعبناه .

والانسان خليق أن يرى كيف تسفر هذه الاصطراعات والمضايقات جميعا عن وجود السن الحرجة . فالطفل الصغير الذي لم يشب عن الطوق يمر بفترة يمكن أن

نسميها « سن أرض الأحلام » ، حيث يكون الطعام ، والدفء ، واللهو ، أرباحا تمنحها آلهة مدبرة ، واكتشاف وجود العالم الخارجى ، وضرورة القيام بعمل ، يكون بمثابة صدمة تصيب أطفالا كثيرين . والطفل يتخذ له من زملاء المدرسة أصدقاء يرى العائلة بعيونهم . وهو يدرك أن الأشخاص الذين جعلهم موضع ثقتـــه على الدوام ، والذين كانوا ضروريين بالنسبة اليه مثل ضرورة الهواء والماء ، قد يبدو لأطفالهم أنهم مدهشون أو غير جديرين بالالتفات . وينشأ كثير من العلاقات الجديدة . وتفتر الروابط التى تصل بينه وبين عائلته ، ولكنها لا تنقطع أبدا . وفى تلك الفترة ، يتمتع الأشخاص الخارجون عن نطاق الأسرة بأعظم نفوذهم . وكـــذلك ينبغى أن تكون الحال . وفى هذه الفترة أيضا ينقلب الطفل الى ثائر ، ولكن والديه يجب أن يظلا على حبهما له .

ولقد نوهت بأن الحياة العائلية تصبح بمثابة أمر واقع ممل ، الا اذا تأثرت بالدين والفنون . ولما كان المراهق شخصا مثاليـــا على الدوام ، فانه تسوءه نصائح والده التى تشبه نصائح « بولونيوس » . وهو يصب اللعنات على العائلة وقوانينهـــا ، ويريد ما هو أكثر تمشيا مع العدالة . وهو يفكر فى الحب باعتباره شيئا عظيما وجميلا ، كما أنه يحتاج الى الصداقة والعطف . وذلك هو وقت العهود والافضاء بمصون الأسرار . وهو أيضا وقت خيبة الآمال ، لأن العهود لا تصان ، والثقات تخان ، والعشاق لا يستقرون على حال . وهو يريد أن تسير الامور على ما يرام ، ولكن الأمور دائما تنحرف عن السبيل التى يريد . ومن ثم تنبع سخريته من المثالية المكبوتة ، ومن اليأس بين أحلامه وبين الحقيقـة التى يلمسها فيمـــا حوله .

وهى فترة عويصة وفاجعة فى كل حياة ، والشبان لديهم أفكار كثيرة ، ولكنهم لا يحملون أية تبعات . فهم لا يجدون أنفسهم فى صراع يومى مع الناس والأشياء . وليست لديهم أسرة يعولونهـــا ، ولا أعمال يديرونها ، ولا أية مسئوليات نحو المجتمع . وهم يشغلون بالألفاظ والعبارات فحسب ، وهذا يعطيهم فكرة غير حقيقية عن الدنيا ، كثيرا ما تكون عالية التحليق فى سماء الخيال ، ولكنها على الدوام غير صحيحة . والنساء والمجتمع ، على بعد عظيم من تصوراتهم ، وهذا يجعلهم غير سعداء . ولكنهم لا يلبثون أن يودعوا عهد المراهقة ، ومن ثم يتولى الزواج وميلاد الأطفال تقوية ذكائهم الخطر الواهم ودعمه بمسئوليات الأسرة . وبعد مران شاق على حياة العائلة ، وكسب الرزق ، ومعايشة الناس ، يصبحون — رويدا رويدا — رجالا حقيقيين . ويصيرون قادرين على مساعدة أطفالهم المراهقين على اجتياز التجـــارب التى مروا بمثلهـــا .

ولهذه الأسباب يحسن قضاء الجزء الاكبر من السن الحرجة خارج محيط الأسرة . وبهـــذا يتم اكتشاف العالم الخارجى فى المدرسة ، ومن ثم تصبح الأسرة بمثابة بر الأمان اذا قورنت بما فى خارجها . فاذا أمكن تدبير ذلك ، كان من واجب الوالـــدين أن يتـــذكروا أيامهم الباكرة ، وأن يتسامحوا فى حكمهم على الأخطـــاء التى وقعوا فى مثلها من قبل . ويحدث فى بعض الاحيان أن يكون ذلك التسامح عسيرا على الوالدين ، فى حين يكون الجدود أقدر على فهم الجيل الناشىء ، لأن أعمارهم قـــد جعلتهم أقل تشددا ، فصارت عقولهم أكثر تحررا ، لأن زمنهم قد مضى .

ان فن الحياة العائلية على أعظم جانب من الأهمية . والأطفال الذين تشاء تربيتهم يمكن فى بعض الأحيان آن يعيدوا صب شخصياتهم فى قوالب جديدة . وقد يسفر أفتقارهم الى التوازن عن ظهور عبقريات . ولكننا نستطيع أن نضمن لهم حياة أسهل ، اذا عرفنا كيف نتيح لهم طفولة هادئة سعيدة . والطفولة السعيدة هى تلك التى يشرف عليها والدان يحبان أطفالهما حبا مترفقا حنونا ، ويفرضان عليهم نظاما دقيقا ، ويحرصان على المساواة الظاهرة بينهم . ولا سبيل هناك الى تجنب حدوث تغيرات قهريا فى فترات معينة ، وهنا ينبغى اسداء النصح السديد فى غير اسراف . وأبعد النصائح أثرا هو ضرب المثل الصالح . وأخيرا ، من الضرورى تجديد جو العائلة بالسماح لتيارات من هواء العالم الخارجى بأن تنفذ اليه .

ولابد الآن من توجيه سؤال أخير : هل الحياة العائلية مؤسسة مقدر لها البقاء ؟ اننى أعتقد أنها شىء لا يمكن استبداله بغيره ، لنفس السبب الذى يجعل من الزواج شيئا لا يمكن استبداله بآخر يعوض الناس عنه ، لانه يحول غريزة الفرد الى حساسية اجتماعية . واذا كان قضاء السنوات الباكرة بعيدا عن الاسرة فكرة طيبة ، فانه بالنسبة الى كل رجل تقريبا ، بعد قضاء سنوات فى التدرب على الحياة ، وفى المغامرات التى لا مفر منها ، تأتى الساعة التى يعود فيها وهو قرير العين الى تلك العواطف الطبيعية . وبعد انفاق أيام عصيبة فى عالم قليل الاكتراث ، أو حافل بضروب القسوة ، يسعد التلاميذ ، والفلاسفة ، والوزراء ، والجنود أن يرتدوا أطفالا ، أو آباء ، أو جدودا ، أو مجرد رجال ، حيث يجلسون الى مائدة العشاء بين افراد الاسرة .

فن الصداقة

تختلف روابط الصداقة كثيرا ، عن تلك الروابط التى تصل ما بين الزوجين ، وبين الاسرة وان كانت لا تقل عنها أهمية فى حياة المجتمع . والأحاسيس الفكرية تحتل مكان الصدارة فى الصداقة ، وتسيطر على الأحاسيس الفريزية . فما هو السبب فى أن هذه الأخيرة غير كافية ؟ ألا تسمح الأسرة للجميع بأن يعثروا — بأقل صعوبة ممكنة — على الرفقاء الذين يحتاجون الى وجودهم أثناء رحلتهم عبر الحياة ؟

الجواب على هذا السؤال هو أن عددا كبيرا من الناس يعيشون طول حياتهم وهم يجهلون أمر الزواج . ومعظمهم لم يدرس موضوعه على الاطـــلاق . وبعضهم يهرب منه عامدا . وأنا أعتقد أن الحقيقة هى أن عدد النساء فى العالم يزيد قليلا عن عدد الرجال ، ومن ثم لا تتاح لهن فرصة اختيار الأزواج . والى جانب هذا فان هنـــاك نساء ورجالا يبلغ من تمسكهم بآرائهم انهم لا يقدمون على الزواج لمجرد الرغبة فى الزواج . لأن لديهم أفكارا وأذواقا خاصة مقررة ، اذا حان الوقت لاختيار شريك الحياة . ويخيل لمعظمنا أن من المستحيل أن يقضى أحد حياته دون لقاء رجل واحد أو امرأة واحدة — على الأقل — يمكن

أن يتحقق معه أو معها اقتران سعيد .

ومهما يكن من شيء ، فهناك أشخاص معينون يعيشون بمعزل عن العالم الى درجة أنهم لا يلقون أحدا . كما أن هناك آخرين قد سادت حياتهم أجواء من العداوة والبغضاء ، فهم دائما ممتعضون غير راضين . هذا فضلا عن وجود أشخاص غير هؤلاء وهؤلاء ، قد أعرضوا عن الزواج بسبب ما تعرضوا له فى بواكير أيامهم من الوهم ، أو الخوف ، أو النفور الجنسى ، أو بعض العقد النفسية الغامضة . ورابطة الزواج تتطلب شجاعة . والواجب أن يقذف الانسان بنفسه الى الزواج كما يقذف السباح بنفسه الى البحر ، وتلك شجاعة لا توجد لدى كل الناس .

والرغبة فى الزواج تشتد فى بعض الأحيان ، غير انه يتضح أن الشخص الذى وقع عليه الاختيار ، قد رسم لحياته طريقا آخر . وهناك تلعب الكبرياء ، أو الأسف ، أو الحقد ، أدوارها . وتنقضى الحياة بأسرها فى اخلاص موحش لعاطفة لم تظفر بما يرضيها . ويجىء الوقت الذى تصبح فيه هذه الذكرى الراسبة فى الأعماق رسوب الدين ، مجرد نحلة جوفاء . على أن السيف يكون قد سبق العدل ، لأن الشباب قد ولى ، بما فيه من قابلية الملاءمة ، وبما يتاح له من فرص الغزو .

والنجاح فى الزواج يستلزم كثيرا من التسامح . وبطريقة طبيعية يصبح الأعزب معتادا ، الى درجة تزيد عما ينبغى ، لحياة الوحدة ، بحيث لا يعود فى وسعه أن يحتمل اى نوع آخر من الحياة ، ويصير فى غير استطاعته أن يجعل من نفسه زوجا سعيدا ، حتى لو أراد ذلك .

ومن المحـــال أن يتصور الانسان « ستندال » رجلا متزوجا .

والحياة يجب أن يكون فيها حلول أخرى لأمثال هؤلاء الناس . فأين يستطيعون أن يجدوا الوسيلة التى تمكنهم من الخروج من عزلة تامة غير انسانية ، ويحتمل أن تؤدى بهم الى الجنـــون ؟ وهل تستطيع عائلاتهم تهيئة تلك الوسيلة ؟ ولكننا شرحنا السبب فى أن العائلات لا تعير نفسها للنمو المتحرر للـكائنات البشرية . والتورط فى محيط الأسرة ، عقبة فى سبيلها .

ومن السهل أن تتصور كهلا أعزب لا ملجأ له سوى ذلك الذى تستطيع أن تقدمه له عائلته . وفى قصة « ابن العم بون » تصوير لمثل تلك الحالة ، وان كان « بلزاك » قد شرح الى أى درجة يمكن أن تكون تلك الرابطة من عدم الاستقرار ، والى أى حد يمكن أن تكون غير مرضية . فلقد تم انقاذ « بون » بفضل الصداقة وحدها .

وحتى بالنسبة الى أولئك الذين أنشـــأوا أسرة ، وبالنسبة الى الزوج والزوجة اللذين يحب كل منهما الآخر حبا صادقا ، والأطفال ، الذين يعيشون فى صفاء مع والديهم ، وبالنسبة الى « دون جوان » أيضا ، بعشيقاته الثلاث بعد الألف ، لابد من وجود شىء آخر الى جانب هذا .

ونحن كثيرا ما نجد أنفسنا غير قادرين على التحدث عن أقرب شىء الى قلوبنا مع عائلاتنا أو مع الاشخاص الذين نحبهم ، لأن الروابط العائلية من الدم ، وليست من العقل ، ولأن العاطفة تعطى بسهولة متناهية ، ولأن كلا من الشخصين المتحـابين انما يقوم بتمثيل دوره . وهكذا نجد أن فى عقول الجميع ــ الأطفـــال ، والأب ،

والأم ، والزوج ، والزوجة ، والعشق ، والعشيقة ـ شكاوى لا يتحدث عنها أحدا .

وهذه الأحاسيس المكظومة المكبوتة تسمم عقول الأشخاص الذين يحاولون اختبار أفكارهم ومشاعرهم ، كما تتسمم الانسجة نتيجة لوجود أجسام غريبة يحتوى عليها بعض الجروح . ومن واجب هؤلاء أن يتحدثوا ، ويفتحوا عقولهم ، ويكونوا على سجيتهم من الناحية الروحية ومن الناحية التى تكاد تكون جسدية تماما فيما يعنى محيط العائلة ، أو الحب .

ويجب الافصاح عن الاحاسيس الخفية أو الثائرة ، وتنبغى مناقشتها مع أصدقاء حميمين حتى لو رفضوا النصيحة ، فانهم سيفضون بما يكتمونه من سوء النية والحقد . فهناك حاجة ماسة الى رابطة أخرى غير رابطة الحب . كما أن هناك حاجة الى جماعة أخرى من الناس، غير جماعة الاسرة .

***

كيف تولد الصداقة ؟

ان الحب الجنسى يمكن تعليله بسهولة . فالنظرة واللمسة ، واللقاء بمحض المصادفة ، قد ينجم عنها اعجاب ورغبة . والحب يبدأ بالحب . وأعمق الحب وأصدقه ، هو عادة ما يجىء فجأة ودون مقدمات .

تقول « جولييت » : تعالى أيتها المرضة . من هذا السيد الذى هناك ؟ انه اذا كان متزوجا ، فان قبرى سيكون أشبه بمخدع عرسى .

وليست للحب علاقة تكاد تستحق الذكر ، بالقيمة الاخلاقية ، ولا بالذكاء ، ولا حتى بالجمال الذى يتمتع به

الشخص المحبوب . ولقد كانت « تيتانيا » تشعر بأرق الأحاسيس نحو « بوتوم » الذى كان له رأس حمار . والمثل السائر الذى يقول « ان الحب أعمى » ، انما هو بديهية لا حاجة الى التنويه بها ، ولكنه حقيقة جوهرية أيضا . وغراميات الآخرين يشوب بواعثها الغموض على الدوام . وعبارة : « ماذا تستطيع أن ترى فيه ؟ » هى سؤال توجهه كل امرأة عن كل امرأة أخرى . ولكنه بالنظر الى أن الشعور تغذيه الرغبة ، يزدهر فى التربة التى يبدو لعابر السبيل أنها قاحلة .

وميلاد الصداقة أكثر بطئا . وهى فى مراحلها الباكرة تبدو كأنها نبات غض الى أبعد حد ، حتى ان الحب قد يخنقه وهو ينمو ويترعرع بجوار ساقه الشاحبة الضعيفة . ويقول « لاروشفوكو » ان النساء قليلات الميل الى الصداقة . لأن الصداقة لا طعم لها اذا قورنت بالحب . لا طعم لها ! كلا . بل هى واضحة فى مراحلها الأولى وضوحا مؤلما . وعمى « تيتانيا » لا يؤثر على أولئك الذين ينشدون الصداقة . لأن رأس الحمار عندهم هو رأس الحمار . وكيف يستطيع الانسان ان يحب شخصا له رأس حمار ؟ وكيف يمكن أن تنشأ رابطة الصداقة الوثيقة ، بين شخصين يتضح كل الوضوح ، أن احدهما لا يشعر بالجاذبية الجسدية نحو الآخر ؟ .

وهذه الرابطة الوثيقة تكون فى بعض الحالات طبيعية تماما . وذلك لسبب بسيط ، هو أن الشخص الذى يتم اللقاء به يملك من المواهب النادرة ما يدرك حقيقته الشخص الآخر . وهناك صداقة من أول نظرة : كالحب من أول نظرة حيث ينجم عن كلمة ، أو ابتسامة ، أو نظرة ، اماطة اللثام عن روح متآلف . والعمل الجميل يؤكد لنا

اننا قد اكتشفنا شخصية نبيلة .

وهكذا تبدأ الصداقة بالصداقة ، كما يبدأ الحب بالحب . وهذه الصداقات المفاجئة يمكن أن تنشأ ، حتى اذا كان الصديق المختار لا يمتاز بشيء من المواهب العالية، لأن التقدير نسبي في جميع الاحوال . ويحدث أن تصير فتاة صديقة لأخرى لا تكاد تفارقها ، ومستودعا لأسرارها أيضا ، فجأة ودون مقدمات . في حين تكون عند فتاة ثالثة ، مكروهة الى أبعد حد . ففي الحالة الاوى ، ينجم عن محض المصادفة والاتفاق ، أن يزاح الستار عن وجود انسجام بين الفتاتين ، ومن ثم تنشأ الصداقة .

وفيما عدا الحالات الشاذة ، لا يحتمل أن يسفر مثل ذلك اللقاء العارض عن صداقة دائمة ، الا في النادر القليل ، والزواج يدعم اركان الحب في أحيان كثيرة . أما الصداقة في أولى مراحلها ، فانها تستفيد أيضا من بعض أنواع ضبط النفس . فالكائنات البشرية من طبعها الكسل ، وكثيرا ما يمل الانسان شعورا حديث الولادة ، بغير سبب معقول ، الا اذا كان هناك شيء من ضبط النفس يقوى ذلك الشعور ويدعم كيانه : « انه يكرر نفسه .. انها تروى نفس القصة مرة بعد مرة .. انها تتأخر عن موعد حضورها دائما .. انه كثيرا ما يثير الضجر في نفسي .. انها لا تكف عن الشكوى » . في مثل تلك الحالات يكون ضبط النفس ضروريا لا غنى عنه . وفي الكليات الجامعية ، والمجتمعات الخاصة ، والجيش ، والبحرية ، ومطاعم الضباط في زمن الحرب ، وعلى موائد الطعام التي يتردد عليها ويلتقي موظفو المدن الصغرى يوميا ، وفي النادي ، يوجد في كل تلك الجماعات نوع من الالتزام العائلي على جانب ملحوظ من الفائدة .

فالناس مضطرون الى ان يعيشوا معا ، وهذا يجعلهم اقدر على أن يقدر بعضهم بعضا . ومن ثم ينتهى بهم الى احتمال كل منهم للآخر .

ومهما يكن من شيء ، فان هذه الصداقات العارضة ليس من الضرورى أن تكون صداقات حقيقية . ويقول « آبيل بونار » فى هذا المعنى « نحن نتعزى بوجود عدد من الاصدقاء ، عن عدم عثورنا على صديق حقيقى واحد » . والصداقة الحقيقية لا يتطرق اليها اى شك فى الاختيار الذى روعى فيه مزيد من التأكد . ولقد كان « مونتانى » يخص « لابواتى » بمزيج من الاحترام العظيم والحب . وليس فى مقدور كل النساء وكل الرجال أن يتفانوا على هذا النحو فى أولئك الذين يحترمونهم . وبعض الناس تستبد به الغيرة ممن يفضلونهم حتى انهم يكونون أكثر انشغالا بكشف أخطاء الشخصية التى تفوقهم نبلا ، منهم بمحاكاة فضائلها . كما أن بعض الناس يخشون الرأى الصادر عن عقل راجح نير ، ويفضلون صداقة شخص أقل تشددا فى طلب الكمال .

« ان الرجل اللائق للصداقة ، هو ذلك الذى لم تثر الناس فيه شعورا بالاشمئزاز من الجنس البشرى . والذى يعتقد ويعلم بوجود قليل من الرجال النبلاء ، وقليل من العقول العظيمة ، وقليل من الأرواح السارة المبعثرة بين الزحام ، لا يمل البحث عنهم ، ومن ثم يحبهم حتى قبل أن يعثر عليهم » . وأحب أن أضيف الى كلمات « بونار » هذه ، أن قليلا من نواحى الضعف اللطيفة ، اذا أضيف الى تلك المواهب السامية ، فانما ينمى حبنا لشخص ما بدلا من أن يحول دونه . ولا يمكن ان نكون مضمرين الحب

الـكامل ، لأولئك الذين لا نستطيع أن نبتسم لهم . على أن هناك شيئا غير انسانى فى الكمال المطلق يحير العقل والقلب ويطالب بالاحترام ، ولكنه لا يسمح للصداقة بأن تقترب كثيرا ، وذلك بفضل ما يعمد اليه من وسائل الزجر والتعذيب . ونحن نفرح دائما حين يؤكد لنا احد العظماء انسانيته ، بالكشف عن بعض نواحى الشـــذوذ فيه .

وعندها قد تميط الكلمة او النظرة العابرة اللثام عن تشابه فى الشخصية والذكاء . وضبط النفس ، وقـوة الارادة ، يسمحان لهذا التعاطف المبكر بأن ينمو ويشتد ساعده ، ويتم تبادل الثقة . وسرعان ما نكتسب من حرية الفكر مع هذا الغريب عنا نسبيا ، ما يزيد كثيرا عمـــا يتاح لنا مع أولئك الذين تصل بيننا وبينهم روابط الدم ، أو الحب الجسدى .

ومن الخير هنا أن نسأل أنفسنا : ماذا يميز بصورة أدق ، بين الصداقة ــ وهى عاطفة لا تقل نبلا عن الحب الملتهب الى اقصى حد ــ وبين مجرد الزمالة ، وهى أكثر تفاهة وأقل اكتمالا ؟ .

يقول « لاروشفوكو » : « ان ما يسميه الرجال صداقة، ليس سوى اتصال اجتماعى ، وتبادل خدمات ومنافع . وهى تصل الى حد أن تصير صفقة تجارية يتوقع تقدير الانسان لنفسه أن يربح فيها » . ولقد كان «لاروشفوكو» ساخرا فيما قال : أو على الأقل ، كان يجب أن يظن نفسه كذلك . ولقد شرح هنـــا بدقة ما هو الشىء الذى ليس بالصداقة فى العلاقات بين الرجال : صفقة تجارية ؟ كلا ، فالصداقة لا يمـــكن أن تكون كذلك ابدا . بل الأمر على

العكس من ذلك ، لأنها تنطوى على انتفاء الأغراض تماما .

ونحن لا يمكن أبدا أن نتخذ صديقا من رجل يبحث عنا حين نكون قادرين على أداء خدمة له ، ثم يهملنا بعد أن يتم أداؤها .

وليس من السهل دائما أن نشتم وجود الغرض فى نفوس الآخرين ، لأن المغرضين من الناس يتقنون اخفاء أغراضهم . ولقد ترامى الى سمعى الحديث الآتى مرة من المرات :

قال الزوج : « كونى لطيفـــــة بنوع خاص مع أسرة (س) » .

وأجابت الزوجة بقولها : « لماذا ؟ انهم قوم يبعثون على الضجر الى أبعـــد حد ، وأنت لست فى حاجة اليهم » .

وقال الزوج : « لا تكونى غبية ، اننى سأكون فى حاجة اليه عندما يعود الى الوزارة ، وهو متأكد من هذه العودة ان عاجلا وان آجلا ، وسيكون تقـــديره لاهتمامنا أعظم ، حين لا يكون فى منصبه » .

ووافقت الزوجة المعجبـــة قائلة : « أنت على حق ، فسوف يبدو ذلك الاهتمام من جانبنا عملا ينطوى على مزيد من المودة » .

ولقد بدا فعلا أن ذلك الاهتمام فيه مزيد من المودة ، ولكنه لم تكن صداقة . وفى كل مسالك الحيـــــاة ، من الطبيعى أن يدوم هذا النوع من المعاملة بين الرجال الذين يمكن أن يتبادل بعضهم المنافع مع بعض . وهناك تقـدير متبادل ، وخوف متبادل . والذين يتبادلون الخدمات

يسجلونها تسجيلا : « سوف أعينه سفيرا : وسوف تكف صحيفته عن مهاجمتى » .

ولا شأن للصداقة بمثل هذا التعامل . ويجب على الصديقين بلا شك ، أن يساعد كل منهما الآخر كلما سنحت الفرصة . ولكن مثل هذه الخدمات يجب أن يؤدى بصورة طبيعية تدفع به الى زوايا النسيان . فاذا لم يكن نسيانه ممكنا ، وجب اعتباره شيئا لا أهمية له . وهنا لا ينبغى أن يكون ثم موضع للرضا عن النفس . والطبيعة الانسانية تجعل منظر ضعف الشخص الآخر يوقظ — حتى فى خير الناس — شعورا بالقوة ، يجمع بين أصدق الرثاء وبين مزيج من الاحساس بالاغتباط لا يكاد يدركه الانسان .

يقول « لاروشفوكو » صادقا : « اننا نجد دائما فيما يحل بخير أصدقائنا من النكبات ، شيئا لا نشعر نحوه بالاستياء » . وفى كتاب الريف ، يقول « موريال » : « اننا نتوق دائما الى مساعدة من يخونهم الحظ . ولكننا لا نحب احتفاظهم بساعة الحائط فى غرفة الجلوس » .

وكثيرا ما يقال اننا فى أوقات الرخاء نحظى بأصدقاء كثيرين ، واننا فى زمن الشدة يكون نصيبنا الاهمال . وأنا لا أوافق على هذا ، فالأمر لا يقتصر على تجمهر الأخساء اللؤماء حولنا كى يشهدوا ما حل بنا من الخراب . بل ان تعساء آخرين يحذون حذوهم . فبعد أن كانت سعادتنا تحول بينهم وبيننا ، قد أصبحوا الآن يشعرون بأنهم صاروا أقرب الينا ، بسبب ما نعانيه من متاعب ، ولما كان الشاعر « شيللى » فقيرا مغمورا ، كان لديه من الاصدقاء أكثر مما كان لدى الشاعر « اللورد بيرون » وهو فى قمة

مجده . والانسان لابد أن يكون على قدر عظيم من النبل، كى يستطيع أن يصادق سعداء الحظ ، دون أية شائبة من الاغراض والغايات الشخصية .

وانعدام الأغراض والأهواء الشخصية ، من المميزات الضرورية للصداقة الحقيقية . ومن واجب الصديق أن يعمد الى الحدس والتخمين فى معرفة مشاكل صديقه ، وأن يبذل له العون قبل أن يطلب منه صديقه عونا . واذا كانت لأصدقائنا حاجات نستطيع قضاءها ، فمن واجبنا أن نعفيهم من ضرورة طلب العون منا . وفضلا عن الرضا الذى يسفر عنه العمل عادة ، فان هذه المقدرة الدائمة على منح السرور قد تكون هى الميزة الوحيدة للثراء والقوة .

ومن مميزات الصداقة كذلك ــ فيما أعتقد ــ تبادل الاعجاب . ولعلك تقول « ولكن لى من الأصدقاء من لا يحوزون اعجابى . ومع هذا فاننى احبهم برغم ذلك ، ولا أتورع عن أن أقول لهم بصراحة اننى غير معجب بهم » . وهنا خلط يحتاج الى مزيد من الغوص الى أعماق الحقيقة . فنحن جميعا لنا أصدقاء نجابههم بالحقيقة القاسية . والواقع أنه لا يمكن أن تكون هناك صداقة حقيقية بغير هذا النوع من الاخلاص ، ولكن اذا كنا نستطيع احتمال النقد من صديق ، فى حين أنه لو جاء من سواه لأشعل فينا نيران الغضب ، أو ليس السبب فى ذلك هو أننا نعلم ما يكنه لنا من اعجاب جوهرى ؟ وأنا لا أعنى أنه يظن أن فينا كل الفضائل ، او أننا نمتاز بذكاء خاص . فالأمر أشد تعقيدا من ذلك . فاننى أعنى أنه قد درس أخطاءنا وصفاتنا الحميدة ثم وقع اختياره علينا ، والأحسن من هذا أنه آثر تفضيلنا على غيرنا .

ومن الأهمية بمكان عظيم ان ندرك أن الاخلاص ممكن لسبب واحد ، هو هذا الاعجاب . ونحن نتقبل أى نقد من ذلك الشخص الذى يحبنا أو يعجب بنا ، لأن ذلك لا ينال من الثقة بالنفس التى بغيرها تصبح حياتنا شيئا لا يحتمل . وكان هذا وحده سببا فى نشوء صداقات عظيمة بين عدد من الكتاب . فلقد نقد « لوى بويليه » كتابات « فلوبير » نقدا مخلصا ، ولكن « فلوبير » لم يغضب لذلك النقد لأنه كان يعلم أن « بويليه » يعتبره أستاذا .

ولتتول السماء حمايتنا من « الصديق المخلص » ، الذى يتكون اخلاصه من شىء واحد هو تكدير خاطرنا ، والذى يحرص على تحذيرنا مما يقال عنا من أحاديث الشر ، ويبدو أنه مصاب بصمم غريب لا يسمح له بأن يسمع ما يقال عنا من أحاديث الخير .

ولتحمنا السماء أيضا من الصديق الذى يستاء بسهولة ، والذى يرفض أن يضع نصب عينيه على الدوام أننا متعلقون به ، ولكن الحياة قصيرة وصعبة ، والكائنات البشرية متقلبة الأهواء ، ومن ثم يظل يراقبنا دون كلل، على أمل أن يفسر كل بادرة من بوادر نفاد الصبر او انحراف المزاج بأنها نذير .

على أن الشخص الذى يستاء بسهولة لا يمكن أن يتاح له أصدقاء حقيقيون . والصداقة الحقة ، تعنى الثقة الكاملة ، التى يمكن منحها الى أبعد حد ، أو الضن بها الى أبعد حد . واذا لم يكن بد من أن تكون الصداقة باستمرار موضوعا للتحليل والرعاية والعلاج، فانها تسبب فوق ما يسببه الحب نفسه من العذاب ، دون أن يكون

فيها مثل ما فى الحب من القوة والاسعاد . أما اذا وضعت هذه الثقة فى غير موضعها ! فلا بأس . انني أفضل أن يخونني صديق زائف ، عن أن أخدع صديقا صدوقا .

هل الاعتماد الكامل يقتضي تبادل الثقة تماما ؟ انني أعتقد أن الصداقة الحقة لا يمكن أن يكون لها وجود بغير ذلك . وقد قال « يونج » ان من أهداف الصداقة اعادة ادماج الأفكار والمشاعر المكنونة مع الاتصالات الاجتماعية العادية . وكيف يمكن أن تكون لاعجاب الصديق أية قيمة ، اذا كان من آثار ذلك الاعجاب هو « أنا » الزائف وليس أنا الحقيقي ؟ وحتى يستطيع اثنان من الناس ، التعمق الى مستوى ذكريات الأحلام ، فان حديثهما يكون غير ذي موضوع فى حقيقته ، ولا يلبث أن يدركه ذبول الفناء . فى حين أنه بمجرد أن يبلغ البحث العميق الكافي ، فسرعان ما تنبعث الثقة . ولا شيء أبعث على الغبطة من الانتباه — أثناء حديث ممل لا حياة فيه حتى ذلك الحين — الى تلك الحيوية المتزايدة شيئا فشيئا . ومن الناحية الأخرى ، فان المحافظة على الثقة مطلب عسر ، وصواب الحكم لا يكتسب بسهولة . ومن اليسير أن تكون مركز اهتمام جماعة ما ، بافشاء حقائق غير معروفة . واذا لم يكن لدى الانسان ما يقوله من عندياته ، استبد به اغراء شديد كي يدهش الناس بسر خفي يفضي به اليهم . وبهذه الطريقة ، تخان الثقة من غير قصد .

قال « باسكال » : « لا يوجد انسان يقول عنا فى حضورنا ما يقوله فى غيابنا ، وجميع المشاعر الودية

اساسها هذه الخديعة المتبادلة ، وما أقل الصداقات التى كان يمكن أن تستمر ، لو أننا علمنا ما قاله أصدقاؤنا من وراء ظهورنا » .

وقد أشار « بروست » الى مدى ما كان يمكن أن يتملكنا من الدهشة لو أننا نظرنا فى لمحة خاطفـــه الى صورتنا كما تبدو فى عقول الآخرين . ولا بأس بأن أضيف الى هذا قولى : فى عقول أولئك الذين يحملون لنا الود . وكثيرا ما ينفصل أقرب الأصدقاء بسبب واحد هو مجرد الأقاويل التى يتخرص بها قالة السوء ، والتى تكون صحيحة فى بعض الاحيان ، ولكن طائشة على الدوام .

ويحدث أحيانا أن تكون الأسرار خفية وهامة الى أبعد حد . حتى انه لا ينبغى أن يؤتمن عليها أحد سوى أولئك الذين يعتبرونها من أسرار المهنة : مثل القسس والأطباء . وقد يحق لى أن أضيف اليهم الكتاب القصصيين ، وهم كثيرا ما يتوخون حسن التقـــدير ، حين يضعون ما يسمعون من أسرار الناس فى مؤلفاتهم ، فى صـــورة تختلف عما سمعوه .

ومن الواجب أن نعامل بمنتهى القسوة ، أولئك الذين يخبرون الناس بما ســـمعوه من غيرهم . فالأحاديث المكذوبة أو الصحيحة ، قد تسبب الألم ، وقد تفرق بين الأصدقاء . وهناك قاعدة مثلى ينبغى اتباعها هنا : لا تخاصم من قيل عنه أنه خاض فيك ، بل خاصم من نقل اليك ما قال ، ولا سيما أنه ليس هناك سبيل للتأكد من أنه قاله .

وكذلك ينبغى علينا أن ندافع عن أصـــدقائنا فى كل الحالات ، لا بانكار شهادة الشهود ــ فليس أصدقاؤنا

قديسين . وربما كانوا قد اخطأوا بل قارفوا أخطاء جسيمة ـ بل بتوكيد كل احترامنا لهم فى شجاعة فائقة. وأنا أعرف سيدة كلما هوجمت احدى صديقاتها الحميمات فى حضورها ، لا تزيد عن أن تقول : « انها صديقتى » ، وترفض أن تقول أكثر من هذا . وهذا فيما أعتقد ، حكمة لا يتطرق الشك الى حقيقتها .

والصداقة ـ كالزواج ـ معناها عهد عبر عنه « آبيل بونار » بقوله : « ان الصداقة هى اختيار أكيد لا يتغير لشخص اصطفيناه لأنه يملك صفات تحوز مزيدا من اعجابنا » . على انه لا ينبغى أن يكون هناك أى اشتراط . فاذا نشأت الصداقة وجب على الصديقين أن يظلا كذلك على الدوام . ولكن داعية من دعاة الأخلاق والمبادىء لن يلبث أن يهتف بقوله : « وماذا عسى أن يحدث ، اذا أثبت صديقك أنه لا يستأهل صداقتك ؟ هل تظل تحبه اذا ذهب الى السجن ، أو الى المقصلة ؟ » بكل تأكيد !اقرأ فى قصة « ستندال » ، « الأحمر والأسود » ، عما حدث لصديق « جوليان » المدعو « فوكيه » ، والذى ذهب معه الى المقصلة ... أو اقرأ قصيدة « كبلنج » التى عنوانها « الرجل الألف »، والتى يقول فيها :

أن تسعمائة وتسعة وتسعين رجلا .
لن ينتظروا الوقت المناسب ..
للخجل ، أو السخرية ، أو الضحك .
ولكن الرجل الألف سيقف بجانبك .
عند وصولك الى المقصلة ... وبعد ذلك ! .

وانى لأعتقد أننا لا نحتاج الى أكثر من تأمل الحياة ،

كي نقتنع بأن النساء يمكن أن يصبحن صديقات . على أنه ينبغي التنويه بأن الصداقات بين الفتيات الشابات تتمخض عادة عن مشاعر حقيقية ، تزيد في عنفها عن عواطف الشبان . كما أن فيهن عنصرا من التآمر والتحالف السري يقف في مواجهة كل الاعداء . وهنالك أعداء مختلفون فالأسرة في بعض الاحيان ، والرجال في أحيان أخرى ، يعتبرون كجنس معاد يشعر ازاءه الجنس الأضعف بضرورة تكتل القوى . كما أنه يحدث في بعض الأحيان أن يكون العدو جماعة اخرى من الفتيات . وهذه الحاجة الى التآمر وتبادل المساعدة ، مرجعها الى شدة ضعف الأنثى المراهقة ، والى ما تعرضت له من شدة الكبت زمنا طويلا . وفي القرن التاسع عشر ، لم تكن تستطيع أن تذكر في محيط العائلة شيئا من الأشياء التى تشغل فكرها باستمرار . ولهذا كان عليها أن تتخذ لها فتاة تجعلها موضع أسرارها .

والزواج الناجح يضع حدا للصداقات النسائية . ولكن الزواج اذا فشل ، فان الزوجة الشابة يتعين عليها ان تفضي باسرارها الى امرأة أخرى . ومن ثم ينبثق التآمر من جديد ، لا ضد الأسرة ، بل ضد الزوج . والكثيرات من الزوجات يبقين طول حياتهن مخلصات لفكرة الاتحاد بقصد الدفاع عن أنفسهن ضد قبيلة الرجال الخطرة . وهذا الاتحاد يصبح لا اثر له بغير شك حين تتنافس امرأتان في حب رجل واحد . ويجب أن يكون لدى المرأة نبل روحي عظيم ، وايمان وطيد بأنها سعيدة الحظ ، كي تستطيع أن ترضى دون تحفظ ، عن سعادة صديقة لها مع رجل كان من الممكن أن تمنحه هي حبها . وبعض النساء ، بسبب مركب النقص بلا شك ،

لا يمكنهن أن يشهدون مثل هذه الحالات دون أن يرغبن على الفور فى القضاء عليها لمصلحتهن الخاصة . فهن يرغبن فى الحصول على الرجل لا من أجل نفسه ، بل لكى يثرن غيظ المرأة الأخرى .

على أن من الجائز أن تنشأ أصدق الصداقات وأصفاها بين النساء الموفورات الحظ من الثقافة . ولقد نشأ مثل تلك العلاقة بين مدام « دى لافاييت » ومدام « دى سيفينى » ، من عهد المراهقة حتى آخر أيام الحياة ، دون أن يطرأ عليها أى انقطاع أو فتور . ولم تكن هناك أية خلافات سوى تلك التى كانت تحاول فيها كل منهما أن تثبت للأخرى أيتهما أكثر حبا لصديقتها .

والعائلات تغار كثيرا من الصداقات بالغة الوثاقة ، وهذا أمر واضح لا يصعب فهمه . فالصديق مستودع الأسرار لا مناص من أن يكون موضع عداء الأسرة . ولقد قيل دائما ان المرأة متى تزوجت ، أفسدت ما بين زوجها وبين أصدقائه . على أن هناك نوعا من الاحاديث المقصورة علي الرجال يقرب ما بينهم دائما ، ويثير الضجر فى نفوس النساء ، ويتيح للصداقة أن تثأر لنفسها بأساليب مستغربة .

***

وكثيرا ما قيل ان الصداقة بين الرجل والمرأة لا يمكن أن ترتفع الى مستوى الصداقة بين الرجال . وقد اعترض بعضهم على هذا بقوله : وكيف يمكن الا يكون لمسائل الجسد وجود فى مثل تلك العلاقات ؟ واذا هى لم توجد ، أفلا تكون أقل النساء جدارة بوصف « اللعوب » ، جديرة بأن تشعر بأنها أهينت ؟ انه ليس

طبيعيا أن يتصل رجل بامرأة اتصالا طليقا على نحـــو ما يحدث عادة فيالصداقة ، دون أن يشعر أحيانا بوجود رغبة الجسد . فاذا هو شعر بها فان جهاز المشاعر كله لا يلبث أن يتحرك .

وحين يعزم رجل على غزو امرأة ، يختفى اخلاصه . حيث تتسلل الغيرة ، وتفسد ما لا غنى للصداقة عنه ، من الهدوء والسكينة . والصداقة تعنى الثقة الطبيعية، والمشاركة فى الأفكار ، والذكريات ، والآمال . أما فى الحب ، فان الرغبة فى ارضاء الحبيب تحتل مكان هذه الثقة ، وتصب الأفكار والذكريات فى مصفاة منالعاطفة الواعية . والصداقة تعيش على الأمن ، وحسن التقدير، والكياسة . أما الحب فيعيش على القوة ، والغبطة ، والخوف . « فى الحب ، يعفو الانسان عن الاستهتارات المؤذية ، أكثر مما يعفــو عن الخيانات الضئيلـــة » . والسكينة الوادعة التى هى أعظم مميزات الصداقة ، يحتل مكانها فى الحب خوف دائم من فقد المحبوب . وماذا يعنى الرجل وهـــو فى نوبة من نوبات « الحب العظيم » ، من أمر الانسجام الفكرى والتفــــــاهم المتبادل ؟ ان هذه الأشياء تعنى أولئك الذين لم يعرفوا الحب ، أو الذين نفضوا من الحب أيديهم .

ونحن نعرف قصصا من التاريخ نشأت فيها صداقات نقية بين رجال ونساء . وسيوافق المعترض على هذا . ولكنه لن يلبث أن يصرح بأن تلك الحالات يمكن تقسيمها الى ثلاث شعب غامضة خادعة : الأولى تضم الخياليين ممن اكتووا بنار الحب ، الذين يقبع غرامهم اليائس سجينا فى غيابة العاطفة . وقد كتب « بروست » عن

اولئك المستضعفين الذين تعرفهم النساء على الفور ، وبفضل قليل من الكلمـــات الودية ، والايحاءات التى لا تضر ، يبقينهم فى حالة من الاعجاب الطيع بقصـــد الاحتفاظ بصحبتهم . وهن ينادين هؤلاء الرجال بأسماء التدليل ، ولـكنهن يضحين بهم دائمـــا فى سبيل عشاقهن .

ويحدث أحيانا أن تكون المرأة ايضا شديدة الانسياق لعواطفها وخيالاتها . ومن ثم تنشأ صداقة غرامية . وفى قصة حياة مدام « ريكاميه » مثل حى لمثل تلك الحالة . وهذا النوع من الصداقة ، بسبب الشبه الزائف بينه وبين الحب ، يكون على الدوام عرضة لأن يقع فيه رجل من نوع « شاتوبريان » ، كما أنه يكون ــ حتى ينتهى أجله ــ غير جدير بالاهتمام .

وفى الحلقة الثانية من هذا التطهير العاطفى، نجد رجالا تقدمت بهم السن ، ينشدون فى الصداقة ملجأ أمينـــا لأنهم لم يعودوا فى سن تتناسب مع الحب . فلماذا يكون تقدم السن هو أنسب الأوقات لنشوء الصداقة بين الرجل والمرأة ؟ ذلك بأنهما لم يعودوا ــ من ناحية معينة ــ رجلا وامرأة ، ولم يبق لديهما من الغزل الا صبابات ، ومن الغيرة الا ذكريات . ولكن هــذا لا يكفى لأن يضفى نوعا من البهجة التى تظللها الغيوم ، على الصداقة المستنيرة . وفى بعض الأحيان يكون أحد الطرفين هو الطاعن فى السن دون الآخر ، ومن ثم يصبح الموقف أشد صعوبة . ولكن قد تنشأ صداقات يطول مداها من شبان خلعـــاء وغوان فرغ منهن الدهر . كمـــا حـــدث بين لورد بايرون وليدي ملبورن ، أو بين شابة فتية وكهل محنك ،

كما حدث بين الملكة فكتوريا ولورد ملبورن .
ومهما يكن من شيء فان الشخص الاكبر سنا من الطرفين ، هو الذى يقاسى أكثر مما يقاسيه الطرف الآخر على الدوام ، لان الاخير لا يتجاوب معه ، كما حدث بين الروائى المعروف « وولبول » ومدام « دى ديفان » . والواقع أن توخى الدقة لا يسمح باطلاق اسم الصداقة على مثل تلك الملاقات ، لأن هناك حبا تعسا من احدى الجهتين ، وقلة اكتراث يشوبها العطف ، من الجهة الأخرى .
واخيرا يمكننا فى الحلقة الثالثة التى يسودها جو لطيف ، وان كان يعكر صفاءها التكرار الممل الاليم ، أن نضع أولئك الذين نجحوا ، بعد أن كانوا عشاقا ، فى الانتقال من الحب الى الصداقة دون عراك . وهذا هو أدنى الصداقات بين الرجال والنساء قربا الى الطبيعة ، حيث تكون هناك ترضية للناحية الجسدية . غير أن ذكرى الامتزاج التام تحول بينهما وبين الشعور بأن كليهما غريب على الآخر ، لأن عواطف الماضى تجعلهما بمأمن من مخاوف تأثيرات الغزل والغيرة ، حيث تقوم العلاقة بينهما على أساس مختلف تماما — أكثر حظا من الرجولة — فى حين أن معرفة كل منهما للآخر معرفة جيدة تتيح لهما توطيد صداقة يتوافر فيها ما يزيد على الألفة المعتادة .

***

وهذه هى الحال فى مواجهة الصداقة الغرامية ، والتصريح بمثل هذا لا يكاد يكون من الصعوبة فى شيء . ومن ضيق آفاق الفكر الا يستطيع الانسان أن يتصور نشوء علاقات بين الرجال والنساء دون أن يكون أساسها الرغبة الجسدية . فالاتصال الفكرى بين الجنسين ليس

ممكنا وحسب ، بل هو فى معظم الأحيان أسهل منه بين رجلين . وفى هذا قال الشاعر الالمانى الفيلسوف «جيته» فى بعض مؤلفاته : « ان الصداقة بين الشاب والشابة تكون ممتعة ، حين تريد الشابة أن تتعلم ، ويريد الشاب ان يقوم بدور المعلم » . وربما قيل ان هذا الفضول المبكر ليس أكثر من رغبة جسدية غير ارادية ، ولكن ، ما أهمية ذلك ، اذا كانت تلك الرغبة تشحذ العقل ، وتضعف الغرور ؟ والتعاون بين الرجل والمرأة ، وتبادل الاعجاب بينهما ، أقرب الى الطبيعة من التنافس . والمرأة توافق بمحض رغبتها على أن تقوم بالدور الثانوى ، وهى تعطى الرجل ما يحتاج اليه من التشجيع والمساعدة الروحية .

واذا أدى هذا النوع من الصداقة بين شاب وشابة الى زواجهما ، فقد يكون فى حبهما التهاب العاطفة دون أن يكون فيه تزعزعها . فتبادل الانشغال على نحو ما ، يسفر عن عنصر من عناصر الدعم ، ويحول دون التأملات غير المجدية ، وينظم التصور بفضل تقليل الفراغ . ولقد وضح أن كثيرا من الزيجات السعيدة يمكن أن تتحول فعلا بعد سنوات عديدة ، الى صداقات حقة بكل ما فيها من المشخصات . وحتى اذا لم يكن الرجل أو المرأة متزوجين فليس هناك ما يحول بينهما وبين أن يصيرا صديقين جديرين بالثقة والتقدير . ولكن هذه العلاقة لا يمكن أن تحتل مكان الحب .

وأنا متفق مع « د . هـ . لورانس » فى الرأى ، حيث يقول : ان الصداقة الفكرية أو العاطفية ، لا يمكن أن تكون عاطفة جوهرية بالنسبة الى امرأة . فالمرأة تعتمد على جسدها أكثر كثيرا مما تدرك . وهى تعطى

المكان الأول دائما للرجل الذى تحبه حب الجسد . كما انها ، اذا صح عزمه ، تتنكر لخير صداقاتها . ومن اخطر الأمور على المرأة أن تحاول اقحام الاعتبار الجسدى على الصداقة العاطفية ، وأن تفازل الأصدقاء وتخفى الرغبة البدنية بالكلمات . وهذا أكثر خطورة على الرجل الى حد كبير ، فاذا هو عمد اليه ، استحال عليه اكتساب الثقة بالنفس التى تصحب الغراميات السعيدة على الدوام .

***

على أن الكثيرين من الرجال لا يستطيعون أن يجدوا فى غير الصداقة الرفيعة غير الشخصية لناصح روحى حكيم ، النجى العلوى الذى هم بحاجة اليه . وأولئك الذين لا يؤمنون بشىء ، أو أولئك الذين ليست لهم عقيدة دينية راسخة ، قد يكتسبون التحرر الذى يريدونه من طريق استشارة أطباء معينين ينظرون باكبار الى زياراتهم لهم ، وينصتون بامعان ودون تحامل الى ما يدلون به اليهم من اعترافات مذهلة الى أبعد حد . ويقول العلامة « يونج » فى هذا : « اننى لا أعنى أبدا أنه ليس ينبغى لنا ان نحكم على سلوك أولئك الذين يحضرون الينا ليلتمسوا مساعدتنا . ولكنى أقول ان الطبيب لا يمكن أن يكون عونا لمرضاه ، الا اذا تقبلهم على علاتهم » .

واحب أن أضيف الى هذا : أن الطبيب يجب أن يكون فنانا ، كما يجب ـ فى فهمه لمرضاه ـ أن يعمد الى اساليب الفلاسفة وكتاب القصة . فالطبيب العظيم لا يعالج العقل من طريق الجسم ، بل يعالج الجسم أيضا من طريق العقل . وهو بهذا صديق روحى حقا .

والكاتب القصصى قد يصبح بالنسبة الى فريق معين من القراء ، الصديق المجهول الذى ينقذهم من انفسهم ، فقد يعتقد رجل ما فى نفسه انه غير طبيعى ، اذ كانت تراوده دائما فكرة ان احساساته خاطئة وغير انسانية . ولكنه حين غرة ــ حين يكون منصرفا الى قراءة كتاب جيد ــ يكتشف وجود آخرين يشبهونه ، ومن ثم يستعيد ثقته بنفسه ، وتتخذ السكينة طريقها الى عقله ، وينصرف عنه الشعور بالوحدة ، وتعود احساساته الى الحياة العادية ، لأن آخرين قد مرت بهم تجربتها . ولقد ساعدت ابطال روايات تولستوى وستندال مراهقين جديدين ، على اجتياز ما اعترض سبلهم من العقبات .

ويحدث فى بعض الأحيان أن يعتمد رجل ما فى توجيه أفكاره على شخص يعتبر أن عقله أقوى من عقله . ومن ثم يجله ولا يناقشه ، لأنه يرى فيه أستاذا وصديقا فى آن واحد . ولقد كان من حسن حظى اننى كان لى أستاذ هو الفيلسوف الفرنسى الذى كان يكتب باسم « آلان » . وآراؤه لها من القيمة عندى فوق ما لآراء أى رجل آخر فى العالم . وبعبارة أخرى : انه لا يزال أستاذى حتى الآن . ولا اعنى بهذا اننى أفكر مثل تفكيره فى كل الموضوعات . فان مثلنا العليا تختلف ، كما أننى أخالفه فى الرأى تماما فى عدة مسائل هامة . غير أننى لم أكف ابدا عن الاقتداء بعقله ، مع التعصب له .

ولابد من قدر معين من الايمان ، كى يتسنى هضم اية تعاليم . فلتكن حريصا فى اختيار أساتذتك . وبعد أن يقع اختيارك عليهم ، حاول أن تفهمهم قبل أن تحكم عليهم بأنهم مخطئون . وليس ثمة صداقة روحية أو غير

روحية دون أن يتوفر الايمان والولاء .

انك تستطيع أن تجمع حولك عقولا عظيمة — فيما يشبه أسرة روحية . ولقد سمعت مؤخرا عن تاجر اخشاب فى مدينة « جرينوبل » ، اتخذ من « مونتانى » صديقا له ، فهو لا يذهب الى أى مكان الا وفى جيبه كتاب من مؤلفات استاذه . فلا تتردد انت فى تنمية مثل هذه الصلات ، حتى وان بلغت فى قوتها مبلغ العواطف . فان هذه العقول العظيمة سوف ترتفع بك معها الى مشارف ترى فيها الجانب الأفضل من نفسك . واكثر الناس تحفظا ، يرفعون اقنعتهم كى يتاح لهم أن يندمجوا مع « افلاطون » أو « باسكال » . وقراءة كتاب جيد هى حوار متصل يتحدث فيه الكتاب وترد عليه أرواحنا .

ويحدث أحيانا أن يكون الأستاذ المختار من غير الفلاسفة أو الكتاب ، بل رجلا عمليا ، يعمل معه الاصدقاء بتوجيه من اوامره . وهنا تكون الصداقة على مستوى رفيع ، فهى خالية من الغيرة بسبب وجود الهدف المشترك . وتسود السعادة لأن الكل مشغول ، ولا يوجد وقت يمكن أن يسمح بنمو شعور بغيض . وفى المساء يحلو الاجتماع والتحدث عن عمل النهار ، والجميع شركاء فى آمالهم ، ويجب عليهم أن يواجهوا ما هو مقدر لهم من خيبة الأمل ، ومثل هذه الصداقة يوجد فى منتديات الضباط ، وكذلك بين جماعات الشبان التى تلتف حول « ليوتى » أو « روزفلت » . والرئيس لا يفرض سلطانه بالقوة ، فهو صديق كذلك ، على طريقته الخاصة ، وفى بعض الاحيان يكون جم الأدب ، والجميع يتقبلونه بقبول حسن ويحترمونه ، بوصف كونه الروح المحركة للجماعة .

والمجتمع سواء صغر أو كبر ، لابد لضمان بقائه من أن يكون مؤلفا من أزواج وعائلات يجــوز اعتبارها خلايا أصلية . وكما هي الحال في الجسم الانسانى ، لا توجد هناك أنسجة رابطة وأخرى مخاطية وحسب ، بل هناك أيضا خلايا أكثر من تلك تعقيدا ، وهى الخـلايا العصبية التى تتولى أمر توحيد الأخريات جميعا . ولهذا أعتقد أنه ينبغى أن نفكر فى المجتمع باعتبار أنه مكون من عائلات لا تلبث أن تضيف الى كثير غيرها اضافات دقيقة على الفور تجمع بينها ، كما ينبغى أن ننظر الى الصــداقة والاعجاب باعتبار أنها الخلايا العصبية الأكثر تعقيدا . . . وهكذا ينسج الحب الروحى بين خيوط الحب الجسدى خيوطا أضعف منهــا وأدق ، لا يمكن بغيرها أن يكون للمجتمع الانسانى وجود .

وقد يكون فى وسعنا الآن أن نظفر بلمحة خاطفة من هذا النسيج المعجز ، نسيج الحب ، والثقــة ، والولاء الذى تستند اليه كل الحضارات .

فن التفكير

انني أنظر من خلال زجاج النافذة فى غرفة مكتبى فما تلبث أفكارى أن تختلط لحظة بالصور التى تبدو لى كأنها مرسومة على الزجاج . وفيما وراء الشكل الهندسى الجاف الذى أراه فى سور الشرفة ، أستطيع أن أرى امواج الغابة الخضر ، وقد التفت بها غلالة زرقاء باهتة اللون من ضباب صباح يوم من أيام « باريس » . وينهض على الأفق صف من التلال ، ويبدو المستشفى القائم على منذر « مونفاليريان » الكثير الأشجار ، كأنما هو دير من أديرة « فلورنسا » تحيط به أشجار السرو السوداء . وينطلق عبر السماء الشاحبة سرب من « عصافير الجنة » قد أسدلت عليه السحب ستارا شفافا . وتلوح على البعد من جهة «فرساى» بعض طائرات تحلق وتئز ، وتثير الذكريات عن الحرب ، والغارات الجوية ، والصفارات التى تعكر سكون الليل . ومن ثم لا ألبث أن أنسى أوراق الشجر الخضراء ، وتغريد الاطيار ، وانصرف الى التفكير فى انهيار احدى الحضارات ، وفى نهاية الامبراطورية الرومانية ، وفى بلدة صغيرة على الساحل المراكشى ، كان يسودها الرخاء وتنضح بالفتنة ، فى القرن الثالث ، ثم أصبحت ، بعد قرن واحد من

الزمن ، لا شيء أكثر من أنقـــاض واطلال ، تبعث على الحسرة ، وتتجه أفـــكارى الى المصير المحتمل ، الذى ينتظر عواصم أوطاننا .

وهكذا لا تشمل تخيلاتى الأشياء المتصلة بالحـــاضر وحسب ، بل تشمل كذلك صورا من البلاد البعيدة ، وتستذكر أحداث الماضى القديم ، وتقلب وجوه النظر فى المستقبل المجهول . ويبدو عقلى شبيها بعالم داخلى صغير ينعكس فيه العالم الخارجى الضخم ، الذى لا يحدده زمان او مكان .

ولقد أطلق الفلاسفة أحيانا على هذا النموذج المصغر المكون ، اسم « العالم الصغير » ، كما أطلقوا على العالم الضخم الذى نعيش فيه ونتمنى أن نفهمه ونفيره ، اسم « العالم الكبير » . وقال واحد ممن اشتغلوا بالكيمياء السحرية فى العصور الوســـطى : « ان عقل الرجل ليستولى على كل شيء يحتويه العالم الكبير ، شأنه فى ذلك شأن الملائكة » . ولنقنع بأن نقول ان العقل «يحاول» أن يستولى على كل شيء ، وان انعكاس العالم فى أنفسنا يكون مشوها ، مثل انعكاس صورة السماء والأزهار على صفحة الماء فى الحديقة .

ويزيد من اختلاط أفكارى أن كل من المرآة والأشياء ، وكلا من العالم الكبير والعالم الصغير ، لا يكف عن الحركة أبدا . وأمامى الآن صورة تبدو لى واضحة لا يكاد يشوبها غموض : سور الشرفة الحديدى ، واوراق الأشجار ، والاطيار ، والتلال المرتفعة على الأفق . ولكن الذاكرة ، والتوقع ، والتعليل ، جميعها تحت رحمة أمواج البحـــر الزاخر فى انفسنا ... وجهالاتى ، ورغباتى ، وأخطائى ،

ونسيانى ، تسفر عن تشويه . ولكن كل شىء يتعرض دائما لتغييرات جديدة وغريبة . والعالم فى عقولنا مثله مثل خريطة اختلطت فيها الخطوط وانتقلت الحدود ، ومع هذا فلا غنى لها عن الرجوع الى هـــذه الخريطة باستمرار .

والرغبة فى أن نفكر تفكيرا صافيا ، ينبغى أن تجعلنا نتردد طويلا ونبحث بحثـــا دقيقا ، ولكن الحاجة الى التصرف ملحة عاجلة . فهذا طفل تتدهور حالته الصحية تدهورا سريعا . فما هو مرضه ؟ هل هو مرض جسدى أم مرض نفسى ؟ ومن الذى نستطيع استشارته ؟ وهل للطب أية فائدة ؟ وهل هو علم حقيقة ؟ وما هو العلم ؟ ودراسة كل هذه الأسئلة بصورة جدية ، تقتضى انفاق عمر بأكمله . ولكن ماذا عسى أن نفعل ؟ يجب العثـــور على اجابات ، لأن مريضنا يعانى سكرات الموت . وليس هنالك ما يكفى من الوقت لاستكشاف العالم الخارجى ، والصورة الوحيدة له التى فى متناول أيدينـــــا ، هى الصورة الصغيرة المشوشة التى يرسمها عقلنا .

والشىء الذى نطلق عليه اسم التفكير ، هو الجهد الذى يبذله الانسان فى محاولة الحدس أو التكهن ، عن طريق الجمع بين الرموز والصور ، بالتـأثيرات التى سوف تنتج عن أعماله فى دنيا الحقيقة . والتفكير كله عبارة عن رسم تحضيرى للفعل ، ومن واقع هذا الرسم التحضيرى ، وبعد تصحيح ما فيه من الأخطاء ، ترسم صورة حياتنا . ولكى تكون فعالنا صحيحة ، كما قال « باسكال » ، يجب أن يكون تفكيرنا صحيحا . فمـــا هو التفكير الصحيح ؟ هو جعل نموذجنا الداخلى الصغير

للعالم الخارجي مطابقا للأصل بقدر المستطاع . اذا كانت قوانين عالمنا الصغير تشبه الى حد معقول قوانين العالم الكبير ، واذا كانت الخريطه التى نستهدى بها تمثل بدقة نسبية حقيقة الطبيعة التى يتعين علينا ارتيادها ، فانه يكون هناك أمل فى الملاءمة بين فعالنا وبين حاجاتنا ، أو رغباتنا ، أو مخاوفنا .

وهل هناك وسائل يستطيع بها الرجل أن يسيطر على على أفكاره حتى تصبح أفعاله منسجمة مع نظام الأشياء القائم دون عناء ؟ وهل فى الامكان أن نرسم خريطة دقيقة للكون ، بقصد بلوغ غايات معينة بفضل تلك الخريطة ، والوصول الى موانىء مختارة ؟ .

يبدو أن أكثر الأفكار فائدة في عالم الأشياء ، هى تلك المسجلة على الأجسام الحية فى صورة غرائز أو عادات . فالقطة تقفز الى مائدة حافلة بالاشياء ، وتقف عليهـــا وادعة ودون أن تبذل أى مجهود، فلا تحطم قدحا أو تحتك باصيص زهر . وهذه السلسلة من الحركات تنطوى على تقدير دقيق لما يلزم من القوة ، واختيار محاذر للمكان الذى تهبط فيه من المائدة . ولكن التقدير وذلك الاختيار لم يكن فيهما أى أثر للوعى . فلقد فكرت القطة بعينيها وعضلات جسمها . وأتاح لها منظر المائدة أن تقرر ما هى بحاجة اليه من الحركات . كما أن تصور تلك الحركات أسفر بدوره عن تحديد الأوضاع التى تتخذها أقدامها وظهرها ورأسها .

وعلى هذا النحو يفكر لاعب « التنس » بجسمه . وكذلك يفعل لاعب كرة القدم ، و « البهلوان » ولاعب السيف لا يتسع وقته أبدا لأن يقول لنفسه ، أن

منافسه قد فعل « كذا » ، ولهذا سيفعل هو «كيت» . لأنه يفكر بسيفه وبأصابعه . ولقد كنت فى صباى أمارس الألعاب الرياضية ، وكنت أعلم أننى حين ألعب على « المتوازين » يجب أن يكون تقديرى صحيحا تماما . فاذا كان يمكننى أن أتصور جسمى محتفظا بتوازنه فى الهواء ، وأن أقيس سلفا مدى تأرجحه ، وأن أختار (فى أثناء هذا التفكير السابق) الجزء من الثانية الذى يجب فيه أن أقبض عضلات ذراعى وأرفع ساقى لأزيد قوة الاندفاع ، فعندئذ يتم كل شيء بسهولة، وكأنه معجزة خارقة . أما اذا كان هناك أقل انقطاع فى شريط تلك الصورة ، أو كان بعيدا عن بؤرة التركيز بضعة مليمترات، فان الايقاع المتزن لا يلبث أن يختل ، ويصبح العمل المزمع أداؤه ضربا من المستحيل .

والمثال لا يقرر تعديل جزء من تمثاله بناء على التعليل العقلى . بل أن اتصالا مباشرا يحدث بين عينيه المسلطتين على النموذج ، وبين أصابعه التى تحتضن التمثال . فالمثال كمن يمارس الألعاب الرياضية ، كلاهما يفكر بجسمه . وبعض الكائنات الحية تتعلم التفكير بأجسام غيرها . والحيوان يفكر مع القطيع . فاذا استولى الذعر على قطيع ، جرى كل حيوان مع بقية القطيع ، لا لأنه يفهم السر فى ذلك الذعر ، ولكن لأن الغرائز الأساسية فى نوعه تعلمه أن الحمل اذا لم يتبع القطيع ، أصبح تحت رحمة أعدائه . وكما هو الحال فى الحيوان ، يكون غير كاملى النضج العقلى من الرجال والأطفال والجماعات ... عرضة للتفكير الغريزى والجسدى ، الى أبعد حد .

والطيار عنده حاسة دقيقة تمكنه من الهبوط الى

الارض بسلام ، ولكنه لا شأن له باختراع الطائرة .
والاقتصادى الذى يشرف على مالية بلده لا يفكر بجسمه، بل انه لا يستطيع حتى أن يفكر كما يفكر الرياضى ، من طريق صور عقلية للحركات ، لأن تلك الصور سيكون عددها ضخما الى أبعد حد . واذا كان عمله هو تحسين المركز الاقتصادى لملايين من الناس ، فانه لا يستطيع أن يقول لنفسه : « اننى أعمل من أجل ذلك التاجر أو الفلاح الذى رأيته ، أو من أجل ذلك الرجل المتعطل الذى أعرف متاعبه » . وهو لكى يزيد من سرعة تفكيره ، يجب عليه أن يبدل صور تلك المخلوقات البشرية، والحقول ، والمنازل ، والصناعات ، ويعتاض عنها علامات ورموزا تمثل شيئا أو شخصا ، أو كل الأشخاص الذين ينتمون الى طبقة معينة ، وهذه الرموز هى الكلمات .

فالعامل أو المشعوذ أو الرياضى ، الذى يفكر بيديه ، انما يستخدم أشياء لها وزن ومقاومة ، كالحجارة ، أو الكرات ، أو جسمه نفسه . أما الرجل الذى يفكر بالكلمات فيستخدم مجرد اصوات أو رموز ، وهذا يسهل الفعل بصورة عجيبة . واذا كنت فى فندق فانك ترفع سماعة التليفون وتنطق بكلمة « شاى » وبعد لحظات يحضرون لك ــ بما يشبه المعجزة ــ فنجانا ، وصحنا ، وملعقة ، وخبزا ، وحليبا ، ومربى ، وأبريق شاى ، وماء حارا . فتصور تعقيد الأعمال اللازمة لتحضير كل هذه الاشياء من أجلك . فكر فى الفلاح الصينى الذى يزرع الشاى ، وفى اختيار أوراقه ، والباخرة التى تحمله ، والربان والنوتية وهم يصارعون احدى العواصف . والراعى وهو يسوق الابقار الى المرعى ،

وحلب الابقار ، وعامل القطار وهو يأخذ اللبن ، والخباز وهو يعجن العجين ليصنع منه الخبز ، والفتاة الريفية التى تجمع ثمار الفاكهة التى تصنع منها المربى — لقد استطاعت كلمة واحدة نطقت بها ان تضع كل هؤلاء الناس فى خدمتك .

والرجل الذى يفكر بيديه ، يكون تأثيره على الكون محدودا ، اذ لا يتأثر به سوى ما يلمسه . أما الرجل الذى يفكر بالكلمات ، فانه يستطيع دون عناء أن يحرك شعوبا ، وجيوشا ، وقارات . فاذا ما نطق رئيس حكومة بكلمة « تعبئة » ، فانه بهذا العمل الضئيل الذى لا يقتضيه أكثر من تحريك شفتيه حركة لا يكاد يراها أحد ، ينتزع كل رجال أوربا من ديارهم وعائلاتهم ، ويملأ السماء بقاذفات القنابل التى تستطيع تدمير مئات المدن، ويجلب خراب العالم ونهاية حضارة . وحين يفكر الانسان فيما قد يكون للكلمة الواحدة من الآثار ، فانه يدرك أن اللغة ربما كان منظورا اليها باعتبارها قوة سحرية عند الشعوب البدائية . ولقد بحث « الهندوس » الذين تحدث عنهم « كبلنج » فى شعره ، عن « كلمة السر » التى تمنحهم المقدرة على قهر الناس والأشياء . وبحث « فاوست » فى كتب الكيمائيين السحرة عن تعاويذ تستحضر الأرواح أو تطردها بعيدا . وفى « ألف ليلة » انفتح الباب بسحر « كلمة السر » ، ولقد كان ذلك أسطورة ، ولكنها أسطورة حقيقية . وفى كل المجتمعات كلمات تفتح الأبواب ، وكلمات تستحضر الأرواح الخبيثة وكل متحدث يكسب قوته بفضل « كلمة سر » ، وكل ثورة تبدأ « بكلمة سر » .

والرجل الذى يفكر بيديه يحرك الأشـــياء الثقيلة ، ويحركها ببطء ، حجرا بعد حجر ، ويخلى منهـــــا أماكنها على التوالى . وهو لا غنى له عن الحــــذر بسبب صعوبة العمل الذى يقوم به . كما أنه مرغم على مداومة هذا الاتصال بين العالمين الخــارجى والداخلى ، الذى ناقشناه باعتباره ضمانا للتفكير الصـــحيح . لأنه لو لم يفعل ذلك لجرحت الأحجار يديه ، أو تخبط فى تناول الكرات التى يلعب بها ، أو ســـقط من فوق ذراعى « المتوازين » فى ساعة الألعاب الرياضية .

ولكن الأمر أكثر سهولة بالنسبة الى من يفكر بالكلمات ، ففترة ما بين الخطأ والعقاب تبلغ من الطول حدا لا يكاد يدرك معه العواقب . فهو يعبث برموز واهية ، وينسى ما قد ينتج عن ذلك من وخيم العواقب . وهو ـ على نحو ما قيل ـ يخلط بين قشور الألفاظ ولب الحقائق . كما أنه يغرى بأن يظن أن كل شىء قد تم ، حين تكون الكلمات وحدها قد قيلت وحسب .

ومنشأ الصعوبة أن الأشياء فيها مقاومة . فالانسان يستطيع أن يقول كل شىء بالكلمات . قال نابليون الثالث : « ان مبدأ القوميات يجب أن يحترم » . وهذه العبـــارة النظرية التى يمكن أن تؤخذ على أنها حقيقة ، لأنهـــا لا توحى بأية صورة محددة ، قد تسببت فى دمار أوربا الحديثة . ويجلس رجل الاقتصاد الى مكتبه ويكتب : « ان زيادة المرتبات تعنى زيادة القوة الشرائية ، ومن ثم توضع نهاية لهذه الأزمة » . ولقد كانت هذه كلمات طيبة كأية كلمات أخرى ، لأنها كانت تلمع ببريق الحقيقة ، كما أن رجل الاقتصاد كتبها بدافع من ايمانه . غير ان

الاجراءات التي أوحت بها لم تضع حدا للارتباك الاقتصادى في الواقع . فلماذا ؟ لأن العالم الصغير لم يستطع أن يؤثر على العالم الكبير حيث كان هناك فرق بين الكلمات والأشياء . لأن العبارة البسيطة لم تكن تمثل تعقد الوضع بالدقة الكافية .

***

ولو انه كان على الانسان أن ينتظر حتى يرى النتائج الطيبة أو السيئة ، قبل أن يحكم على قيمة عبارة أو مشورة ، لكان ذلك أمرا خطرا وشنيعا . ومن الطبيعي ، منذ بدء الحضارة ، انه كان على حكماء الرجال ان يبحثوا عن طريقة تجنبهم سوء عاقبة الألفاظ ذات البريق الخاطف . وبمثل طريقة تنظيم حركة المرور في يومنا هذا ، حاول الناس تنظيم حركة تداول الكلمات ، واطلقوا على ذلك اسم « المنطق » . وينبغي أن يصبح المنطق فن استعمال الكلمات مع اتباع قواعد معينة تكون بدورها بمثابة ضمانات تكفل لقوانين العالم الداخلى أن تطابق قوانين العالم الخارجى . وما نسميه نحن قوانين العقل البشرى هو قواعد للتفكير تصلح لكل الناس في جميع الأعمار . وبعض هذه القواعد بديهى ـ مثل نظرية عدم التناقض : أى أن الشيء الواحد لا يمكن أن يكون نفسه وضده في آن واحد . كما أن الواحد منا لا يستطيع أن يقول : « اثنان واثنان مجموعهما أربعة » ، ويقول في الوقت نفسه : « اثنان واثنان مجموعهما خمسة » . أو « ان هذا الثوب أبيض » و « أن هذا الثوب أسود » أو « أريد تحرير هذا الشعب » و « أريد استعباد هذا الشعب » . ولقد تمنى الناس منذ سنوات طوال ان تكون لهم قواعد تفكير منزهة عن الخطأ تقوم على مبادىء أساسية واضحة .

وهذا المنطق ــ الذى كان منطق « ارسطو » ، ثم اعتنقه فلاسفة القرون الوسطى ــ هو مذهب خليق بألا يطرح ، بل هو مذهب لا غنى عنه ، فهو يحمى تفكيرنا من أخطاء معينة ، ولكنه لا يستطيع أن يتكون منه فن للتفكير ، للأسباب الآتية :

ان المنطق لا يمكنه الاختراع . وهو اذا أضاف جديدا ، كان عليه أن يستعين اما بالتجربة واما بالالهام ، وكلاهما خارج عن نطاق المنطق . والمنطق يسمح للانسان بأن يقول : « هذا الثوب ثوب » . ولكن التجربة وحدها هى التى تسمح للانسان بأن يضيف الى تلك العبارة قوله أن الثوب رقيق ، أو أن فيه طيات كثيرة . ولقد تخلص « كانت » من حماقة التفكير فى احتمال استطاعة العقل الصرف أن يستغنى عن التجربة فقال : « ان العقل بدافع من رغبته فى الاستزادة من المعرفة ، وبعد أن اكتسب الثقة بنفسه بفضل هذا الدليل على قوته ، يتصور أن فضاء اللانهاية يزداد أمامه اتساعا . واليمامة ذات الجناحين سريعى الخفق ، اذ تشق الهواء وتشعر بمقاومته ، يخيل لها أن طيرانها يكون أفضل كثيرا لو طارت فى فضاء مفرغ من الهواء . وهكذا نجد أن أفلاطون فى تحقيره للعالم المادى الذى يحتجز العقل فى مثل تلك الحدود الضيقة ، يغامر فيقتحم فراغات الفهم البحت الخاوية . وهو لا يتصور أنه لا يحرز أى تقدم برغم الجهود التى يبذلها . فهو يعوزه الاساس المتين الذى لا غنى عن مساعدته ، والذى بفضله يتحرك فكره » . وبيننا كثير من دعاة الاصلاح السياسى لا يزالون يصفقون بأجنحة خيالهم عبثا فى خواء البحوث النظرية .

ولا شك فى أن المنطق قد جعل عقول الناس مرنة ، ولقد منح تلك العقول ما كان ينقصها من المقدرة على خفة الحركة ، ولكنه منحها كذلك عادة خطرة ، هى اعتقاد أن كل شيء يتم ، بعد دخولها فى سلسلة من التحليل والتعليل ، لها مثل مظهر الحقيقة .

وتاريخ النظريات الفلسفية يشهدنا على أن الناس على تعاقب الأجيال ، قد استطاعوا أن يثبتوا صحة كل شيء تقريبا . فلقد أثبتوا صحة فلسفات متعارضة ، كما أثبتوا زيفها . وأثبتوا ضرورة وجود الديمقراطية ، كما أثبتوا استحالتها . كما أثبتوا انفصال قبائل الجنس البشرى وانفرادها بسمات ، ثم عادوا فأقاموا الدليل على اختلاطها .

قال الفيلسوف « آلان » : « ان من الواضح عندى أن كل الأدلة مشكوك فى أمرها » . والواقع أن الانسان يستطيع أن يثبت صحة كل شيء ، اذا كانت الكلمات التى يستعملها غير واضحة وغير دقيقة .

والمسألة من مسائل علم الجبر لا يمكن التنازع عليها لأن كل مصطلح فيها دقيق الى درجة تجعل من يقوم بشرحها غير قادر على أن يقول شيئا لا يستطيع سامعه أن يفهمه . والحقائق فى المنطق حقائق فعلا . ولكن الكلمات المستعملة فى الحديث عن المشاعر ، وادارة الحكومة ، والاقتصاديات ، كلمات غير واضحة المعانى ، يمكن استخدامها فى نفس المناقشة ، بحيث تكون لها معان أخرى مخالفة . ومحاولة التنافس بكلمت أسيء اختيارها ، أشبه باستعمال ميزان غير متعادل الكفتين .

وطريقة « ديكارت » هي محاولة القصد منها التخلص من أخطاء معينة فى مثل هذه المناقشات . وهو يقول فى ذلك « انني شديد الرغبة فى أن أتعلم كيف أميز الصحيح من الزائف . حتى استطيع ان أتصرف ببصيرة نيرة ، وأمضي فى سبيل حياتي بمزيد من الثقة » . ومن واجبنا أن نتذكر قواعده الشهيرة فى فن التفكير . والقاعدة الأولى هى : « تقبل الشيء على أنه صحيح فى حالة واحدة ، وهى حين تدرك بوضوح أنه كذلك » .

وقد يبدو هذا أكثر بساطة مما ينبغي . وقد تسأل أنت قائلا : « ولماذا أتقبل شيئا على أنه صحيح ، اذا كنت لا أعتقد أنه كذلك ؟ » . ويتولى « ديكارت » الاجابة على سؤالك بأن يضع قاعدة أخرى : « احرص على اجتناب التسرع والتحيز » .

والتسرع لا مندوحة عن اجتنابه لأن الانسان لا يستطيع فهم الأمور الصعبة على وجه السرعة . والطالب الذى يمر بصفحات كتاب النظريات الهندسية مر الكرام ، لن يتعلم الهندسة أبدا . ولكن الناس فى عجلة من أمرهم فى معظم الأحيان ، وبعضهم مضطرون الى ذلك . فان موعد الامتحان يحدد له يوم من الأيام ، ومن ثم تتعين دراسة علم كامل أو حفظ تاريخ حقبة بأسرها من التاريخ قبل حلول ذلك اليوم . ويقطع الخبير على نفسه عهدا بأن يقدم تقريره فى ميعاد معين ، وتنتظر الحكومة ، فاذا تأخر الخبير كثيرا فى تقديم التقرير ، صدر ضده قرار جزائي ، فتقديم التقرير ناقصا ، خير من عدم تقديمه على الاطلاق . والصحفي يفضل زيادة ساعات قلائل ، يتمكن فيها من دراسة مسألة جديدة وغامضة ، ولكن عمال المطبعة يلحون فى طلب مقاله ،

واعداد الجريدة يجب أن تلحق بقطـار الساعة الثانية صباحا .

وهنالك ، غير هؤلاء ، من يكونون فى عجلة من أمرهم ، بسبب غرورهم . وهم يكرهون أن يعترفوا بجهلهم بأى أمر من الأمور . والاخصائى يظن أن من العار عليه ان يجيب بقوله : « يجب على أن أبحث هذا اوضـوع » . وفى الحكومات ، وفى أوساط الأعمال ، وفى المجتمع أيضا ، رجال يتحدثون حديث الواثق عن أمور لا خبرة لهم بها . وقد يحدثك بعضهم عن « تشيكوسلوفاكيا » دون أن يذهب اليها أبدا ، بل دون أن يقرأ شيئا عن تاريخها وعادات اهلها . ويبدى شخص آخر رأيا سيئا فى تقدم الطيران عندنا فى حين أنه لا يعرف عنه شيئا سوى ما سمعه ممن لا يوثق بمعلوماتهم . وهنالك أيضا من قصص مختلفة عن تمزيق عرض سيدة بما يروى من قصص مختلفة عن حياتها الخاصة . على أن فى وسعنا أن نرتفع كثيرا بمستوى قيمة محادثاتنا ، بالمواظبة على استعمال عبـارة لا مزيد على بساطتها : لست أدرى . أو بترديد الملحوظة اللطيفـة التى أبداها لويس الرابع عشر حيث قال : « سوف أرى » . واذا نحن أقسمنا على الا نفاجىء أحدا بطلب قراره أو حكمه على شىء ، والا نتعجل نحن فى اصدار أحكام سريعة ، فاننـا نكون قد خطـونا بذلك خطـوة هامة نحـو حكمة « ديكارت » .

على ان العجلة ليست السبب الوحيد فى ارتكاب الأخطاء، فهناك التحيز أيضا . ونحن نتناول مسائل سبق أن كونت الاسرة والجماعة فيها رأيا ، فيكون استعدادنا ، ووراثتنا ، وتعليمنا ، قد فرضت على أفكارنا صـورة معينة لها ، واذا

انت أردت أن تختبر تأثير جماعتك على تفكيرك ، فعليك أن تحاول أن تتذكر حكمك على كل من كلمينصو ، وكايو ، ودلاديه ، بعد قراءتك مقـــالات مادحة وقادحة عنهم فى مختلف الصحف . ولابد انك قد كرهتهم أو أكبرتهم ، عن حسن نية ، لا عن حسن ادراك .

واهتمامنا بأنفسنا سبب آخر من أسباب التحيز . قال « باسكال » : لو كانت الهندسة تثير مشاعرنا بالدرجة التى تثيرها بها السياسة ، لما كان فى وسعنا أن نفسرها بمثل هذا الوضوح .

وهناك رجال قليلون جدا لا يدركون قيمة نظـــــام ضرائبى ما بالنسبة اليهم ، قبل الموافقة عليه . ولنتصور طبيبا قد ابتكر طريقة للعلاج يستطيع بها أن يعيش معيشة ممتازة ، وأن يزيد من شهرته كطبيب ... اذا حدث انه اكتشف أن طريقته قائمة على نظرية زائفة ، أليس من المعقول أن يخطر على باله مائة سبب للشـــك فى صحة الاعتراض على طريقته ؟ .

ان كل شىء يتفق مع رغباتنا الشخصية ، يبدو لنـــا انه صحيح . وكل شىء لا يتفق معها يثير غضبنا . ولنتأمل حياة « شاتوبريان » السياسية . ففى فترة نقيه ، أصبح من وجهة نظر الثورة الفرنسية ، من دعاة الملكية الدستورية على الطراز الانجليزى . وبعد عودة النظام الملكى ، حاول « لويس الثامن عشر » أن يقيم فى فرنسا حكومة على ذلك الطراز . ولو أن « شاتوبريان » لم يستسلم لمشاعره الخاصة ، لكان قد ساند محاولات الملك بكل قلبه . ولكنه كان مغيظا محنقا بسبب عدم اختياره لرياسة الحكومة الجديدة . ولقد تولدت فيه عداوة عنيفة للملك منشؤها

تلك المعاملة الظالمة ، فراح يعـــــارض سياسته نفسها بمناقشات كانت تبدو جديرة بالاعجـــــاب ، بفضل فصاحته ، وان لم تكن فى حقيقتها ســوى الحقــد . والانفعال من شأنه أنه يستطيع أن يؤدى بالانسان الى أية سخافة أو تناقض . وحين يسيطر الحب أو البغض ، فان على العقل أن يلقى سلاحه ويستسلم . . . ثم يكتشف عندئذ ما يبرر حماقة ذلك الحب او هذا البغض .

ويظن بعض الناس أنهم متحــــررون من المؤثرات المحيطة بهم ، لأن حياتهم قد جعلت منهم ثوارا متمردين . ولكن التمرد ليس دليلا قاطعا على التحرر ، بل التمرد ــ على العكس من ذلك ــ صورة واضحة قاطعة من صــور التحيز . والكاتب الذى قاسى فى طفولته ما لا يحتمل من آلام التربية الصارمة ، لا يستبعد عليه التشدق بأنه مفكر حر التفكير ، فى مهاجمته للدين وحياة الأسرة ، ولكن ثورته انما هى ثورة عبد . ومؤلف كتاب « المقال فى المنهج » ، ينصحنا أولا بأن نحرر عقلنا من العاطفة ، ثم نستخدمه على الوجه المرضى . وهو فى سبيل هــذه الغاية ، يقرر بضع قواعد : نظم أفكارك تنظيما محكما من اكثرها بساطة الى أشدها تعقيدا . قسم المشكلات الى اكبر عدد ممكن من الأجزاء . اجعل حصرك كاملا تاما ، ودراساتك شاملة ، بحيث تتأكد من أنك لم تغفل شيئا . ولقد كان لهذه الطريقة نفع عجيب ، أولا ، بالنسبة الى « ديكارت » نفسه ، ثم لعلماء عصره الذين أصبحوا فيما بعد خبراء فى الرياضيات ، والهندسة الميـــكانيكية ، والفلك ، وبعض فروع علم الطبيعـــة . ولا يزال لمنهج « ديكارت » آثاره المدهشة فى كل المسائل المتصلة بالعقل ،

سواء ما يعنى اكتشاف قوانينه الخاصة ، كما يحدث فى الرياضيات ، أو ما يعنى دراسة الظواهر التى بسطها التصور أو التجريد ، كما يحدث فى علم الفلك . على أن تلك النظرية لم يبد أنها عديمة الجدوى ، بل غير كافية ، عندما طبقوها على العلوم الأكثر تعقيدا .

فى فروع كثيرة من العلوم الطبيعية : فى الكيمياء ، وعلم الأحياء ، والطب ، والاقتصاد ، والسياسة ، لا يزال منهج « ديكارت » عاملا ضروريا ، ولكنه لا يجعل حل المشكلات ممكنا ، كما أنه غير كاف لتوجيه تصرفاتنا . وكيف يستطيع الانسان أن « ينظم أفكاره تنظيما محكما » فى حين أن « الزمن » هو العامل الرئيسى ؟ وكيف يمكنه ألا « يغفل شيئا » ، فى حين أن جوانب المشكلة تفوق فى تعددها كل حصر ؟ على أن هذه الطريقة تبنى فينا عالما صغيرا من الزجاج والفولاذ ، تتلاقى أجزاؤه المحكمة الصنع الى أبعد حد ، فى نظام دقيق للغاية . بيد اننا نعلم أن العالم الخارجى ليس على طراز هذه الآلة المضبوطة الشفافة . فأوراق الشجر التى تعصف بها الريح ، والسحب التى تقتادها العواصف ، والفلاحون فى الحقول ، وعواطف أهل المدينة ... ليس لها مكان هنا .

والاستقرار مهما بلغ من حسن توجيهه وتنزهه عن العجلة والتحيز ، لا يمكن ان يوصلنا ـ حين تنظر الى بذرة تفاحة ـ الى التهكن بشكل الشجرة بعد نموها ، أو معرفة طعم ثمارها . وليس هناك من القواعد أوالنظريات ما نستطيع به أن نصف المرض الذى قد يصيب شخصا مريضا قد طعم بجرثومة غير معروفة . ومثل هذه الأسئلة يجب توجيهه الى الطبيعة بدلا من توجيهه الى أنفسنا .

والمنهج الذي منح الناس ، منذ قرنين من الزمن ، تلك المقدرة العجيبة على نمو العلم التجريبي ، [illegible] من المنطق ، والملاحظة والتجربة ، والاستقراء [illegible] في المنهج دون [illegible] ، ولكن [illegible] بالتحقق [illegible] دائما . فهذا هي [illegible] حسن ، وإلا أوضحناها غير نادمين .

والمنهج التجريبي [illegible] حتى أيام بيكون ، ولعله [illegible] بوضوح . ولكنه قد اتبع دون [illegible] . وكل واحد منا يقوم بتجارب متعددة كل يوم . فلنفرض مثلا [illegible] حاولت بالزنابير ، [illegible] أن أعرف سر انجذابها إليها . ولعل السبب هو وجود أزهار على هذه الموضوعة على مائدتي ؛ وحتى أتحقق من ذلك أخرج الأزهار من الغرفة . فهل يغيب الزنابير أن تختفي . هذا هو الدليل : انني أحضر الأزهار من الغرفة المجاورة وأعيدها الى مكانها الأول فوق مائدتي ، فتعود الزنابير . وهكذا اكتشفت قانونا من قوانين الطبيعة . وسوف أحرص على ان [illegible] أزهارا على مائدتي في هذا الموسم من السنة .

وإذا نحن نظرنا الى المنهج التجريبي من حيث عناصره الأساسية ، وجدناه منهجا بسيطا الى حد محسوس . يقول « كلود برنار » في حديثه عنه : « انه عبارة عن اختبار أفكارنا في ضوء الحقائق بصورة منتظمة » . وملاحظات الإنسان توحي اليه افتراضات قائمة على العلاقات بين الظواهر . وللتدليل على صحة هذه الافتراضات يعمد العلماء الى مزيد من الملاحظات الأكثر دقة . قال « كوفييه » في هذا الموضوع : « ان من يعني بالملاحظة . يصغي الى

الطبيعة . ولكن من يقوم بتجربة ، يسألها ، ويرغمها
على أن تبوح له بأسرارها » . مثال ذلك أنه يغير الأسبا
ويلاحظ التغير فى النتائج . فاذا استرعى انتباهه و-
علاقة ثابتة ، تأكدت عنده بوضوح فكرة وجود صلة م
ومع ذلك كله فان الخطأ محتمل الوقوع . واذا نشـ
حرب بعد اصابة الشمس بكسوف ، فان ذلك لا يَ
دليلا على أن كسوف الشمس هو الذى سبب نشـ
الحرب . وهناك قصة تروى عن طالب فى «أوكسفور
كان من عادته أن يشرب فى كل ليلة عددا من أقـ
« الويسكى » الممزوج بماء « الصودا » . فما لبث أن
أن أصيب بالاختـلاط . فعدل عن شرب « الويسكى
واستبدل به آخر من الشراب هو « الجين » الممزوج
« الصودا » أيضا . ثم استبدل بهذا نوعا ثالثا
« البراندى » الممزوج بماء الصودا كذلك ، دون
تتحسن حاله . وأخيرا استنتج ان العلة كانت فى
الصودا دون سواه ! ولو أنه كان مجربا أكثر حكما
لكان خليقا به أن يجرب كلا من المشروبات الثلاثة دون
يمزجه بماء « الصودا » ، وبذلك كان يستطيع أن يكتشف
خطأه .

والعالم هو الرجل الذى يستعين بالملاحظات والتجار
على استخلاص الفروض من الصلة الدائمة بين الظواه
واذا دلت كل التجارب الممكنة على صحة فروضه ،
يعتبر انها من قوانين الطبيعـة ، بصفة مؤقتة . فى
مرة امسك فيها بشىء ويدى مرتفعة عن سطح الأرض
أفلته ، فانه يسقط ــ وسرعة سقوطه يمكن حسابه
كما أن سرعة سقوطه الى نقطة معينة تتزايد باستمرار
وعلى هذا فان وجود قوانين خاصة بسقوط الأشياء

شيء ينبغي الاعتراف به . والعلم ، الذي هو مجموع مثل هذه الاحظات ، لا يستطيع بأي حال أن يفسر لنـــا الكون . وقصارى القول فيه ، كما يقول « بول فاليرى » : « أنه مجرد مجموعة من (الوصـــفات) الناجحة » . غير أن هذه (الوصفات) قد لا يقدر لها النجاح . فلو أنني أفلت الكتاب الذي في يدي الآن ، فلم يسقط ، بل رأيته قد ارتفع الى السقف ، لاستولت على الدهشة . ولكن العلم لن يختلط عليه الأمر ، بل يكون عليه مجرد البحث عن قانون أكثر تعقيدا ، ليفسر تلك الظاهرة .

والعلم التجريبي ليس فيه سوى فرض واحد من ذلك النوع الذي يطلقون عليه اسم « ما وراء الطبيعة » ، وذلك الفرض هو أن قوانين الطبيعة ثابتة . واذا كنا لا نؤمن بخضوع الطبيعة ، أو ما يبدو أنه خضوع من جانبها ، لقوانين محددة ، فمن الواضـــح أنه يكون من السخف بالنسبة الينا أن نعنى بملاحظة الظـــواهر . فاذا نحن لاحظنا أن المـــاء ــ تحت ضغط ثابت ــ يغلى يوما على درجة ٥٠ سنتيجراد ، ويغلى يوما آخر على درجة ٧٥ ، ويغلى يوما ثالثا على درجة ١٠٠ ، دون أن نتمكن من معرفة السر في تلك الاختلافات ، كان معنى ذلك الا فائدة ترجى من دراسة علم الطبيعة . ومن حسن الحظ ان مثل هذه الأشياء لا يمكن أن يحدث . فالظواهر لهـــا ثبات عجيب . لماذا ؟ ان علماء ما وراء الطبيعة ، وعلمـاء اللاهوت ، بل حتى علماء الرياضيات ، لديهم بعض الأفكار عن هذا الموضوع . ولكن من يقوم بالتجارب لا يعلم عنه شـــيئا ، لأن أمره لا يعنيه . فهو يجد أن طريقة ملاحظة الظواهر ، واســـتخلاص الفروض من هـــذه الملاحظات ، والتأكد من صحة هـــذه الفروض بطريق

التجربة ، واغفالها اذا لم يمكن التأكد من صحتها ، وتنظيم سلوكنا على وفق ما يبدو لنا أنه قوانين راسخة ، وهى الطريقة التى يقول عنها « بيكون » : انها « تسيطر على الطبيعة وتخضع لها فى آن واحد » .. طريقة تسفر عن نتائج باهرة مدهشة لا يتطرق اليها الشك .

وبالنظر الى النهج التجريبى على انشاء علاقات دائمة بين ظواهر معينة ، على نحو ما تستطيع انشاءه القوة البشرية ، وعلاقات أخرى معينة (اذا أريد انشاؤها بصفة مباشرة) تزيد عن طاقة القوة البشرية ، فان المنهج التجريبى يمكن الانسان من أن يصير انسانا متفوقا . وعندما يضغط طفل فى معرض على زر ، فتدور كل الآلات ، فان عمله هذا انما هو رمز للقوة التى يضعها العلم تحت تصرف أضعف المخلوقات البشرية جميعا . ويا لها من قوة مدهشة ! وما أعجب أن تستطيع حشرة صغيرة هى الرجل ، رمى بها فى الكون فوق بقعة من طين ، أن تنجح فضلا عن قياس البعد بين بقعتها وغيرها ، فى تغيير مناخها ، وزراعاتها ، وحيواناتها ، فى غضون اشهر قلائل ! وما أعجب مقدرته على صنع آلات تدور به حول كرته الأرضية فى ساعات معدودة ، ومقدرته على التغلب على البرد والظلام والمجاعات ! .

على أننا نجد ، مرة أخرى ، أن المنهج العلمى لا يشرح لنا الكون ، ولن يستطيع أن يشرحه أبدا ، غير أنه بالنظر الى القوة التى وهبها للانسان فاستطاع بفضلها أن يتغلب على شتى الظواهر الطبيعية والكيميائية بل الحيوية أيضا ، فمن الطبيعى أن يسأل الكثيرون أنفسهم : لماذا لا يطبق على الكائنات البشرية فن للتفكير قد يقدر

له أن يحرز نجاحا باهرا فى دنيا المادة ؟ ولماذا لا يستخدم المنهج الذى مكن من انشاء المصانع الكبرى التى حلت فيها الآلات محل الرجال ، فى جلب السعادة الى أولئك الذين استغنى عنهم بهذه الصورة ؟ ولماذا لا يخلق الانسان المتفوق أيضا ، ذلك المنهج الذى خلق أجناسا من الحيوان وأنواعا مختلفة من الأزهار ؟ .

عندما حمى وطيس مناقشة سياسية بين نجلى اللورد « سالزبرى » حتى فقدوا أعصابهما ، التفت اليهما قائلا : « فلنفكر فى الامر من وجهة نظر كيميائية . ولنحاول أن ننظر الى المواد البشرية كأنها مواد كيميائية فى احدى التجارب . ولا يحاول أحد منكما أن يتكهن بنتائجها ، بل عليه أن يضع المواد الكيميائية فى البوتقة ويصهرها ويراقب ما يطرأ عليها من التفاعلات . فاذا هى أثبتت عكس ما نعتقد ، وجب علينا أن نغير ما نعتقد » . وعلى هذا النحو تكون المعتقدات العلمية ، فهل هذا ممكن ؟ وهل يجد الانسان فى العلم ، الكلمة الأخيرة فى فن التفكير ؟ .

***

بعد عدة عشرات من السنين حفلت بالآمال العظيمة ، توقع فى بدايتها « رينان » أن يرى عالمنا وقد سيطر عليه بالعلم اعضاء الأسرة البشرية ، وتخيل فى نهايتها « برتراند رسل » انه سوف تكون لدينا آلة نستطيع بها أن نعرف على وجه الدقة مواقيت أحداث الماضى والمستقبل — ينبغى ، للأسف ، أن ندرك أن المنهج التجريبى ، بعد ان منحنا تلك القدرة المدهشة ، التى سبق الحديث عنها ، على التغلب على العالم الخارجى ،

قد أسفر عن قليل جدا من النتائج الطيبة فى ميدان الحياة الخلقية والسياسية والاجتماعية . ومن السهل أن نفهم السبب فى ذلك :

ان القيام بالتجارب يتطلب أداء عمل محدد يمكن فيه « العزل الصناعى » ، فاذا نحن أردنا أن نعرف الحالة التى يجب تهيئتها لكى يغلى الماء ، فاننا نعزل مجموعة من العوامل : مصدر الحرارة ، والوعاء ، والسائل ، ونستعين بدرجة معينة من الضغط ، وننجح فى استبعاد معظم المؤثرات الخارجية . ولكن تجربة من هذا النوع لا يمكن اجراؤها فيما يعنى المجتمع الانسانى المعقد الذى يستحيل فيه عزل « عينة » بذاتها .

ولابد من تكرار التجارب اذا لزم الأمر ، كما يجب اثباتها بوساطة السلبى منها والايجابى . وهذا أمر عسير فى علم النفس ، ومستحيل فى علم الاجتماع .

أى حصيف من رجال الدولة ، ذلك الذى يحاول أن يحمل طبقة بأسرها من المجتمع على أن تنتظر حتى ترى ماذا عسى أن يحدث ؟ .

أى شيوعى ذلك الذى يوافق على عودة النظام الرأسمالى ، فى سبيل القيام بتجربة مضادة أمينة ؟ .

وأخيرا ، فان المنهج التجريبى يتطلب الاخلاص والنزاهة ممن يقوم بالتجربة . وهاتان الفضيلتان على ندرتهما فى التجارب العلميه التى لا موضع فيها لأعنف العواطف ، تصبحان فوق طاقة البشر اذا أثير مثل تلك العواطف .

على أن البحث العلمى عن الحقيقة يتطلب الا يتشبث العقل بايه نظرية تشبثا شديدا . « اذا كان أول واجبات

العالم هو أن يخترع جديدا فان واجبه الثانى هو أن ينظر اليه بازدراء » ، أو على الأقل ، أن ينظر اليه بغير اكتراث . ولكن الانسان هو الانسان . وقد تؤدى رغبة القائم بالتجربة فى اكتشاف قانون جديد ، الى اعتسافه دون قصد فى نتائج عمله ، على نحو يتفق مع ذلك الاكتشاف .

وفى الطب ، يعتقد كل اخصائى ، عن عقيدة فى معظم الأحيان ، أن كل مرضاه يشكون نفس الأمراض التى تخصص فيها . وقد يقول لك العالم النفسانى : ان كل أنواع الأمراض يكاد يكون مرجعها الى أسباب نفسية . واخصائى الغدد قد يكتشف مرضا من أمراضها ، حيث يجد اخصائى المعدة مرضا داخلا فى نطاق اختصاصه .

وما الطب ألا علم من العلوم . وهو يتناول أجساما بشرية معينة ، يمكن عزلها جزئيا أثناء القيام بتجربة ، اذا كان ذلك ضروريا . أما اذا كانت المسألة تتصل بمشاعر وانفعالات الملايين من الأجسام البشرية ، كما هى الحال فى الاقتصاد والسياسة ، فان الحقائق قد تؤيد أشد النظريات تناقضا . ويستطيع الانسان أن يقول ان التجربة قد حكمت بالاعدام على الاقتصاد الحر للقرن التاسع عشر ، لأنه انتهى بقيام النظام الجماعى فى زمننا . ولكن الانسان يستطيع أيضا أن يقول ان التجربة قد حكمت بالاعدام على النظام الجماعى ، لأنه فى سبيل انقاذ المجتمع الذى غزاه ، قد اضطر الى مواصلة السير على المبادىء التقليدية تقريبا لنظام الملكية الخاصة ، أو العودة الى العمل بتلك المبادىء تحت أسماء جديدة .

فهل من الممكن بناء القوانين على أساس مثل تلك التجارب ؟ .

من الواضح أن هذا مستحيل . فان الشيء الذى يضفى على تلك التجارب صبغة العلم ، هو عددها الضخم ، وأمكان تكرارها . وكل تجربة فى الاقتصاد تحتاج الى أجيال عدة . وما يقال له تجربة « روزفلت » ، وتجربة « بلوم » ليسا سوى حلقتين قصيرتين من التطور السياسى ، أبهظ ثمنا من أن توضعا موضع التنفيذ بمحض الرغبة ، وأضخم من أن توضعا تحت رقابة دقيقة ، وأشد تعقيدا من أن تكون لهما أية قيمة دراسية بالنسبة الى الأجيال القادمة ، التى لن تكون نظرتها الى المستقبل مماثلة أبدا لما جاء فيهما .

وكل ما هو صحيح فى الاقتصاد ، صحيح أيضا فى السياسة . لقد قيل لنا : « ان انجلترا قامت بالتجربة الديموقراطية » . غير أنه لا يمكن الوصول الى أية نتيجة علمية ، فهناك شعوب أخرى غير الشعب الانجليزى . الديموقراطية ليست سوى كلمة يجب أن تكتب تحتها حقائق ، والحقائق الانجليزية ليست حقائق فرنسية أو اسبانية أو ايطالية .

والديموقراطية الانجليزية من معانيها الحياةالسياسية الانجليزية ، والميل الى الجدل الحر، والتساهل، واتساع نطاق الحياة المحلية ، وحسن الادراك من جانب أرستوقراطية رحبة الآفاق ، ازاء الطبقة المتوسطة التى تخالطها دون تقيد ، والتفاهم بين البرلمان وبين وجهاء البلاد ، وبعبارة موجزة ــ ملكية دستورية .

والتمييز بين الديموقراطية والفاشية ، معناه التمييز بين كلمتين ، وليس بين حقيقتين ، أو تعريفين محددين . وبين الحرية التامة والسلطة المطلقة ، يمكن التكهن بل

التحقق من وجود أنواع لا حصر لها من المجتمعات .
فكيف يمكن أن يكتشف الانسان بطريق التجربة . ما اذا كانت الحرية أفضل من السلطة ، في حين أنه لا توجد اية وسيلة لتقدير مدى حرية شعب ؟ .

وليس معنى هذا أن حريات معينة ليست بالمرغوب فيها ، ولا أنه توجد حقائق سياسية للشعب فى أوقات معينة ، بل معناه أن هذه الحقائق يجب اكتشافها بطرق غير الطرق العلمية .

ولعله ينبغى للمرء أن ينظر الى المشاكل السياسية والاجتماعية من وجهة نظر « الكيميائية » ولكن لابد من الاعتراف بأن هذا يستحيل فى معظم الحالات . وهذا هو السبب فى ان رجالا كثيرين يستطيعون اقناع الغير حين يتحدثون عن خصوصياتهم . ولكنهم لا يلبثون أن يقولوا هراء بمجرد أن يبدأوا فى الحديث عن المبادىء العامة .

وعندما يقتضى الامر اصلاح جهاز كهربائى ، ف العالم الصغير الذى يمثله فى عقل المهندس يكون بمثا خريطة دقيقة الى درجة تجعله واثقا من معرفة كل الأسلاك والأزرار . غير أنه حين تقتضى الضرورة باعادة بناء دولة من الدول ، فانه لا يكون هناك رسم لحياتها الاجتماعية نستعين به على وضع خطة مؤكدة تؤدى الى الرخاء والسعادة . ومهما بلغ من توخى الدقة فى اتباع المنهج التجريبى ، فانه يكون فى مثل ضعف العقل البحت ، فى توجيهه لرجل من رجال الدولة ، أو رجال الصناعة ، أو قائد جيش .

ومع هذا كله ، فان هؤلاء رجال من واجبهم أن يتصرفوا ، وأن يتخذوا القرارات . فعلى أى شىء يبنونها ؟ .

يقول « ألين » كلمته الحكيمة : « ان العمل يجب أن يسبق الارادة » . واذا القينا بكلب صغير فى الماء ، فانه يسبح ، مع أنه لم يسبح أبدا من قبل . وهو يسبح لأنه صح عزمه على ذلك .

ونحن جميعا ، لدى ميلادنا ، حيوانات صغيرة ألقى بها فى خضم الأشياء ، ونحن نسبح بقدر ما نستطيع . وحين يبدأ الكاتب فى تأليف رواية ، لا تكون لديه فكرة دقيقة عما يريد أن يكتبه . ولو أنه عرف ذلك كلمة كلمة ، فان روايته تكون قد كتبت فعلا . وهكذا يلقى بنفسه فى الماء ، ثم يوحى اليه كل فصل بالفصل الذى يليه . وهكذا يسبق العمل الارادة .

على أن رسم الخطط يكون ضروريا فى بعض الأحيان . لكن رسم الخطط ، غير التنفيـــــد والرجال يضعون مشروعات جديرة بالاعجـــــاب : « لو أننى كنت وزير الطيران ! .. لو أننى كنت موسولينى ! .. » لوضع مشروع لتحقيق السلام الدائم !! عبث أطفال . ولقد نجح « ولسون » فى ذلك بعض النجاح . ولكن ، لصيانة السلام فى أوربا لمدة عامين أو شهرين ؟ معجزة تفوق طاقة البشر .

قال « جيته » : ان التفكير سهل ، والعمل عسير . وتنفيذ ما يفكر فيه الانسان فعلا ، هو أصعب شىء فى العالم . وقال « تولستوى » : ان انتاج عشرة مجلدات من الكتابة الفلسفية ، أيسر من تطبيق مبدأ واحد .

وفى الجانب الأعظم من أهم الأمور فى حياتنا نجـــــد أنفسنا مرغمين على أن نجد طريقتنـــــا بين مجاهيل من الأعمال غير معروفة المعالم . فأين مكان فن التفكير فى هذا ؟ .

لقد أوضحنا صواب التفكير الغريزى ، وحدود ميدانه الضيقة . ورجل العمل يحلم بالاكتشاف ، وفى حالات متناهية التعقيد ، كيف يحصل على الثقة بغريزته . وبعبارة أخرى : ان فن التفكير بالنسبة الى رجل العمل ، هو الفن الذى يجعل التفكير غريزيا .

ولا نقصد بذلك ابدا الى القول بأن رجل العمل يجب عليه ازدراء العقل — فهو ينبغى أن يفكر فيما ينوى عمله ويتكهن — كما فعل نابليون فى شبابه فى « طولون » — بالمشكلات التى سيكون عليه أن يحلها فى يوم من الأيام ، وأن يلاحظ كثيرا من الحقائق ، وان يستخلص قوانين من ملاحظاته .

ولكن هذا التفكير ، وهذه الملاحظات ، وتلك القوانين ، يجب أن تحفر فى داخل جسمه . يجب أن يوغل التفكير بعمق ، ويجب عليه أن يخف لتلبية دعوته على الفور . وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن يكتسب السرعة الخاطفة فى اتخاذ القرارات ، التى تتطلبها الحوادث دائما ، الا فى حالات قليلة نادرة .

تصور ما عسى أن يحدث حينما يحضر مريض الى طبيب كهل . انه قد يعمد الى ما يعمد اليه زملاؤه من طلب تحاليل . وهذه التحاليل قد تساعده ، فى البحث الذى تقوم به عقله الباطن . ولكن غريزته التى ولدتها آلاف الحالات التى لاحظها ، سوف تملى عليه تشخيصه للمرض .

والأسباب التى تجعله يشعر بالقلق أو الاطمئنان على المريض ، تكون كثيرة حتى انه كثيرا ما يجد من العسير أن يعبر عنها بالكلمات . وهو الى جانب عالم شاب

نابغة ، لن يبدو على كثير من العلم ، ولكنه « يعلم » ، وتكون أخطاؤه أقل من أخطاء الآخر فعلا .

والقائد العظيم فى حلبة القتال ، لا يعمد الى مألوف التعليل والموازنة . فان الحل يومض فجأة أمام عينيه ، بفضل علمه بالتاريخ ، وتجاربه ، وما يتلقاه من المعلومات . وهكذا يكرر « بيتان » فى معركة « شامبانى » مناورة سبق أن قام بها « ولنجتون » .

والكاتب العظيم ينقح صفحة كتبها ، بحذف عبارة أو كلمة ، أو بتغيير مكان احد الأفعال . ولو اننا حاولنا شرح السبب فى أن هذه التصحيحات تحسن سياق الكلام المكتوب ، لنجحنا فى ذلك دون شك . ولكن الكاتب ليست به الى ذلك حاجة ، لأنه اكتسب سليقة اللغة ، بفضل دراسته الطويلة الواعية لأساليب الكتاب الأعلام .

يقول « فاليرى » : ان أصعب الأشياء ليس العثور على الأشياء ، ولكنه استيعاب ما نجده . اننا لا نملك المعرفة حقا ، الا اذا هى قدمت نفسها الى العقل فى وقت الحاجة ، دون ما لا يتسع له الوقت من القياس والتدليل .

والعالم الداخلى بالنسبة الى رجل العمل العظيم يحتوى على صورة صادقة من تلك الأجزاء من العالم الخارجى التى سيحدث فيها عمله .

ورجل الدولة الحقيقى يحمل وطنه معه ، فهو يعلم خيرا مما يعلم موظفوه ماذا سيكون رد فعل الشعب . فقد اكتسب هذه المعرفة التامة بمواطنيه بفضل الملاحظة، والقراءة ، والتفكير ، والصلة الشخصية الوثيقة بمواطنين

من جميع الطبقات . وهذه المعرفة تعبر عنها قراراته السريعة العادلة .

والسـياسى الذى ليس له مريدون ، يعمد الى استشارة الصحافة ، والاحصائيات ، واللجان ، ومن العجيب أنه يقترف الأخطاء باستمرار .

والمعلومات ليست ثقافة . ففى عقل الرجل المتعلم حقا ، تنتظم الحقائق وتؤلف عالما حيا فى صورة تتفق مع عالم الحقائق .

ورجل الاحصاء يمزق الدنيا ويقتلها ، والشاعر يصب عالما فى قالب يمنحه الحياة . أما رجل العمل العظيم ، فيشبه الشاعر أكثر كثيرا مما يشبه رجل الموسوعات .

ولقد وضح الآن المعنى العميق الجاثم وراء هذين المثلين الشهيرين : « ان الرجل أقوى ممـا يعلم » . « الايمان يجب أن يسبق المعرفة » — ان من واجبنا ان نؤمن قبل أن نعرف ، لأن الفعـال يجب أن تسبق المعرفة .

وفن التفكير هو أيضا فن الايمان . لأنه ليس هناك كائن بشرى فى المرحلة الحاضرة من مراحل المدينة يمكنه أن يعيد البحث ، آمنا ، فى كل معتقـداته الفردية والاجتماعية ، أو يسلمها الى ضميره .

وتغيير آراء الانسان جميعا هو تحول يتطلب فراغا من الوقت لادراكه . ولكى يحيا الرجل حياة عمل ، يجب عليه أن يتقبل القوانين الأخلاقية والاجتماعية والدينية ، التى اعترف أسلافه بضرورتها .

وتغطى عقولنا طبقات متتالية ، أولها عقائد رجل

الفطرة ، وثانيهما أديان الأسيويين ، والاغريق ، والرومان، والمصريين القدماء ، وأكثر هذه الطبقات سمكا الديانة المسيحية ، أما أقلها سمكا فهـــو الأفكار العصرية التى تتصل بنظام الكون . ومن هذا كله خلقنا ، بآثارنا الفنية ، وتذكاراتنا ، وشعائرنا ، وأفكارنا . ولا يستطيع الانسان أن يتخلص من الماضى بأسهل مما يستطيع أن يتخلص من جسمه .

والتفكير الصحيح هو ذلك الذى توغل أسسه فى أعماق الطبقات الباطنة للفريزة ، فى حين ترتفع أبراجه وذراه الى آفاق العقل الصافية النيرة . ومثل هذا التفـــكير يخضع لقوانين المنطق ، التى هى قوانينه هو . ويراعى ، ما أمكن ، قواعد البحث العلمى التى أثبتت سلامتها بما أحرزت من الانتصارات . ويطمئن الى التقاليد الانسانية الباقية فى كل واحد منا . وأخيرا ، انه تفكير صادر عن جسم ، وعلى هـذا ، فانه لا يلبث أن يصـير عملا ، شعرا .

واذا كان على أن أشرح فى كلمات قلائل ، الصلة بين التفكير النظرى والتفكير العملى ، فانى أعتقد أن فى وسعى أن أستفيد من المقارنة الآتية :

فى وقت المعركة ، تتعاون الطائرات وقوات المشاة . فتعبر الطائرات خطوط العدو ، وتستكشف ، وتصل الى الأماكن المحتمل أن تكون فيها خنادقة . وعلى الطائرات أن تبعث باشاراتها الى قوات المشـــاة ، فتخبرها عن الاتجاه الذى يحتمل أن يكون الزحف فيه ممكنا . ولكن الطائرات لا يمكنها احتلال المنطقة ، وكثيرا ما تقع أخطـاء خطيرة قهرية فى الوصف لا تلبث المشاة أن تكتشفها فى زحفها المسير ...

والمشاة لا تستطيع الطيران فوق العوائق ، بل لابد من ان تدمرها أو تتسلقها . وقد يبدو بعض هذه العوائق من مكان قريب ، أخطر كثيرا مما اعتقدته الطائرات التى نظرت اليه من ارتفاع شاهق . فاذا ارتبكت قوات المشاة وسد العدو أمامها طريق التقدم ، كان دور الطائرات هو أن تظل متصلة بالمشاة ، بدلا من استمرارها فى تقدم لا يجدى ، وأن تدرك أخطاءها فى الاستطلاع ، وتجد وسيلة لتقديم مساعدتها . وبعد ذلك تبدأ الطائرات من جديد فى عمليات الاستطلاع . وبهذا يتحقق النصر آخر الأمر ، بفضل التعاون الدائم بين المحاربين على الأرض والمراقبين فى السماء .

وعلى هذا النحو يستطيع التفكير البحت ـ بل يجب عليه ـ أن يطير الى ما وراء مناطق قد احتلتها العادة والملاحظة فعلا ، حتى يبلغ مناطق لا تزال معادية . وهو بتفسيره الاشارات تفسيرا فرضيا ، يصف الأشياء التى يعتقد أنه قد رآها . ثم يجىء دور العمل ، الذى يحاول احتلال تلك المناطق بمساعدة الخطط التى رسمها التفكير . وهو ينجح فى ذلك أحيانا ، ولكنه يرتد مخذولا فى أحيان أكثر .

وعلى الفكر عندئذ أن يعترف بأخطائه ، ويتصل بالحقيقة الواقعة ، ويستبعد الخواطر المتباطئة التى قضت عليها التجربة ، ويقترح فروضا جديدة . وبغير التعاون المستمر بين الموازنة والتجربة والعمل لا يمكن الحصول ، لا على نصر دائم ـ فهذا ليس من طبيعة الأشياء ـ ولكن على لحظة راحة واستجمام فى ملجأ من تلك الملاجىء الهشة ، التى نسميها الحضارات .

هل تستطيع ان نرسم فى اذهاننا خريطة دقيقة للكون ، وان نصل الى الموانى التى يقع عليها اختيارنا ؟ .
يخيل لى أنه يمكن الاجابة على هذا السؤال بأن الفكر الانسانى لا يستطيع أن يرسم خريطة دقيقة للكون باسره ، ولا يستطيع ان يصل الى شواطىء اراضى الاحلام البعيدة التى جاءتنا بحديثها الأساطير .

ولكن الفكر الانسانى يستطيع – على نحو ما كان يفعل الملاحون فى العصور الأولى ، حيث كانوا يستعينون بمعلومات أسلافهم ويزيدون عليها ما كانوا يلاحظون فى النجوم ، وجزر البحر ومده ، والرياح – يستطيع الفكر الانسانى على هذا النحو ان ينطلق بشجاعة من حطام سفينة الى حطام أخرى فى كثير من البحار . ولم يسأل « أوليس » الحكيم آلهته اكثر من هذا ..

فن العمل

ما هو معنى كلمة « يعمل » على وجه التحقيق ؟ .

في قاموس « ليترى » ، نجد التعريف الآتي : « يعمل ، أي يتعب في أداء مهمة » .

ويبدو لنا أن هذا ليس بالتعريف الجيد . ألا يستطيع الانسان أن يشعر بالغبطة في العمل ؟ .

فلنطو القاموس ، ونتأمل بعض الأمثلة :

ان نافخ الزجاج يعمل . فماذا يصنع ؟ انه يتناول كتلة لا شكل لها ، فيعطيها شكل شيء نافع .

وماذا يصنع عامل المنجم ؟ انه يقتطع المواد الخام من تربة الأرض ، مثل الفحم والحديد ، ويعطيها رجالا فيحيلونها الى طاقة ، وحرارة ، وآلات .

وماذا يصنع الفلاح ؟ انه يحرث الأرض ، ويقوم باعدادها ، ويبذر فيها البذور .

وماذا يصنع الكاتب الروائي ؟ انه يضع في قالب قصصي ، المادة الناتجة عن ملاحظاته على الناس — وعلى نحو ما يصنع نافخ الزجاج ، كذلك يخلق هو عملا فنيا من الكتلة التي لا شكل لها من هذه المادة .

وماذا يصنع طالب العلم ؟ انه يحـــاول أن يستوعب المعرفة التى اكتسبها أولئك الذين سبقوه ، فهو ينظ عقله ، ويصنع نفسه .

ان العمل هو تحويل أو تحريك الأشياء أو المخلوقات بطرق تجعلها أكثر نفعا أو أكثر جمالا . وهو أيضـــ دراسة القوانين التى تسيطر على تلك التحويلات ، م حيث رسم مناهجها أو تطبيقها .

وعلى رغم تعدد أعمال الرجل وتنوعها ، فان هنا امثالا قليلة يجب أن تنطبق على جميع العـــاملين . يجب على المرء أن يختار ما يمكنه عمله . هناك حــدود معين لقوة الرجل وذكائه . فمن يريد أن يفعل كل شيء ، ا يفعل شيئا .

اننا نعرف جيدا أولئك المشكوك فى مقدرتهم الذي يقولون : « أستطيع أن أكون موسيقيا عظيما » ... « م السهل أن أصبح من رجال الأعمال » .. « يمكننى التأكي أن أنجح فى الســـــياسة » ... ولنا أن نثق من أنه سيصبحون فى كل الأحوال من هواة الموسيقى ، وفاشلي كرجال أعمال ، وسياسيين مغلوبين على أمرهم .

ولقد كان من رأى نابليون أن فن الحرب ينحصر فى أ يجعل الانسان نفسه أقوى الجميع فى ناحية واحدة وفى الحياة ، يجب أن نختار نقطة للهجوم ونركز عليهـ قواتنا .

واختيار العمل يجب الا يترك لمحض المصـــــادفة والاتفاق « لاى عمل أليق ؟ ما هى قدراتى الطبيعية ؟ هذا ما يجب أن يسأل المبتدىء نفسه . ولا فائدة م الاصرار على المستحيل . فاذا كان لك ولد لا يتطـــرف

الخوف الى قلبه ، فاجعل منه طيارا بدلا من أن تجعل منه رئيس مكتب . أما اذا تم الاختيار ، فلا ينبغى الأسف عليه الا اذا وقع حادث جلل .

وفى حدود العمل المختار ، سيكون هناك مجالا لأكثر من اختيار واحد . فالكاتب لا يستطيع أن يؤلف كل أنواع الروايات . ورجل الدولة لا يستطيع اصلاح كل وزارة . والرحالة لا يستطيع أن يزور كل بلاد العالم . وهنا أيضا يجب أن يستبعد المرء باصرار ، وبصورة قاطعة ، اغراء الاضطلاع بمشروعات هو غير كفء لها .

أنفق الوقت اللازم للاختيار ، لكن لا تتجاوزه . ان ضابط الجيش بعد أن ينتهى من التفكير بامعان فى نتائج الأمر الذى يوشك أن يصدره ، يضع حدا لتردده باصدار أمره بالتقدم .

وعلى هذا النحو ينبغى أن تضع أنت أيضا حدا لما يساورك من تردد . « ماذا عسى أن أفعل فى السنة القادمة ؟ هل أستذكر دروسى استعدادا لدخول هذا الامتحان ، أم الامتحان الآخر ؟ أم أسافر الى الخارج ؟ أم ألتحق بذلك المصنع ؟ » . من الطبيعى أن تدرس هذه الأسئلة بعناية ، ولكن يجب الوصول الى قرارات حاسمة فى موعد معين — وبعد ذلك ، لا أسف ، ولا تغيير .

ولتأكيد التقيد بالاختيار الذى تم ، يحسن بين الحين والحين ، تدوين برنامج ينص فيه على كل من النتائج المطلوبة فورا ، وتلك المطلوبة فى آخر الأمر . وعند الرجوع الى ذلك البرنامج ، بعد أعوام أو أشهر ، ندرك مدى قوتنا وحدودها . وهذا الجزء من المشروع ، الذى يتطلب عملا ناجزا ، يجب عزله ، كما يجب أن نركز عليه كل اهتمامنا .

افعل ما تفعل ، واقبل عليه بكل قلبـــك . كافح بجسدك وعقلك معا فى سبيل الوصول الى هدفك . وحين تصل اليه ، يمكنك أن تتباطأ فى السير ، وأن تستكشف الطريق المتقاطع مع طريقك ، وأن تمتع عينيك بالمنظر . ولـــكن اياك أن تستكشف أو تتباطأ ، قبل أن تؤدى المهمة .

والرجال المقبولون هم أولئك الذين يهتمون بكل شيء : الرجال الذين يفعلون الأشـــياء ، الذين يفرغون من مهامهم ، والذين فى فترة معينة من الزمن ، يحصرون اهتمامهم فى شيء واحد فقط . وفى أمريكا يسمون هذا النوع من الرجال « العقول ذات الطريق الواحد » . وان عزمهم الأكيد ، والأفكار المسيطرة على عقولهم ، لشيء يبعث على الضجر أحيانا ، ولكنهم يحرزون النجاح ، بفضل الهجوم المتكرر ، ازالة العوائق التى تعترض سبيل تقدمهم .

يجب على المرء أن يؤمن بأن النجاح غير مستحيل . واذا انت أحسنت اختيار الهدف ، فان قواك سوف تعينك على ادراكه ، الا فى حالات الطوارىء .

ومن العبث والخطـــر أن تضطلع بتحقيق غايات لا سبيل الى تحقيقها . والفشــــل قد يقضى على الثقة بالنفس ، وعلى النشاط . وقد نصح « جوته » للشعراء الناشئين بأن ينظموا قصـــار القصائد ، بدلا من طول الملاحم .

ويقول « ساموئيل بتلر » ان من واجبنا أن نأكل من عنقود العنب خير حباته أولا . ولعل من المستحسن أن يبدأ المؤلف كتابه الطويل المعقد ، بتسجيل أجزائه أولا .

والمهمة التى يبلغ من عظم طولها ان يستحيل انجازها فى مرحلة واحدة ، يحق تقسيمها الى مرحلتين ، ثم يركز كل الاهتمام على كل مرحلة على حدتها . ولا ينبغى أن ينظر الانسان الى ابعد من المرحلة التى هو بصددها ... على نحو ما يفعل متسلق جبال الثلج ، الذى يقتطع من الثلج ليشق طريقه خطوة بعد اخرى ، ويرفض أن يرفع نظره الى القمم ، أو يخفضه الى الأعماق ، لانه ان فعل هذا او ذاك ، لم يلبث أن يستولى الرعب على قلبه .

ان كتابة تاريخ شعب من الشعوب ، تبدو أنها مهمة تتجاوز حدود الطاقة البشرية . فلتقسمها الى فترات . وابدأ بالفترة التى تعرفها خيرا مما تعرف سواها ، ثم انتقل الى تاليتها . وسوف تعجب فى يوم من الأيام لانك وصلت الى نهاية مهمتك . وسوف تنظر بعين الدهشة الى ضخامة العمل الذى قمت بانجازه . وبعد تجارب متعددة يتشجع القلب ، ويصير التنفس اكثر انتظاما .

والمؤلف الذى كتب عددا كبيرا من الكتب لا يشك ابدا فى مقدرته على اتمام الكتاب الذى يبدأ كتابته . وهو يجسر ـ كما فعل « مارتن دى جار » و « دوهاميل » و « جول رومان » ـ على تكديس تل كبير من الكتب ، واثقا من بلوغ قمة ذلك التل فى يوم من الأيام .

وعلى هذا النمط يعمل الفلاح الذى يحصد القمح ، فانه لا يمتد ببصره الى نهاية الحقل البعيدة . وهكذا تفعل ربة البيت التى تأخذ على عاتقها تنظيف بيتها ، فانها تتناول كل أجزائه واحدا بعد الآخر .

والأحمق يظن كل شىء سهلا . فتوقظه من غفلته

صدمات عنيفة كثيرة . والمتخاذل يظن كل شيء مستحيلاً ، فلا يأخذ على عاتقه أن يفعل شيئا على الاطلاق . والعامل المجد يعلم ان الأشياء العظيمة مستطاعة ، ولا يلبث أن يحققها بهمته رويدا رويدا .

ولابد في العمل من نظام . والكثيرون يشكون من أن الحياة قصيرة ، ولكن هل هؤلاء الناس احياء ، حتى لمدة ثماني ساعات كل يوم ؟ .

ان كمية العمل التى يمكن أن ينجزها رجل يكون جالسا الى مكتبه فى فجر كل يوم ، أو فى محل عمله ايا كان ، الأشبه بالمعجزة . وهناك حقيقة جديرة بالتأمل : فلو ان كاتبا أنتج صفحتين فقط كل يوم ، لبلغ مجموع انتاجه بعد حياة طويلة ، ما يساوى فى الكم ، وليس فى الكيف بالتأكيد ، مجموع كتابات بلزاك أو فولتير .

غير انه لا يكفى الجلوس الى مكتب . فالانسان فى حاجة الى الهدوء .

والخط البيانى الذى يمثل العمل يصعد وفقا لمتوالية هندسية اذا لم تنتبه فترات انقطاع . وهذا صحيح بالنسبة الى الكاتب الذى يحتاج الى وقت ينسى فيه العالم الخارجي ويتفرغ لأفكاره وتصوراته . وهو صحيح أيضا بالنسبة الى المهندس الذى يحاول معرفة السبب فى اختلال آلة ، أو صاحب المصنع المشغول بطلبات عملائه . والعمل غير المتماسك تظهر فيه دائما آثار التعطيل .

وعلى هذا فمن واجب العامل أن يبتعد عمن يضيعون وقته . انهم لا يرحمون ، بل انهم ليأخذون ممن لا يقاومهم

آخر دقيقة من وقته دون أن يفكروا فى أنه لو ترك وحده الأنجز عملا قيما .

والرجل من هؤلاء لا يتورع عن مقابلة رئيس أركان حرب الجيش ، فى يوم اعلان الحرب ، ليتحدث اليه بشأن رتبة خادمه العسكرية . وهم يعمدون الى وسائل مختلفة لاضاعة وقت الغير ، منها الزيارة الشخصية ، والتليفون ، ورسالة البريد . ومن الخطأ الفادح ان يؤخذوا باللطف والصبر ، بل يجب أن يعاملوا بقسوة . واتخاذهم أصدقاء ضرب من الانتحار .

ولقد قال « جوته » كلمات حكيمة فى هذا الموضوع : « من الضرورى جدا أن تحمل الناس على الاقلاع عن عادة مفاجأتك بالحضور دون اعلان . فهم يصرون على أن تهتم بشئونهم ، كما أن زياراتهم تملأ ذهنك بأفكار غريبة على أفكارك . وأنا نفسى ليست بى حاجة الى مثل تلك الأفكار . وعندى فوق ما أستطيع عمله ، لأحمل افكارى الى غايتها الصحيحة » .

يقول لك مضيعو الوقت : « انك تكثر من الخروج ، وهذا حماقة منك ، فانك تهمل عملك ثم يضيفون الى ذلك قولهم : « تناول العشاء عندنا مساء غد » .

ولقد حدث أن استطاع أحد الثقلاء أن يقتحم منزل « جوته » برغم تعليماته الناهية عن مثل ذلك . ولكنه سرعان ما استولى عليه التردد بفضل البرود الذى عامله به الرجل العظيم . فقد وضع « جوته » يديه وراء ظهره ، ورفض أن يتكلم .

وكان من مأثور عادته أنه اذا كان زائره رجلا له شيء من الأهمية ، سعل قليلا ، وتمتم بعبارات غير واضحة

سرعان ما تضع حدا للحديث . ولقد كان يقسم خطاباته الى نوعين : خطابات أولئك الذين يطلبون شيئا (وكان يمزقها) ، وخطابات أولئك الذين يعرضون عليه شيئا . وحتى هذه لم يكن يرد عليها ، الا اذا كانت فيها عروض فيها شيء من الفائدة له .

وقد يقال ان مثل هذه الأنانية شديدة القسوة ، وان بين أشهر المشاهير من يرد على خطاباته ، وان بين الثقلاء من يستحق الاهتمام ، والعطف ، بل الود . ولقد شكا الكثيرون من هذه الصفة غير الانسانية من صفات « جوته » ، ولكن هذه الصفة هى التى مكنته من تأليف « فاوست » و « فلهلم مايستر » .

ان من يسمح لنفسه بأن يفترس ، سوف يفترس ، وسوف يموت قبل أن يؤدى عمله . ان الرجل الذى عنده رغبة ملحة فى العمل لا يطلب من الآخرين الا ما سوف يساعده . انه لا يعرض عن عمل يمكن أن يكون نافعا ، وفى استطاعته أن يؤديه جيدا ، ولكنه يجتنب المناقشات ، والاجتماعات ، وقاعات الاستقبال الحافلة بمخترعى العبارات . ويذهب « جوته » الى حد اسداء النصح الى مثل ذلك الرجل ، بأن يتجاهل الأحداث اليومية اذا لم يكن فى وسعه أن يفعل بصددها أى شيء .

ولو أننا أنفقنا ساعة من صباح كل يوم فى التحدث الى أنفسنا عن الحروب النائية ، وساعة أخرى فى التحسر على نتائجها المحتملة ، مع أننا لسنا وزراء ، ولا قوادا ، ولا صحفيين ، ولا أى شيء ـ فاننا بذلك لا نسدى أية خدمة الى وطننا ، بل نضيع أعظم شيء لا يمكن استمادته بين كل ما نملك ، وهو حياتنا القصيرة .

وهذا النظام فى العمل بالنسبة الى « جوته » قد امتد الى العاطفة . صحيح اننا لو أسلمنا انفسنا دون تحفظ الى دوافعنا العاطفية ، فاننا كثيرا ما نصبح عاجزين عن اى عمل . وهذه الدوافع طبيعية ، ولا يستطيع أحد ان ينصح الرجال أن يضحوا بحياتهم العـــــاطفية من كل النواحى فى سبيل عملهم .

ولكن هنالك قاعدتين يجب تذكرهما واتباعهما : الأولى انه يجب ألا نسمح لأنفسنا بالانصراف عن عملنا بسبب عواطف جوفاء أو مبالغ فيها (كم من الشباب فقــــدوا درجاتهم الجامعية بسبب نزوة حب لغانية !) . والقاعدة الثانية هى التضحية بـكل شىء فى سبيل العمـــل الذى يستحق مثل هذه التضحية .

وعلى هذا النحو ضحى « بروست » بحياته فى سبيل اتمام روايته . وعلى هذا النحو أيضا يضحى الزعيم الوطنى فى زمن الحرب او عند حدوث ازمة مستعصية ، بكل شىء .

ولقد خنق « جوفر » عواطفه ، وشكا بعض أصدقائه من جفائه . ولكن هذا الجفاء قد مكنه من اعادة اقليم « المارن » الى ما كان عليه .

وكل عظماء العاملين ، أو جلهم ، يعرفون كيف يعتزلون العمل بين الحين والحين . فهم يملكون منازل فى الريف ، واستراحات فى الجبال ، واكواخا على شاطىء البحر ، حيث يتحررون من كل التبعات ، حتى نحو من تربطهم بهم روابط الود والصداقة . وهناك فقط تحتـــــل الأحداث والعواطف موضعها الصحيح من الصورة الهائلة الشاملة .

ففي ضوضاء مدينة صاخبة ، نجد أن مسرحية ، أو مقالة في صحيفة ، أو شيئا من الثرثرة السخيفة ، تبدو على جانب من الأهمية ، فهى تحتل مكان العمل والتفكير الجدى . وتحت الأنجم الساهرة الى الأبد ، ترتد الاشياء التافهة الى الظلام ، وتختفى عن الأنظار . وعندئذ ، فى سكون الليل والروح ، تنهض أسس الصروح الشامخة ، على أرض أزيلت عنها الأقذار والأكدار .

يقول « ياريه » : « أيتها الوحدة : انك انت وحدك لم تنزلى قدرى » . ويجب أن يضاف الى هذا : انت وحدك لم تضعفينى .

***

لقد تحدثنا عن العامل الذى يختار عمله بنفسه ، وله الحرية فى ادائه أو الانصراف عنه ، ويجب عليه أن يضع نظامه بنفسه ، لأن احدا آخر لا يستطيع ان يفعل ذلك .

وينبغى لنا الآن أن نشير الى أولئك الذين ليسوا هم انفسهم خلاقين ولا زعماء ، بل ينحصر عملهم فى مساعدة مثل أولئك الأشخاص . ومن هذه الطبقة مرافقو القواد العسكريين ، ورؤساء أركان الحرب ، ورؤساء الادارات ، والسكرتيرون ، الذين يجب عليهم اتباع تعليمات معينة . وهذه التعليمات يجب اتباعها بدقة ، حتى لا تنشأ أية صعوبة أمام أولئك الذين من واجبهم ان يصدروها . وهذا يتطلب صفات شخصية خاصة .

فان الرجل الذى يعمل مع آخرين مؤتمرا معهم بأوامر رئيس ، يجب أن يكون خاليا من الغرور . فاذا كانت قوة ارادته أكثر مما ينبغى ، وكانت افكاره تتعارض مع أفكار رئيسه ، فان تنفيذ الأوامر يكون دائما موضع

شك ، بسبب محاولته تفسير تلك الأوامر في ضوء افكاره الخاصة . والثقة بالرئيس ينبغى أن تجمع شمل مرءوسيه .

ومن الواضح ان الطاعة لا يجوز أن تنقلب الى عبودية . فان رئيس أركان الحرب ، أو رئيس أحد الأقسام ، ينبغى أن يكون فى وسعه اذا رأى ــ خطأ أو صوابا ــ ان رئيسه يرتكب غلطة فاحشة ، أن يصارح بذلك فى شجاعة . ولكن هذا النوع من التعاون لا يكون له اى أثر الا اذا كان وراء مثل هذه الصراحة اخلاص واعجاب صادقان . فاذا كان الضابط الصغير لا يعترف بأن رئيسه أكثر تجربة منه وأقدر منه على صحة الحكم ، فانه يقدم اليه أردأ خدمة . وانتقاد المرءوس لرئيسه يجب أن يكون عرضا ، بدلا من أن يكون عادة .

يروى المارشال « بيتان » كيف انه فى غضون الحرب الأخيرة ، اقترحوا عليه أن يلحق ضابطا جديدا بهيئة أركان حربه ، فمضى به الى الريف ، وعرض عليه مسألة فى علم الخطط الحربية فأشار بنفسه الى طريقة حلها فلو أن الضابط وافق على ذلك الحل ، ودل بهذا على أنه رجل من ذلك الطراز الذى لا يعرف كيف يقول « لا » ابدا ، لرفض المارشال أن يقبله . ولكنه على العكس من ذلك ، انتقد آراء القائد العظيم باحترام ، ولكن بتصميم، فنال بذلك تهنئته ، وظفر بالمنصب .

ويضيف المارشال الى ذلك قوله : « ان المشكلة هى أن الواقعة ما لبثت أن شاع خبرها بين كل رجال الجيش ، فلم يكن فى وسعى أن أفتح فمى حتى يبادرنى أصغر الضباط بقوله فى حماسة : « كلا يا سيدى المارشال ! » .

ولقد أفلت منى زمام أعصابى مع واحد منهم . ولم يحدث ذلك بعدها أبدا » .

ماذا يجب ان يفعل المساعد ، اذا كان يعلم انه على صواب ، ولكن رئيسه يرفض الأخذ بنقده ؟ .

يجب أن يطيع الأمر بعد أن يعرض اعتراضاته . فلا يمكن أن يكون هناك عمل جماعى ، دون أن يكون هناك نظام . فاذا كان الأمر بالغ الخطورة الى حد أنه قد يؤثر على مستقبل أمة أو جيش أو مؤسسة تجارية ، كان لصاحب النقد أن يقدم استقالته . ولكن هذا الاجراء يجب أن يكون آخر سهم فى جعبته ، فما دام الرجل يعتقد انه يستطيع أن يكون نافعا فى عمله ، وجب عليه أن يبقى فيه .

والتهديد بالاستقالة يكفى فى بعض الأحيـان . ولـكن تقديم الاستقالة قد يتكرر أكثر مما ينبغى .

عندما كان « ليوتى » قومندانا شابا يتلقى أوامره من الكولونيل « جالينى » ، علمه الأخير ، فى بادىء الأمر ، فن الاستقالة . ففى كل مرة يرفض فيها القائد العام للهند الصينية اصدار أمر طلبه الكولونيل « جالينى » كان الأخير يقدم استقالته . وبالنظر الى شدة الحاجة اليه ، كان مصير الاستقالة الرفض ، ومصير طلبه الموافقة . وفيما بعد ، فى مدغشقر ، عندما كان « جالينى » هو القائد الأعلى ،حدثت مشادة بين الرجلين ، فقدم أصغرهما استقالته ، وبعد أيام قلائل أعيدت اليه وعلى هامشها : « كلا ! كلا ! ليس الى — جالينى » .

ومن واجب رئيس أركان الحرب ، أو رئيس القسم ،

أو السكرتير ، أن يروض نفسه على أساليب رئيسه فى العمل والتفكير . ويحدث أحيانا أن تكون الأوامر غامضة ، وعندئذ يكون عليه أن يتولى مهمة تفسيرها . ولقد كان « فيجان » يقوم بتفسير أوامر رئيسه المارشال « فوش » .

فاذا كانت تلك الأوامر عبارة عن ملاحظات عامة تلقى شيئا من الضوء على المستقبل الغامض ، فانه يكون من واجب رئيس الأركان أن يستخلص منها تعليمات مفصلة . وعلى هذا النحو استخلص « برتييه » من فكرة الامبراطور تعليمات تقضى بتحرك القوات .

واذا كان الرئيس حاد الطبع ، كان على رئيس القوات أن يطيب خاطر المرءوسين الذين يؤذى شعورهم أو يهاجمهم ، وأن يحذر الزوار سرا من الموضوعات التى يجب عليهم اجتنابها .

وفى الحرب الأخيرة ، التحقت بهيئة أركان حرب قائد انجليزى ، كضابط اتصال . وكان هذا القائد عظيم القدرة على التنظيم ، وكان فى جوهره رجلا طيبا من كل ناحية . ولكنه كان مكتئبا متقلب المزاج حتى أن ضباطه أطلقوا عليه اسم « الجنرال الأسود » .

وبفضل مصادفة سعيدة ، هى كونى فرنسيا ، لم تكتب لى النجاة من ثورات غضبه وحسب ، بل كان يعاملنى معاملة ودية كريمة ، ويدعونى لتناول الشاى معه على انفراد فى عصر كل يوم . وفى أحاديثنا الودية ، كان فى وسعى أن أتحدث اليه عن أى شىء . ولم ألبث رويدا رويدا حتى وجدت أننى أحمل اليه رسائل لا حصر لها من ضباط بريطانيين ، بعضها خاص بالعمل وبعضها

الآخر خاص بأشخاصهم ووظائفهم . وكان هؤلاء الضباط يطلبون الى أن أطلع « الجنرال الأسود » على حقائق ما كان ليصغى اليها لو أنهم أطلعوه عليها بأنفسهم . ولقد تبينت من ذلك مدى الخدمات الجليلة التى يمكن اسداؤها الى الأفراد والجماعات ، عندما يضع رجل واسع النفوذ ثقته فى شخص ما .

ونزوات الرجل العظيم يجب احترامها . لأن الوقت اللازم لمحاربتها أثمن من أن يضاع . فرئيس القسم ، ورئيسه ، قد يصلان الى حالة من حالات التكافل والتعاون .

والموظف اللبق يعرف الكلمات التى لا ينبغى له أن يذكرها فى حضرة رئيسه ، لأنها تثير فى نفسه عقدا أو ذكريات أليمة ، أو تهيج غضبه . وهو يعرف كيف يعرض الموضوعات بحيث يهتم لها الرئيس ويعطى فيها آراء رضية . وهو أيضا يدرك بوضوح أخطاء الرئيس ونواحى ضعفه ، ولا يقلل من احترامه له لهذا السبب ، بل يبذل غاية جهده كى يسد الثغرات .

والعمل تحت رياسة كبار الموظفين ، يجعل الشبان الذين لم يتعودوا المسئولية أو النفوذ أو اعطاء الأوامر ، على صلة مباشرة بمشروعات وقرارات على أعظم جانب من الخطورة . وفى مثل هذه الظروف الخاصة ، لابد من توخى الكتمان .

فالشاب ، أو الشابة ، بدافع من الزهو باتصاله بالشئون الهامة ، قد يستهويه أن يباهى بين اخوانه بأخبار العمل الذى يقوم به . فى حين أن من واجبه ألا يتحدث عنه ، فقد ينجم عن مثل ذلك الاستخفاف ضرر لا حد له .

وعلى اى حال فان هناك متاعا ينطـــوى عليه الحرص والتكتم . ولا شيء أكثر اثارة للنفس من أن يكون الانسان مستودع أسرار ، يعرف الحقيقة ، ويخفى معرفته بها .

وما كان أبرع مدام « ريكامييه » فى ذلك ! ففى وقت ما ، كانت مستودع أسرار زعماء أحزاب متعارضة ، أو رجلين يتنافسان على منصب ، أو أسرار مؤلف ونقاده .. كانت تصغى ، وتبدى اهتمامها ، وتعتـــذر عن أحدهم للآخر اذا لزم الأمر ، ولكنها لم تكن تفشى سر أحـــد . كان دورها ينحصر فى معظمه فى الاجابة على قليل من الأسئلة ، ولكنه كان دورا نافعا ، وقد قامت به بطريقة تبعث على الاعجاب .

وعلى المساعد الا يكتفى بالحصول على مجرد المعلومات طاوبة وحسب ، بل عليه أيضا أن يحصل على المعلومات التى قد تلزم فيما بعد . ومن واجبـــه أن يتكهن بأفكار رئيسه ، ويمهد السبيل الى تحقيقها ، وأن يتخلص من الوساوس التى لا ضرورة لها ، وأن يتولى بنفسه ترتيب صغار الأمور ، ويسهل ذلك العمل الرتيب الذى يجثم على صدر حياة كل رجل ذى أهمية .

والسكرتيرة المرأة ذات الـــكفاءة ، هى خير مساعد . الدور الذى تقوم به غير مقصور على تسجيل ما يملى عليها ورقم الرسائل على الآلة الكاتبة . بل عليها أن تحفظ الرسائل والردود فى ملفاتها الخـــاصة ، وأن تختزن العناوين فى ذاكرتها وأن تجعل من نفسها فهرسا يمشى على قدمين . كذلك يجب أن تتحلى بكل فضائل رئيس القسم ، وكل فضائل المرأة أيضا . وهى بوصف كونها امرأة ، يكون من مزاياها المقدرة على التكهن ، والمحافظة

على تقدير رؤسائها لأنفسهم ، واشاعة روح الرضا فى جو المكتب . ومن واجبها فى نفس الوقت، لا تجعل انوثتها شيئا واضحا ، لأنه اذا تنبه الى انوثتها أحد رؤسائها أكثر مما ينبغى ، اثر ذلك فى العمل تأثيرا سيئا . وهو توازن عسير ، ولكن الاحتفاظ به ممكن .

***

ولقد ظل الناس زمنا طويلا وهم ينظرون الى العمل باعتباره عارا وعقوبة الهية . « من عرق وجهك سوف تأكل الخبز » . وكان العمل اليدوى ، والكثير من العمل الذهنى ، من واجبات العبيد .

وفى روما ، كان علماء قواعد اللغة ، والرياضيات ، من العبيد . وفيما بعد ، أراد النظريون أن يقسموا الرجال طبقتين : كادحين وأعيانا . أما الأولى فقوامها من يكسبون أجر أعمالهم ، وأما الثانية فقوامها من يعيشون على دخلهم أو أرباحهم ، ولكنها كانت تفرقة غامضة .

فمدير المصرف الذى يدر عليه منصبه مائتين الف من الفرنكات فى السنة ، كان يعتبر حينذاك من أبناء الطبقة الكادحة . فى حين أن صاحب الحانوت الصغير ، أو صاحب الملكية الزراعية المحدودة ، الذى لا يكاد دخله يبلغ عشرة آلاف من الفرنكات سنويا ، كان يعتبر من الأعيان .

ولقد اقترح « آلين » تعريفا أعتقد أنه اذا لم يكن صحيحا كل الصحة ، فهو على الأقل أقرب الى الكمال . فهو يطلق اسم الكادحين على من يعيشون من عملهم ، يدويا كان أو عقليا ، ويطلق اسم الأعيان على كل من يعيشون من كلامهم .

فالمحامون ، والنواب الاشتراكيون ، والمتسولون ، يسميهم الأعيان ، لأنهم يكسبون رزقهم من طريق اقناع الآخرين أن يدفعوا لهم المال . والبناءون والصناع والمهندسون والكتاب المجيدون ، كادحون ، لأنهم ليست بهم حاجة الى اقناع ، فان جودة عملهم كافية لأن تروج سوقه . وصاحب المصنع الكبير من الكادحين أيضا اذا كان يكسب أمواله من طريق معرفته الفنية وحدها ، ولكنه يكون من الأعيان اذا كان نجاحه راجعا الى صداقاته وعلاقاته مع كبار رجال الأعمال .

ويقول «آلين» ان لدينا لهذا السبب ، حالتين ذهنيتين مختلفتين أشد الاختلاف . فالكادح الذى يعمل على الطبيعة ويقوم بتحويلها ، ليست به حاجة الى لطف الطباع ، ولكنه محتاج الى المقدرة على التغلب . فهو لهذا خشن الطبع يزدرى التأدب ، وهو يرتدى من الملابس ما يتفق مع مقتضيات عمله ، دون نظر الى اعتبارات الأزياء على الاطلاق .

والرجل الذى ينتمى الى طبقة الأعيان فى رأى «آلين» ، رقيق الحساسية ، يحاول أن يوجه العبارات السارة الى أولئك الذين هم مصدر رزقه : كالناخبين ، أو جمهرة المستمعين ، أو الأصدقاء . وملابسه ينبغى ألا تدعو الى النفور .

وفى قصيدة رائعة من عيون الشعر ، يصور « كبلنج » العلاقة البعيدة الغريبة ، بين أبناء « مارثا » ، الذين يصنعون الأشياء ، وينشئون الجسور ، ويرصفون الطرق ، ويقودون الطائرات ويسوقون القطارات .. وبين أبناء « مارى » ، الذين ينامون على سرر وثيرة فى « عربات

النوم » الفاخرة ، وتسهر على راحتهم جهود الآخرين .

وكل تقسيم للكائنات البشرية الى مجموعتين ، أو بالأحرى طبقتين ، هو مصدر خطر ، كما أنه فى مجموعه شيء مفتعل . فالشاب من طبقة الأعيان قد يكون فى ميوله وسلوكه من طبقة الكادحين ، ولا يجد سعادته أبدا اذا ابتعد عن المحركات الآلية . كما أن مهندسا ميكانيكيا قد يكون واحدا من أبنـــاء « مارى » اذا سافر ، حيث يحل محله فى مصنعه واحد من أبناء « مارثا » .

ومهما يكن من شيء ، فلا شك فى أن البعض ليست بهم حاجة الى مزاولة أشق الأعمال ، فى حين أنهـــا ضرورة يومية لا غنى عنها لبعض آخر من الناس . وعلى هذا النحو تنشأ الكراهية العميقة بين هؤلاء وهؤلاء . فهل يمكن التغلب على شر قديم قدم الجنس البشرى ؟ لقد فشلت الثورات فى ذلك دائما ، وسوف يتوالى فشلها دون استثناء ، لانها لا تضع موضع الاعتبار ، لا الرجل الخالد ، ولا أصدق النظريات جميعا : نظرية الخطيئة الاولى .

غير ان من المحتمل أن يسفر تقدم صناعة الآلات ، بعد أن جعل حياة الرجل العامل أكثر ارهاقا وأشد املالا ، عن التقريب بينها وبين حياة طبقة الأعيان . ولقد شهدنا فعلا فى غضون مائة من السنين ،كيف انخفض عدد ساعات العمل اللازمة للادارة العامة للأعمال بمقدار الثلث .

والعمل الذى يتطلب مقدارا هائلا من القوة ، سوف يعهد به الى الآلة بصورة متزايدة . صحيح أن الآلات قد حلت محل العمال المدربين الأذكياء ، ولـــكن هذه فترة انتقال وحسب ، استعيض فيها عن اليد العاملة بنظـام

« السير » الآلى . وفى يوم من الأيام ، سوف يتولى الانسان الآلى أمر الاشراف على « سير » الآلة ، أما العامل الذى سيكون دوره مقصورا على مجرد المراقبة ، فانه سوف يصبح مهندسا .

وأهم ما ينبغى تذكره فيما يتصل بالعمل اليدوى هو : مهما يكن من بساطة العمل أو تعقيده ، فانه يمكن أن يؤدى أداء جيدا أو رديئا . فهنالك طرق بارعة وأخرى عقيمة لحفر خندق ، كما أن هنالك طرقا بارعة وأخرى سقيمة ، لتحضير محاضرة .

والكاتبة على الآلة الكاتبة قد تؤدى عملا ممتازا أو عملا لا بأس به وحسب . والمدار فى ذلك على طريقتها ، وعلى اهتمامها بعملية الكتابة على الآلة ، وعلى المسافات بين العناوين ، وحجم الصفحات ، ومدى عنايتها باعادة القراءة . وهى اذ تحاول أن تجعل عملها أحسن قليلا مما هو مطلوب منها ، تصبح فنانة على الفور ، وتجد أنها تكافأ على جهودها الاختيارية بشعور دائم بالرضا العميق . فهى لم تؤد ذلك العمل من أجل مخدوم ، بل من أجل احترامها لنفسها ، ومن أجل لذتها هى ، ولهذا فقد قامت بأدائه بمحض حريتها .

ولذة العمل قد تصير كاملة الى درجة أنها تحتل مكان كل لذة أخرى ، وفى المحاولات التى أبذلها كى أتصور الجنة ، لا تخطر على بالى أية صورة لمكان فيه ارواح مجنحة لا عمل لها سوى أن تعزف ألحانها وتغنى ، بل صورة غرفة مكتب أعمل فيها بغير انقطاع ، فى كتابة قصة رائعة لا نهاية لها ، بالقوة الدائبة والمثابرة اللتين قلما قدرت عليهما وأنا على وجه الأرض .

وجنة البستانى حديقته ، والنجار محل عمله .

ومن أروع الأمثلة على مزج العمل اليدوى بالعمل العقلى ، مثل ربة المنزل حين يصح عزمها على اداء واجباتها . والمرأة التى تحسن تدبير منزلها ملكة له ، ورعية ، فى آن . فهى الشخص الذى يجعل العمل ممكنا بالنسبة الى زوجها والى أطفالها ، وهى تحميهم من القلق ، وتطعمهم وتعنى بهم . وهى وزيرة المالية ، وبفضلها تتزن ميزانية البيت . وهى وزيرة الفنون الجميلة ، واليها يرجع الفضل ان كان فى البيت شىء من الجمال . وهى وزيرة التربية العائلية ، فهى المسئولة عن التحاق الفتى بالمدرسة والجامعة ، وعن براعة الفتاة وثقافتها .

ويجب أن يكون فخار المرأة بنجاحها فى جعل بيتها عالما صغيرا ممتازا ، موازيا لفخار رجل الدولة بنجاحه فى تنظيم شئون دولته .

ولقد كان المارشال « ليوتى » على حق حين قال : انه لا عبرة بمسائل المقاييس .

فالشىء الممتاز ، ممتاز ، بغض النظر عن أبعاده ، ولا راحة للنساء ، الا فى العائلات ذات الثراء العريض . واجازة يومين من المتجر أو المصنع ، معناها قضاء يومين فى التنظيف ، والغسل ، والاصلاح ، والعناية بالأطفال .

وهنالك دائما اشياء يجب التعجيل بعملها ، ويجب ان يضاف الى تلك الأشياء ما تبذله من الجهود لكيلا تبدو دميمة ، وكى تحسن ارتداء ملابسها ، وكى يستنير

عقلها . وعمل المرأة ، أن هى اتقنته ، لا يترك سوى القليل من لحظات الفراغ . غير أن مكافآته ناجزة .

وما أعجب أن يرى الانسان كيف أن المرأة بقليل من المال وكثير من الشجاعة ، تستطيع أن تحيل الكوخ الحقير بيتا جميلا تحلو الحياة فيه ! وهنا يلتقى فن العمل وفن الحب .

***

وهناك فن للتعليم بغير شك . وهو فن محفـــوف بالصعاب ، ويتطلب تجربة طويلة . ونحن ندرك هذا فى اللحظة التى نحاول فيها السيطرة على سلوك أطفالنا . ولا يكون الوالد معلما مجيدا الا فى النادر . فهو قد يظن أنه يعلم الأشياء ثم يكتشف ضآلة ما يعلمه ، وقد يعلم ولكنه يسىء الشرح . وقد يكون قاسيا ضيق الصدر لأن التعليم يملأ نفسه ضجرا . وقد يكون مسرف الحنان الى درجة تنذر بالخطر ، لأنه يحب أطفاله حبا بالغا . ومن واجبنا أن نتعلم قواعد فن التعليم من المعلمين المحترفين الذين نجحوا فى فنهم .

ولا يمكن أن يكون هناك تعليم بغير نظام . فيجب أن يتعلم التلميذ أولا كيف يعمل . وتدريب الارادة يجب أن يسبق تدريب العقل . وهذا هو السر فى أن التعليم المنزلى لا يقدر له أبدا أن يحرز نجاحا باهرا . فالاعتذرات تقبل بأكثر مما ينبغى من السهولة : الطفل يشكو صداعا ، انه لم ينم جيدا ، هناك حفل فى مكان ما .

أما المدرسة فانها لا تسامح ، وهذه هى ميزتها . وأنا أميل الى نظام المدرسة الداخلية . مع أن له بعض العيوب الجدية . فهو قد ينجم عنه انحراف الخلق ، كما أنه نظام

قاس على الدوام ، ولكنه يصنع رجالا . وهو يرغم الأولاد على أن يجدوا أماكنهم بين الجماعة . أما فى محيط الأسرة فانهم يجدون أماكنهم ممدة لهم . وهذا أسهل مما ينبغى لهم . وفى حالات الضرورة القصوى ، واذا كان الوالدان يتصفان بالحكمة ، تكون المدارس النهارية مرضية حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة لأن اطلاق الحرية للشبان بين السابعة عشرة والعشرين فى مدينة كبيرة ، أمر ينطوى على أشد المخاطر .

والتسلية ليست تعليما . فالهدف من التعليم هو انشاء هيكل من المعرفة فى ذهن الطفل ، والاقتراب بالطفل تدريجا من مستوى الذكاء المتوسط بقدر الامكان . وفيما بعد ذلك من مراحل الحياة ، تتولى الحقائق المكتسبة من التجارب ، والمكتشفات الجديدة ، اضافة نفسها الى ذلك الهيكل .

ومن الخطأ ان يحاول أحد قلب هذا النظام الطبيعى ، والتوسل الى عقل الطفل من طريق استهوائه بمشاهد الحياة العصرية . والتعليم بوساطة الصور والراديو وافلام السينما عديم الأثر فى حد ذاته . ولا ينبغى الالتجاء الى هذه الوسائل ، الا اذا احتوت — وهذا ممكن — بعض الجهود أو التحمس بصفة خاصة . فما يتعلم بغير عناء سرعان ما ينسى . ولنفس السبب نجد أن التلقين الشفاهى الذى لا يتطلب مساهمة شخصية من التلميذ ، يكاد يكون غير ذى جدوى فى كل الأحيان . والاصغاء ليس عملا يؤديه الانسان . وهذا بطبيعة الحال لا ينطبق على تعليم اللغات الحية .

وللتعليم الأولى اكبر نصيب من الأهمية . غير الوالدين

كثيرا ما لا يعلقون أهمية كافية على الدراسات الاولية . والواحد منهم يقـول فى ذلك : ان ابنى لا يعرف كيف يعمل ، ولكنه لا يزال صغير السن .

والواقع أن كل شيء يتوقف على موضوعات قليلة يجاد تلقينها منذ البداية . والالمام التام بالقراءة والـكتابة والحساب ، ميزة عظمى . ومعظم الناس لا توجد لديهم هذه المعرفة الأولية . وكثيرون من الرجال يقرأون قراءة رديئة يتجشمون فيها عناء . والكلمات لا توحى اليهم فور قراءتها المعانى التى تمثلها . والرياضيات اما أن تعتبر صعبة جدا واما سهلة جدا ، وفقا للطريقة التى تم بها تلقين مبادئها . والمعرفة الناقصة بأولى نظـريات الهندسة أو مبادىء علم الجبر ، تجعل من المستحيل فهم ما يجىء بعدها .

وتعليم القليل من الأشياء جيدا ، خير من تعليم الكثير منها تعليما ناقصا ، والمنهج الدراسى اذا اكتظ بالمواد اكثر مما ينبغى ، أصبح لا فائدة منه . وليس هـدف التعليم صنع فنيين متعلمين ، بل صنع عقـول عاملة جيدة . ومن أجل هذا لا غنى عن نظام خاص .

قال نابليون : ان تعليم اللغة اللاتينية والهندسة يأتى فى المكان الأول . أضف الى ذلك قليلا من التاريخ ، والكثير من اللغة القومية بطبيعة الحال . وهذا يكفى .

وفى التاريخ والعـلوم ، ليس من الضرورى أن يلم التلميذ بأحدث المكتشفات والنظريات ، ولكن يجب أن يفهم ما هى الأساليب التاريخية والعلمية . والأعمـال البسيطة نسبيا ، التى قام بها العلماء السابقون فى الزمن ،

أكثر وضوحا وفائدة له من الدقة المتناهية التى يتوخاها العلماء الطبيعيون المحدثون .

قال « آلين » : ان التعليم يجب أن يكون وئيد الخطى عن عمد وسبق اصرار . وهذه العبارة حافلة بالمعانى بالنسبة الى بعض رجال التعليم العصريين ، الذين يميلون ميلا محفوفا بالمخاطر الى اهمال القديم من ثقافةالأجناس، التى هى بمثابة أساس ضرورى فى التعليم بأسره ، ويميلون الى الاعلاء من قيمة مبادىء وأحداث لم يطل بها العهد .

والمعلومات ليست ثقافة . والشاب محتاج الى الثقافة أكثر جدا من حاجته الى المعلومات .

***

هل يمكن أن نسمى القراءة عملا ؟ .

ان « فاليرى لاربو » يقول : انها رذيلة لا يعاقبون عليها . وعلى العكس من ذلك ، يقول « ديكارت » انها محادثة مع أشهر أهل الماضى . وكلاهما على صواب .

فالقراءة تصبح رذيلة حين يلجأ اليها الانسان بوصف كونها نوعا من أنواع المخدر ، يحرره من دنيا الواقع ، وينتقل به الى دنيا الخيال . والمصابون بهذه الرذيلة يقرأون باستمرار ، وكل شىء فى نظرهم حسن ، والواحد منهم قد يفتح مجلدا من موسوعة ويقرأ فصلا عن فن التصوير بالألوان المائية ، بنفس الشراهة التى يقرأ بها فصلا عن الأسلحة النارية . فاذا هو ترك وحده فى غرفة ، فسرعان ما يتوجه الى حيث توجد كومة من الصحف والمجلات ، ويستغرق فى قراءة أى شىء بدلا من ان يترك لأفكاره هنيهة .

وهذا النوع من الناس لا ينشد أفكارا ولا حقائق ، بل ينشد مجرد سلسلة لا نهاية لها من الكلمات تحول بينه وبين مواجهة العالم ، أو نفسه ، وهم لا يخرجون من القراءة الا بأقل القليل ، وهم لا ينصبون ميزانا للقيم ، على أساس المصادر المختلفة للمعلومات . والقراءة على نحو ما يمارسونها ، عمل سلبى ، فهم يتنقلون من صفحة الى أخرى ، دون تعقـــل ولا تدبر ، ودون أن يفردوا للصفحات فى عقولهم فراغا ، ودون استيعاب لها على اية صورة .

والقراءة بقصد المتعة ، تقتضى بذل مزيد من الجهد . فقارىء القصة انما يقرأ ليستمتع بالقراءة على أمل أن يعثر على الجمال ، أو يجد اثارة أو اغتبـــاطا لمشاعره الخاصة ، أو يجد المغامرات التى ضنت عليه بمثلهـــا الحياة . .

وثم قارىء آخر قد يعمد الى القراءة عساه أن يعثر لأحد الشعراء أو دعاة الأخلاق على عبارة يراها افصح تعبيرا عن احساساته . وفضلا عن هذا وذاك ، يوجد من يقرأ دون تركيز على حقبة معينة من التاريخ ، ملتمسا متعة التحقق من واقع القرون المتعـــاقبة ، من تشابه الأحاسيس الانسانية . وهذا النوع من القراءة بقصـــد المتعة ، ملحوظ الفائدة .

واخيرا ، فالقراءة على سبيل العمـــل نوع يعمد اليه الرجل الذى يلتمس معرفة معينة يحتاج اليها لـكى يدعم أو يستكمل فى ذهنه هيكلا يتصور مدى ضخامته . والقراءة على سبيل العمل يجب أن تتابعهـــا اليد وبين أصابعها القلم ، الا اذا كان القارىء يتمتع بذاكرة عجيبة

القوة . فالبحث مرتين عن عبارة يريد الانسان استخدامها مضيعة لوقت ثمين .

هل لى ان اذكر حالتى الشخصية ؟ اننى حين اقرا مجلدا من المؤلفات التاريخية او اى كتاب جدى من اى نوع ، اعمد دائما الى تسجيل مذكرات عن الفصول الهامة أشير فيها الى أرقام الصفحات . وبهذه الطريقة أستطيع العثور عليها دون الحاجة الى البحث عنها فى الكتاب باكمله .

***

وللقراءة كسائر الأعمال ، قواعدها . والمعرفة التامة بكتاب قلائل ، وموضوعات قليلة ، اكبر قيمة من المعرفة السطحية بعدد كبير من الكتاب والموضوعات . فالجوانب الدقيقة فى كل قطعة مكتوبة ، يندر أن تبدو واضحة ى قراءتها أول مرة .

وعلى المرء فى زمن شبابه ان يبحث بين الكتب كما يبحث فى الدنيا عن الأصدقاء . وعندما يوجد هؤلاء الأصدقاء ، ويقع عليهم الاختيار ويتم توثيق الصلة بهم ، يجب على المرء أن يعكف على ما كتبوا . وتوطيد الصلة مع « مونتانى » ، أو « ريتس » ، أو « بلزاك » ، أو « بروست » ، يكفى لاغناء حياة الانسان كلها .

وفى القراءة ، يجب على الواحد منا ان يركز معظم اهتمامه على العظماء من كتاب الماضى . ولا شك فى انه من الطبيعى والضرورى أن يحيط علما بآثار الكتاب المعاصرين ، فمن المحتمل أن نجد لنا أصدقاء من بينهم ، لهم ما لنا من المخاوف والمطالب . على أن علينا الا نفرق انفسنا فى بحر لجى من الكتب التى لا يميزها شىء . فالروائع عديدة

لا يستطيع احد أن يلم بها جميعا . ولنضع ثقتنا فى حسن اختيار الأجيال الماضية .

والرجل قد يخطىء ، والجيل بأسره قد يخطىء ايضا ، ولكن الانسانية لا ترتكب شيئا من الأخطاء . ولا شك فى أن هوميروس ، وشكسبير ، وموليير ، يستحقون ما أحرزوه من الشهرة . ونحن نمنحهم بعض التفضيل على الكتاب الذين لم يصمدوا بعد لتجربة الزمن .

ومن واجبنا أن نحسن اختيار غذائنا الأدبى . وكل ذهن يتطلب غذاءه الخاص . فلنتعلم من هم اصفياؤنا من المؤلفين . وسيكونون مؤلفين آخرين غير من يصطفيهم أصدقاؤنا . ففى الأدب ، كما فى الحب ، يدهشنا ما يقع عليه اختيار غيرنا . فلنتشبث بما يناسبنا لأننا اعدل الناس حكما على ذلك .

ويجب علينا ، بقدر المستطاع ، أن تكون قراءتنا فى مثل ذلك الجو من الهدوء والاحترام ، الذى يحيط بحفل موسيقى رائع ، أو حفل كريم .

وليست القراءة مجرد أن يمر الانسان بصفحة كتاب ، وينهض للرد على التليفون ، ويلتقط اى كتاب وذهنه منصرف الى مكان آخر ، ويتركه حتى اليوم التالى . بل ان القارىء الحقيقى ليستمتع بالليالى الطوال وهــو وحيد ، وهو من أجل مؤلف يستأثر باعجابه ، يعكف على كتاب له بعد ظهر يوم الأحد فى الشتاء . وهو يحمد لرحلة بالقطار أنها أتاحت له فرصة قراءة قصة كاملة من تأليف « بلزاك » ، أو « ستندال » ، أو غيرهما . وهو يستخلص من المتعة الخالصة من اعادته قراءة عبــارة يؤثرها بحبه ، مثلما يستخلصه عاشق الموسيقا من سماع

أجمل الحان « سترافنسكى » ، فى « بتروشكا » .

ولتجعل نفسك أهلا لقراءة الـكتب العظيمة ، لأن استمتاعك بها سوف يتوقف كثيرا على ما تضفيه عليها . وتصوير المشاعر لا يعنى سوى اولئك الذين جربوها ، أو الشبان الذين يرقبون ازدهار مواهبهم فى أمل وتربص .

وليس فى الدنيا ما هو أكثر تحريكا للعواطف من منظر شاب لم يكن ليستطيع أن يحتمل سوى قصص المغامرات فى العام الماضى ، ثم وقع فجـأة فى حب رواية « آنا كارنينا » لأنه أصبح يعرف الآن ما هى مباهج الحب وآلامه .

والعظماء من الرجال العـاملين يقرأون « كبلنج » ، والعظماء من الساسة يقرأون «تاسيتس» ، أو «ريتس» . وما كان أمتع رؤية المارشال « ليوتى » مستغرقا فى قراءة بعض آثار شكسبير يوم انتزعت منه مراكش . وفن القراءة هو فى معظمه اكتساب فهم أفضل للحياة ، مما يلاقيه منها فى بطون الكتب .

***

وعمل الفنان يشبه عمل الصانع الماهر ولا يشبهه فى آن واحد . وكلاهما لا غنى له عن البراعة الفنية التى لا تكتسب الا بدراسة الأساتذة الأعلام بعناية ، وبالممارسة الصابرة .

والموهبة ضرورية بطبيعة الحال (موزار ، وبيرون ، وهيجو ، وشاتوبريان) ، غير انه يجب ادراك أن الموهبة اذا أهملت تنميتها ، ظلت عقيما .

ولقد رأيت « فاليرى » وهو يعمل ، ودرست ما سطره « بروست » بقلمـه : بحث تتجلى فيه المثابرة ، وتنقيح

مستمر ، وجهود فى سبيل اكتشاف الكلمة التى تعبر عن الفكرة أدق التعبير ، أو الكلمة الوحيدة الصالحة للاستعمال فى موضعها ، لأسباب خفية مرجعها الى المساوقة والانسجام .

وتدوين التوزيع الموسيقى لفرقة كاملة ، يقتضى – الا فى حالة الرجل العبقرى – تعليما موسيقيا معقدا لا يمكن اكتسابه الا بعد جهد طويل مضن . وفى أرفع الفنون وأكثرها أصالة ، يوجد شيء من الرياضة البدنية والتدريب .

ومن الطبيعى ان الفنان يكتسب آخر الأمر الخبرة والدقة فى أسلوبه ولمساته ، على نحو يستطيع معه – عندما يعرف على وجه التحديد ما هو الشيء الذى يريد أداءه – أن يؤديه على وجه السرعة بنجاح تام . وهذا يبدو لغير العارفين اعجازا .

ان « ويسلر » لم يهتم كثيرا حين لاموه على رسم صورة فى ساعة واحدة . ولقد استطاع أن يرسمها فى ساعة واحدة لأنه قضى كل حياته فى الرسم .

ولكن اكتساب تلك البراعة الفنية التى لا غنى عنها للصانع الماهر ، ليس سوى جزء واحد من عمل الفنان .

يقول فاليرى ان القصيدة لا تكتب بالعواطف ، بل تكتب بالكلمات . والواقع أنه لابد من كليهما . وحين تكون المسألة مسألة فن ، يجب علينا التراجع الى فكرة النظام والشكل ، المفروضين على الطبيعة ، فالشكل ضرورى ، ولكن الشكل الممتاز الذى لا يحتوى على شيء ، لا يحرك مشاعرنا .

فمقطوعات « بيتهوفن » الموسيقية تتمتع بجمال الشكل ، ولكن روح « بيتهوفن » قد نفذت اليها : أفكاره ، وآلامه ، وغبطته . ولقد وصل « راسين » الى الكمال من حيث الشكل ، ولكن هذا لم يكن ليعنى شيئا ، لولا عواطف « راسين » ! .

وعلى هذا فان الفنان ـ الى جانب جهوده الفنية التى تختلف عن جهود الصانع ـ يجب أن يعيش ، أو بالأحرى قد عاش . « والشعر انفعالات تستدعيها الذاكرة فى هدوء » .

وهكذا نرى أن حياة الفنان يجب أن تكون من ثلاثة أجزاء على الأقل : جزء حسى وعاطفى يستطيع وحده دون سواه أن يحيط الشاعر علما بحقيقة الناس ، وجزء تفكيرى وخيالى (الشاعر مخلوق مجتر يجب الا يكف أبدا عن اجترار ماضيه كى يحيله مادة فنية) . واخيرا الجزء الفنى الواقعى . وهذا الأخير قد يكون قصيرا .

ولقد عرفت من عظماء الكتاب من يؤلف لمدة ساعتين فقط فى كل يوم . ولكن تأملاته ، وقراءاته ، واحاديثه ، صور أخرى من العمل ذات أهمية مماثلة . يقول «جوتة» : « ان الاستجمام أعظم ما يحققه العمل » .

هل ينبغى أن يعيش الفنان فى داخل العالم أو فى خارجه ؟ .

اننى اعتقد ان هذا سؤال لا جواب عليه . والعزلة التامة ، التى تعد أمرا طبيعيا بالنسبة للرهبان ، مصدر أذى بالنسبة الى معظم الفنانين . وهم يعملون على نحو يثير الاعجاب ما دامت المواد فى متناول أيديهم .

ولقد أعتصم « بروست » بغرفته ذات الجدران المبطنة بطبقة من القلين ، وبدأ يبحث عن الماضي . ولو

بدا لنا الاقتداء بأسلوب حياته ــ ولو كان لنا مثل قوة ذاكرته ــ فلا شك فى أن كلا منا كان خليقا بأن يعثر فى حياته الماضية على مادة لا نهاية لها . ولكننا لا نستطيع أن نعيد أداء العمل الذى قام به « بروست » ، فمعظمنا يحتاج الى فترات عمل متقطعة تتخللها فترات استجمام .

وثمة نصيحة أخرى يسديها « جوته » حيث يقول : « ان الوحدة شيء مدهش اذا كان الانسان راضيا عن نفسه ، وكانت هناك مهمة معينة يجب انجازها » . ومهمتنا يجب أن تكون معينة محددة ، قبل أن نلتمس الوحدة التى ننجزها فيها .

***

وفن الاستراحة جزء من فن العمل . والرجل المتعب الشديد الحاجة الى الراحة ، لا يمكنه أن يؤدى اى عمل جيد . ونحن جميعا نعرف جيدا ما هى تلك الاصباح المكدرة التى تعقب ليالى الأرق ، عندما ترفض اذهاننا أن تؤدى عملها . وفى مثل تلك الحالة ، لا تكون ثمة جدوى من محاولة تطبيق مبادىء فن العمل . فهذه المبـــادىء تفترض أن يكون الذهن والبدن معا بخير حال .

والجهاز البشرى لا يستطيع أن يعيش الا بالتناوب بين العمل والراحة . ونظام عطلة آخر الأسبوع ، المتبع فى بعض الدول الغربية ، نظام حكيم فيمــا يعنى الصحة الاجتماعية . ولقد رأيت أعضاء فى الحكومة الفرنسية نال منهم الاعياء الى درجة العجز عن ابقاء عيونهم مفتوحة ، ومع هذا كان عليهم أن يتخذوا قرارات يتوقف عليهــا سلام القارة الأوربية .

وحين يكون التعب ناتجــا عن مجهود بدنى ، تكون

الراحة فنا غير عسير : يلقى الرجل بجسمه على الفراش ، وينام ملء جفونه .

أما اذا كان التعب ناتجا عن مجهود عقلى ، فان النوم قد يتعذر ، حيث تكون الحاجة اليه ماسة الى ابعد حد . وفى مثل تلك الحالة يكون ثمة ما يقال له « فن النوم » . وهذه بعض أسراره : لكى ينام الانسان ، يجب أن يؤمن بمقدرته على النوم : والعقاقير المنومة ــ اذا استعملت بمقادير صغيرة ــ تنحصر جدواها فى تعزيز ذلك الايحاء الذاتى .

ويجب على الانسان أن يرقد فى وضع يقلل احساسه بجسده الى الحد الأدنى ، فى ظلام دامس ، وفى درجة حرارة متوسطة . وعليه أن ينسى كل أفكار الحاضر ، لأنها تسبب الأرق . ويجب ارغام العقل ــ ان امكن ذلك ــ على التفكير فى الماضى البعيد ، الذى لا يوجد فيه شىء من أسباب انزعاجنا : كزمن الطفولة ، وعهد المراهقة . فلتفكر فى اشياء حدثت منذ عهد بعيد ، وحاول أن تتخيلها بين أجفانك المطبقة ، فلن تلبث شيئا فشيئا أن تدخل دنيا ساكنة وادعة ، تستطيع فيها أن تنام .

وثمة طريقة اخرى ، تختلف كثيرا عما تقدم ، ولكنها عظيمة الأثر فى كثير من الأحيان . وهى اعتبار الأرق شيئا لا أهمية له ، والتفكير فيه بوصف كونه حادثا سعيدا ، وتناول كتاب أو شىء آخر من أنواع التسلية ، والانتظار دون تحديد وقت معين ، الى أن تجىء اللحظة التى يتمخض فيها التعب البدنى عن النوم .

***

ويكون من العسير فى أحيان كثيرة ملء فراغ رجل

صحيح معافى موفور النشاط . فهو يشعر بالملل حين لا يكون مشغولا بعمله ، فيذرع الغرفة كالحيوان السجين فى قفص ، ويفرق ، بصورة طبيعية ، فى رذائل هى مجرد وسيلة الى أن يحظى من جسمه باحساسات عديدة حية ، يملأ بها ساعات فراغه . ولقد كان من نتائج حضارة العصر الحديث ، بمخترعاتها وآلاتها ، ان زاد عدد تلك الساعات . ومن واجبنا أن نتعلم كيف نفيد منها . واليك بضع طرق :

ان بعض الأعمال التى يعتبرها الغير عملا ، نعتبره نحن رياضة : فالتمثيل ، والعناية بالحديقة ، وصيد السمك والحيوان ، والتجارة ، هى أعمال بالنسبة الى محترفيها، ورياضات بالنسبة الى هواتها ، حتى ولو أقبل الهاوى على مزاولتها بأقصى ما يستطيع من الاهتمام . ذلك أن استخدام العضلات والأعصاب المختلفة ، هو فى ذاته راحة . ثم ان الهاوى يشعر بنفسه وقد تحرر من صراعه مع العالم الخارجى ، وصار له مطلق الحرية فى أن يتوقف عن عمل ما هو بصدده فى أى وقت يشاء . وفى هذا راحة له من عناء الالتزام .

ومزاولة الألعاب هى بدورها لون أكثر تحررا من الوان النشاط ، فليست هناك مشاكل حقيقية تتطلب الحل . بل مجرد مجموعة من القواعد الاختيارية، اتفق المشتركون على مراعاتها .

وليس لاعب الشطرنج ، ولا لاعب « البريدج » فى صراع مع العالم ، بل مع المهارة البحتة . وهذا يسفر عن شيئين يساعدان على توفير الراحة : فاللاعبون يعرفون أن خسارة مباراة ، امر غير عظيم الأهمية ، ويعرفون أيضا

أن تدخل الحظ محدود .

وينبغي الاشارة هنا الى ما للرياضة من فوائد خلقي
فكل لاعب يفرض على نفسه احترام القواعد ، لأن مز
الألعاب لا غنى فيها عن القواعد . وحين يكتسب شد
بأسره مثل هذه القاعدة ويتوارثها جيلا بعد جيل ،
يكون خليقا بأن يســــفر عن وجود مواطنين يحتر
القانون .

« انه لا يزاول اللعبة حقا » ، هكذا يقول الانجليز
الرجل غير الشريف فى الحب ، أو التجارة ، أو السياسد
والحضارة هى مراعاة الرجل لقواعد مقبولة ومرعية
الآخرين . وبعض هذه القواعد اختيارى على غرار قو
التنس أو الجولف ، ولكنها تجعل من المجاملة بديلا
الخوف ، ومن الرياضة بديلا عن الحرب لأنها تمكننا
أن نتكهن بانفعالات أولئك الذين نعيش معهم .

ونحن فى المسرح نفعل الأشياء بطريق الانابة وحسب
حيث نجلس ، دون حراك ، ونراقب ما يفعله الآخرو
وهذا يثير اهتمامنا لأن « ليس بين الاشياء الانسانية ما
غريب بالنسبة الينا » . فالاحاسيس والمواطف ا
تصورها المسرحيات الهزلية أو الجدية ، انما هى هواد
وأحاسيسنا . ونحن نعيشها مع المؤلف . فلماذا نجد
راحة فى ذلك ؟ .

السبب هو أننا فى ميدان الفن ، غير مطالبين باتـ
قرارات . فالمأساة التى تثير اهتمامنا ، والتى يمكن
تكون مأساتنا نحن ، انما تقع أحداثها فى عالم خيالي
ونحن نعلم ذلك .

على أن المسرحية تخرج بجمهرة نظارتها عن تفاه

الحياة ، وتدفع بهم الى ما فيها من مشاعر نبيلة عميقة ، وعلى هذا النحو تستطيع أن تسمو بهم وترفع أقدارهم الى حد بعيد . على أن الهدنة الفعالة فى حرب حقيقية ، خليقة بأن تكون شيئا بغيضا لو قدر المسرحية أن تحل محل الحياة التى يعيشها الناس ، كما أن السينما والراديو ، اذا هما استخدما بقصد واعتدال ، فانهما يعدانا للاضطلاع بالمهام الجديدة ، وذلك بسبب شغلنا عن أفكارنا . اما اذا نحن اسرفنا فى الاقبال عليهما ، فانهما ينقلان الينا عدوى الفناء .

ومن بواعث الراحة أن يرحل الانسان عن بلده ، لا لان السفر لا ينطوى على أعمال يومية صعبة مختلفة ، ولكن لأنه يريحنا من مسئولياتنا . واذا استثنينا حالة الأشخاص الرسميين ، فاذا المسافر الآن يعيش لنفسه فقط ، ولم يعد لديه الشعور الدائم بالمسئولية . ونحن جميعا ، بين الحين والحين ، نحتاج الى قبس من الحرية والتجديد ، يبدو النظام الرتيب بعده وبالقياس اليه ، وقد ارتدى ثوبا قشيبا من البهجة .

ومهما يكن من شيء فان فترات الراحة يجب أن تكون وجيزة . ومع هذا فان الانسان ليعجب حين يعلم مدى ما نستعيده من نشاطنا الذهنى بفضل السفر أياما معدودات .

***

والرجل المحب لعمله حقا يعود اليه بعد الراحة البالغة القصر ، وهو يشعر بنوع غريب من البهجة . وعندما ينهمك تماما فى عمله ، تبدو له نهاية العمل كأنها نهاية الحياة . فهل يكف عن العمل قط ؟ .

ان الرجل من هذا النوع يحمل مشكلاته معه . وحين يكون الكاتب على سفر ، يروح يقلب فى ذهنـــه مرات ومرات ، عبارة معينة لم يحسن اختيار الفاظها . واذا هو استيقظ من نومه فى الليل ، وثبت فى ذهنه سلسلة من العبارات والخطب الخيالية .

وصاحب المصنع الذى يقضى اجازته على شاطىء من شواطىء البحر ، قد يتناول قلمه فجأة ويحسب على الورق نفقات بعض ما ينتجه مصنعه . فاذا كان قريبا من مكان المصنع عاد اليه صباح يوم السبت ، مع أن رجاله غائبون عنه ، وأخذ يتجول بين قاعات العمل الخيالية ، يحلم بادخال التمديلات ، وزيادة الانتـــاج ، وتحسين وسائله .

والفلاح يمشى بين حقوله فى أيام الآحاد ، ويلاحظ انه ليس هنا حديقة اشجار أو حوض معشب لم يلعب دوره فى حياة عمله ، وتأثير المطر الأخير على حاصلاته الزراعية ، ويتابع بعينه انعطاف الطرق بين الحقول . وهو يصعد المنحدرات أو يهبط الى الوديان التى ترويها مياه الغدير ... كل شىء ينطق بفصاحة بجهوده الماضية ، ويشحذ همته ليبذل مزيدا من الجهود .

وتبغيض العمل فى نفوس العمال خطأ جسيم فى حق المجتمع الانسانى ، فمـــاذا يمكن ان يكون أقرب الى الطبيعة من حبهم للأعمال التى يؤدونها ؟ .

« ان العمل وقاية من الملل ، والرذيلة ، والفقر » وهو علاج كل الشرور المتخيلة . « فليبارك الله العمل » . هذا ما كان يردده على سمعى رئيسى الضابط الانجليزى فى حرب سنة ١٩١٤ ، وهو دعاء مستجاب على الدوام .

ويقول شيللى : « ان غبطة الروح مبعثها العمل » .

والعمل بنشاط ينقذ الرجل من نفسه ، والكسل يجعله فريسة للأسف الذى لا ينفع ، وللخيالات المنطوية على المخاطر ، وللحسد ، والبغضاء . وكذلك الحال فى فن الحكم ، فالقاعدة الأولى فيه هو أن يظل الشعب قائما بعمله ، فمن المحال أن يحكم أحد شعبا قد استولى عليه الملل . أما الشعب المشغول بعمل يؤمن بأنه نافع يؤديه بمحض رغبته ، فهو شعب سعيد حقا .

فن الزعامة

لا يستطيع رجال أن يضطلعوا ، على نحو مجد ، ويؤدوا على الوجه الاكمل ، أية مهمة مشتركة ، الا اذا كان واحد من بينهم يقوم باستمرار بتوجيه نشاط الجميع الى الغاية المنشودة . وهذا لا يحتاج الى دليل فى حالة الأعمال التى لابد من أن تتبع نهجا معينا .

فمن العبث أن يبذل جماعة من الرجال غاية جهودهم في ارساء قضبان خط حديدى ، أو التجديف فى زورق ، ما لم يكن هناك رئيس يتولى تنظيم حركاتهم . وكل عمل جماعى لا يكون فيه توجيه ، سرعان ما يسوده الارتباك والفوضى .

وكل أولئك الذين خاضوا غمار احدى المعارك ، يعرفون مدى ضرورة وجود شخص ما يتولى القيادة . وما ينطبق على الجيش ، ينطبق على الميناء البحرى ، والمصنع ، وادارة الصحيفة السيارة ، والوطن بأسره . وكلما كان مطلوبا الى الرجال أن يعملوا جنبا الى جنب ، كان من الضرورى أن يكون هناك رئيس .

وبمجرد أن يظهر الرئيس ، وتصير الرياسة قوة دقيقة نافذة الأمر ، يحل النظام محل الفوضى . وفى الحرب العالمية الاولى تقهقرت الفرق التى اسيئت قيادتها ،

وعمتها الفوضى ، حتى تولى قيادتها قائد جدير بهـذا الاسم ، لم يلبث أن أحالها فرقا تسودها روح الشجاعة والمقاومة .

وكذلك الوطن الواحد ، المؤلف من الرجال أنفسهم ، قد يثبت أنه خاضع للنظام أو ثائر على حسب ما اذا كانت حكومته تحكمه أو لا تحكمه . وبغير الزعامة لا يمكن أن يكون هناك عمل حربى ، ولا حيـاة وطنية ، ولا حياة اجتماعية .

والمجتمع البشرى فى كل مراحل تاريخه ، قد اختـار زعماء ، اذا رصوا على هيئة هرم ، تكونت منهم طبقة من أصحاب الرتب والدرجات بعضها فوق بعض . وفى كل مرة وطد فيها هؤلاء الزعماء النظام ، وأمنوا رعاياهم على مستقبل الوطن ، فحـاول هؤلاء كتم أنفاسهم ، عاد الاضطراب سيرته الأولى ، وأعيد تشكيل تلك الطبقة على صورة جديدة .

وعندما فقدت طبقة الحكام الاداريين والعسكريين التى كانت تتألف منها الدولة الرومانية سلطانها ، حلت محلها بعد فترة طويلة من الفوضى ، طبقة من الاقطاعيين .

وعندما تخلصت روسيا من حكامهـا الراسـماليين ، تولت شئون الحكم أقلية من الموظفين وأصحاب المهن . وهذا هو السبب فى أن الثوار — برغم وعودهم ورغباتهم — لم يحققوا المساواة أبدا .

على أن من المستطاع والواجب أن تكون ثمة مساواة فى الفرص ، وأن تكون هناك على حد قول بونابرت « طريق الحياة العملية المفتوحة أمام المواهب » .

ويستطيع المرء ، بل يجب عليه ، أن يتمنى المساواة بين

الجميع فى نظر القانون . ولـــكنه لا يستطيع أن يتصور المساواه بين الزعماء ومن يتزعمونهم ، او يتصور مجتمعا بغير زعماء .

***

والانسانية ، فى غضون تاريخها الطويل ، لم تبتكر سوى القليل من الوسائل لاختيار زعمائها .

والطريقة الوراثية هى اقدم الطرق . ولا شك أنها كانت متبعة لدى القبائل القديمة التى كان الابن الأكبر فيها يرث الحكم عن أبيه . وعند عدم اتباع نظام أحقية الأكبر ، كانت الجماعة تتعرض لصراع بين الأشقاء كثيرا ما كانت تعقبه الانقسامات والضعف .

ونحن نجد فى الانجيل وفى المأساة اليونانية شواهد على مثل ذلك الصراع . وفى عهود الملكيات القديمة المحترمة ، يتم انتقال السلطة فى غير ما عنف ، ويتمتع وارث السلطان فى أعين رعاياه بمزيد من الهيبة لا حد لمداه .

وهذه الهيبة هى السر فى المكانة الرفيعة التى يحتلهـا ملك انجلترا . ولقد أدرك هذه الحقيقة نابليون ، الذى كان يود أن ينشىء أسرة مالكة ، كل الادراك . وعرف ان الملك يظل ملكا حتى اذا انهزم . أما الامبراطور الذى نادى بنفسه امبراطورا ، فانه يحتاج الى تأييد انتصـــــارات متوالية .

وهذا صحيح أيضـــا فى حالة الملكيات الزراعية أو المؤسسات التجارية التى ظلت تدير شئونها أسرة واحدة عدة اجيال . فالمديرون والمراقبون والمزارعون ، لا يلبثون بعد أن تضيق صدورهم بالسلطة ، أن يستسلموا لسلطان راس الأسرة .

وهذا الاستسلام ليس سببه مجرد النزول على حكم المادة ، بل سببه أيضا مشاعر طبيعية تماما ، وتعليل ينطوي على منطق مستقيم . ففي وسع الوالد أن يسلم الى أبنائه تقاليد ادارة أعمال الأسرة والتفاني في سبيلها .

ووارث الزعامة ، كوارث السلطان ، يشعر بأنه مرتبط بما ورث بروابط شرف تقتضيه أن يبذل التضحيات . ولقد شهدنا أمثلة رائعة من هذا في فرنسا في غضون فترة الأزمة الاقتصادية الطويلة التي اجتزناها منذ عهد قريب .

والخطر في النظام الوراثي هو أن الابن الأكبر للأسرة الحاكمة أو المتزعمة قد يكون تافهــا بل ناقص النضج العقلي . فهل ينبغي عند ذاك أن تسلم مقاليد الأمور في الوطن ، أو ادارة الأعمال ، الى رجل غير كفء للزعامة ؟ كلا . على الاطلاق .

وفي بعض البلاد بالذات ، المتبع فيها هذا النوع من نظم التوريث ، كانت هنـــاك استثناءات حين يبدو أن الرئيس بحكم الوراثة غير لائق لأن يتولى الرياسة .

وفي انجلترا غير البرلمـــان قانون وراثة العرش عدة مرات .

وفي الولايات المتحدة عمد بعض كبار رجال الاعمال الى اتخاذ الاجراءات اللازمة ، وهم على قيد الحياة ، ليحددوا السلطة التي قد تؤول الى أبناء لا يصلحون لأن يحلوا محلهم .

على أن للسلطة الوراثية مزايا عظيمة ، اذا روعي فيهــا حسن التصرف وصحة التقدير ، وأشرف عليها برلمان أو مجلس استشاري .

واهم صفات الزعيم ان يكون معترفا به بوصفه زعيما . وكل الزعماء المشكوك فى صلاحيتهم يكون من الواضح انهم تنقصهم القوة .

والزعيم المنتخب يجب أن يكون له نفوذ مسلم به على على أولئك الذين وقع عليه اختيارهم . غير أنه كثيرا ما يحدث أن الصفات التى انتخب لأنه متصف بها (كالبلاغة أو طيبه القلب) ليست هى الصفات المطلوبة ، كما يحدث أن يتضح بعد انتخابه أنه شخص ضعيف تافه .

وقد يحدث أيضا الا يمثل الزعيم المنتخب ، فى شعب تفرق الأحزاب بين أبنائه ، الا ما يزيد قليلا على نصف الناخبين . فاذا كانت بقيهم يشعرون نحوه بما يشبه الكراهيه ، فان الموقف الذى ينتج عن ذلك يكون محفوفا بالخطر على الدولة . وكثيرا ما رأينا شعبا عظيما سادته الشكوك والخلافات الآن زعيما قد انتخبته الأغلبية ، ليس حائزا لثقة الشعب بأسره .

وانتخاب الزعيم يكون محفوفا بالخطر حين لا تكون المسألة مسألة شعب ، بل مسألة مجتمع أصغر ، حيث يتولى الزعيم سلطته بصفة مباشرة ، وحيث يجب تجديد انتخابه فى فترات محددة . فكيف يظفر بالطاعة من رجال سوف يسعى الى الفوز بأصواتهم بعد وقت قريب ؟ .

واتباع طريقة التصويت على الأغلبية فى انتخاب رئيس مؤاسسة تجارية أو قائد جيش ، معناه اعداد الخراب للمؤسسة والهزيمة للجيش .

وسرعان ما أدركت هذا جميع الهيئات الحاكمة . وحتى فى أكثر البلاد تمسكا بالنظام الديموقراطى ، لا ينتخب أفراد الشعب سوى من يمثلونهم ، كالنواب والشيوخ ،

ومن اليهم . وهؤلاء الرجال الرسميون ، يجب أن يكون اختصاصهم التنفيذ ، لا القيادة .

ومن أخطر الأمور تقسيم السلطة تقسيما يعوق سير الأعمال .

وبمقتضى نص دستور الولايات المتحدة ، فانه اذا حدث خلاف بين رئيس الجمهورية وهيئة البرلمان ، كثيرا مايحدث أن ينقضى على البلاد عامان دون أن تكون لها سياسة خارجية على الاطلاق . وهذا قيد ضخم بالنسبة الى امريكا وغيرها من الأمم . والطريقة الانجليزية فيما يبدو تؤدى الى نتائج أفضل ، لأنها أكثر مرونة .

وهناك طريقة لاختيار الرؤساء بعقد امتحانات ، اذا نجحوا فى اجتيازها صار لهم الحق فى الحصول على الشهادات الدراسية والمناصب .

ولقد كانت هذه الطريقة متبعة فى الصين ، ونجحت الى درجة معينة ، وهى متبعة فى فرنسا اليوم ، فللحصول على مناصب فى الجيش ، والسلك السياسى ، ومعظم الدوائر الحكومية ، يجب على الرجل الفرنسى أن ينجح فى اجتياز امتحانات معينة . وهذا يبدو من العدل لأن الفرص متساوية أمام كل المتنافسين .

على أن لهذه الطريقة عيوبا جدية ، فالرجل الذى تنمو قوة ادراكه ببطء ، والذى قد يتضح عندما يبلغ عامه الأربعين ، أنه رئيس جدير بالاعجاب ، قد يجد نفسه مبعدا عن الطريق الصاعدة بسبب قيود السن . والصفات التى لابد أن تتوافر للرئيس الممتاز قد لا تظهر دائما ، وكثيرا ما لا يدرك وجودها أثناء الامتحان (لا يتردد « بول فاليري » فى المناداة بأن أسوأ مساوىء هذه الأيام ،

الانتخابات والشهادات الدراسية) .

وهذه الطريقة تصبح نظاما مطلقا حينما لايكتفى بالامتحان عند دخول الخدمة ، بل يكون الامتحان ضروريا أيضـــا للترقى من وظيفة الى أخرى أكبر منها . وهذا متبع فى فرنسا فى الوظائف الطبية . وفى الجيش ، نجد أن المدرسة الحربية ، ومدرسة الدراسات العسكرية العليا ، عقبتان يجب اجتيازهما . ولكن الأقدمية ، والتعيين ، والتوصية ، تلعب دورها فى زمن السلم . وكذلك الانتصارات فى زمن الحرب . والنظام الفرنسى بذلك يشبه تلك الطريقة الصينية الى حد ما .

ولا يمكن أن يقال فى الأقــدمية سوى القليل . فمن الواضح أن الرجال كلمـــا تقدمت بهم السن اكتسبوا مزيدا من الخبرة ، الا اذا كانوا كسالى تماما ، أو اغبياء ، اشد عنادا من ان يتعلموا شيئا .

على ان هناك كثيرين من الرجال المتقدمين فى السن ــ ان لم يؤيد هذا احد قط ــ يكفى لمعرفة خيارهم النظر الى شهادات ميلادهم . ولهذا فانه لا مناص من الاستعانة بهم .

ويبدو أن الطريقة المثلى هى أن يتولى الرؤساء تعيين مرءوسيهم المباشرين . فانهم لابد من أن يعتمــدوا عليهم ويكونوا مسئولين عن تصرفاتهم .

والملك الذى ورث عرشه ، أو الرئيس المنتخب ، يتولى تعيين رئيس الوزراء بموافقة جمعية مشرفة او برلمان . ورئيس الوزراء يختار رؤساء مصـــالحه الحكومية . ورؤساء المصالح يقومون بالتعيين فى نطاق مصالحهم . وهكذا يتم بناء الهرم من القمة الى القاعدة . وهذا جنون

فى فن العمارة ، ولكنه ناجح من وجهة النظر الادارية .

وهذا نظام صالح حقا ، ما صلحت أمور الانسانية : فهو نظام حكيم من حيث المبدأ . ولكن فيه بعض العيوب عند التطبيق . وفيما عدا تعيينات الرئيس وبعض الوزراء السياسيين ، فان جميع التعيينات ـ بما فيها ما يتطلب الثقافة العلمية ـ يجب ان تتم على أساس القيمة الفنية والأمانة الخلقية .

فمن مصلحة الوطن ، وبالتالى من مصلحة حكامه ، أن يكون قائد الجيش أو مدير السكك الحديدية رجلا من أعلى طراز ، بصرف النظر عن آرائه السياسية ، أو دينه ، أو أصدقائه ، أو علاقاته .

غير ان لا شيء يستطيع أن يحـــول بين الرجال وبين مشاعرهم . فالأصدقاء والأقارب والأهواء السياسية تلعب دورا عند اختيار من يفوز بالتعيين فى المنصب الشاغر ، وهذا أمر يبعث على الأسف فى بعض الأحيـــان . فمن واجبنا جميعا أن نحاول أن نكون رقباء على انفسنا وعلى الآخرين ، حتى لا تؤذى الكفايات .

واخيرا فانه فى بعض الحالات البالغة حد اليأس ، حين تدب الفـــوضى فى صفوف الامة ، لا أحد يتولى تعيين زعيم ، لأنه يفرض نفسه على الأمة .

لم تتول اية سلطة عليا تعيين « كرموبل » ، الذى كان رجلا غامضا يقود حفنة من فرسان الجيش .

ولقد جعلت الثورة من بونابرت جنرالا ، ولـكنه جعل من نفسه زعيما للأمة . ولهذا أمثلة قريبة المهد لا تزال ماثلة فى أذهاننا جميعا .

ومن الواضح أن الزعيم الذى يكتسب مركزه عنوة واقتدارا ، يمتاز بالصفات التى لابد من وجودها فى الزعيم . فلو لم تكن موجودة فيه لما استطاع ان يكتسب كل ذلك القدر من السلطان . والصعوبة هى فى اكتشاف ما اذا كانت مواهبه مواهب زعيم حزب ، أو زعيم امة .

وحين يتولى الزعامة رجل وصل الى مركزها بنفسه ، يطل برأسه سؤال عويص عن ذلك الذى سوف يخلفه عليها . فان ابن كرمويل لم يحكم طويلا . كما أن ابن بونابرت قد مات فى المنفى . أما خليفة لينين فقد سخط على كل ماتم فى عهد سلفه ، ومن ثم قضى عليه .

والحق أن اختيار زعيم مشكلة لا سبيل الى حلها على الوجه الأكمل . فكل شىء يتوقف على ملابسات الماضى وعلى اهداف الأمة المستقبلة .

على أنه بغض النظر عما اذا كان الزعيم منتخبا ، أو معينا ، أو مفروضا بحكم ميلاده أو بفضل سلطته التى خولها لنفسه ، فانه لا يستطيع البقاء فى مركز الزعامة الا اذا كانت فيه الصفات التى تتطلبها الزعامة .

***

ان رسالة الزعيم هى توجيه تصرفات الآخرين . ولا مندوحة له عن معرفة الهدف الذى ينوى أن يقودهم اليه . واهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها ، قوة الارادة . ولابد له أن يعرف كيف يتخذ القرارات ويتحمل تبعاتها . ومن الطبيعى أن عليه قبل أتخاذ اى قرار : ان يراجع نفسه جيدا ، وأن يحسن تقدير كل الظروف . فاذا ما اتخذ قراره واصدر أمره ، وجب عليه الا يتزعزع او يتراجع ، الا اذا واجهته عقبة غير متوقعة لا سبيل الى

اجتيازها . فلا شيء أكثر تثبيطا لهمم المرءوسين من تردد الرئيس . والعزم الوطيد ، كما يقول نابليون ، ينتصر فى كل شيء .

ولابد للزعيم من شـــجاعة ادبية عظيمة ، كى يتخذ القرارات . وكثيرا ما تكون هذه القرارات مؤلمة له . وفى بداية الحرب العالمية الأولى اضطر المارشال « جوفر » الى اقالة كثيرين من الجنرالات الذين كانوا من أصدقائه .

ويحدث فى بعض الأحيان أن تصبح التضحية بالقليلين واجبة فى سبيل انقاذ الكثيرين . والزعيم قد يكون ، وكثيرا ما ينبغى أن يكون ، صارما . وليس من حقه ان يكون شريرا أو قاسيا ، أو حقودا . وعليـــه أن يحتقر الشائعات السخيفة ، ويفرض عليها سلطانه بقدر الامكان .

وعليه كذلك أن يحيط نفسه بجماعة من المســاعدين المخلصين الذين يستطيعون أن ينوبوا عنه فى اتخـــاذ القرارات غير ذات الأهمية العظمى . ولا ينبغى له أن يدع الأشجار تحجب الغابة عن ناظريه . ومن أجل تنفيـــذ القرارات ، يكون لديه الفنيون الذين اختارهم ووضع ثقته فيهم ، والذين يسمح لهم بحرية التصرف ويقنع بالتحقيق من صحة المعلومات التى يزودونه بها من طريق المراجعة من يوم الى آخر .

سئل « ليوتى » يوما : « وماذا تفعل » ؟ فاجاب بقوله « ما أنا الا اخصائى فى الأفكار العامة » .

والزعيم الفنى بتجارب الماضى يعرف انه يستحيل عليه أن يتعقب بالتفصيل نشاط كل واحد من مرءوسيه . وفى المسائل الاقتصادية بالذات ، يقصر اهتمامه على التنويه باتجاهات عامة معينـــة ، والاصرار على ضرورة احترام

المصلحة الخاصة للمصلحة العامة . وهو لا يحاول ابتكار مشروع للتهرب من النتائج المحتومة لرغبات الملايين . فضابط المرور يتولى تنظيم تدفق رتل المركبات ، ولكنه لا يرسم طريقا معينة لكل مركبة .

ويجب أن يوحى الرئيس الاحترام الى مرءوسيه من الفنيين ، فاذا لم يستطع ذلك كانت هناك شكوك ومؤامرات . وليس هناك سوى طريقة واحدة لاكتساب الاحترام ، وهى ان يكون أهلا لها .

والزعيم العظيم شخصية عظيمة . وهو منزه عن التحزب وعن التماس المصلحة الخاصة .

وربما كان بلدوين وبوانكاريه محدودى الذكاء ، بل ان بلدوين كان يصر على التصريح بتلك الحقيقة ، ولكن كليهما كان رجلا لا سبيل الى الارتياب فى أمانته المالية المتزمتة .

وقد تنازل بلدوين عن جانب من ثروته الخاصة للشعب ، ولم يكن بوانكاريه يرضى باستخدام أحد من الخدم الحكوميين فى قضاء حاجياته الخاصة . وكلاهما كان متحليا بصفات الاستقامة التى يتطلبها صاحب المصنع فى مدير مصنعه أو زوج كريمته . وهذه الفضائل الأولية منحتهما القوة . وقد يوافقهما المرء أو لا يوافقهما فيما يتصل بشئون السياسة ، ولكن خصومهما انفسهم لم ينكروا عليهما حقهما فى تولى الحكم .

والدكتاتور يكتسب نفوذه بفضل حسن تدبيره وتنزهه عن الفساد .

ولا ينبغى ان يكون للزعيم سوى شاغل واحد : عمله ومهنته . ومن واجبه ان يكون متحفظا ، حتى الى درجه

احاطة نفسه بهالة من الغموض . وأنا لا الومه على أنه خلق من نفسه اسطوره . فالشخصية تأمر وتحكم ، بقدر ما يفعل الشخص نفسه .

والشخصية التى ابتكرها خيال الشاعر كبلنج فى « الرجل الذى كاد يصبح ملكا » هى شخصية مغامر سيطر بفضل قوة شخصيته وحدها على عدد من القبائل وأصبح رئيسا عليها ، ولكنه فقد هيبته وتاجه عندما ضعف لدرجة الوقوع فى حب امرأة من رعاياه سمح لها بأن تعرف أنه ليس أكثر من رجل .

ولقد قال نابليون : « كم من الرجال من يتعرض للشدائد لمجرد ضعفه أمام امرأة ؟ » .

وهنا يجب أن نتحدث عن زوجة الزعيم ، وهذا دور من العسير اداؤه . فان عليهـــا أن تدافع عنه فى و- العالم ، وتحول بينه وبين اجهاد نفسه على غير طائل ، و تتحاشى اقتراح أى اجراء متهور ، وأن تجعل من بيته ملجأ امينا ، لا امبراطورية أخرى عليه أن يحكمها ـ فه أكثر الامبراطوريات استعصاء على الحكم .

فى غضون مناقشة حول الصفات الضرورية التى يجب أن يتحلى بها رجل الدولة ، فى حضور « وليم بيت » ، أشار احدهم الى الجلد على العمل ، وأشار آخر الى وفرة النشاط ، وأشار ثالث الى الفصاحة . ولكن « بيت » قال ان الأمر على العكس من ذلك ، لأن الصفة الجوهرية التى لابد أن يتحلى بها رئيس حكومة هى « الصبر » .

ولقد كان على حق فى ذلك ، فان هذه الصفة ضرورية لكل رجل يقتضيه عمله أن يتزعم جماعات من الرجال ، فضلا عن رئيس الحكومة .

والغباء عامل مسلم بوجوده فى شئون الناس . والزعيم حقا يتوقع دائما أن يصادفه ، ويستعد لاحتماله بصدر رحب ، مادام غباء عاديا . وهو يعلم ان أفكاره سيصيبها التشويش واوامره ستنفذ دون عناية ، وأن التحاسد سيكون موجودا بين معاونيه . وهو يندر هذه الظواهر القهرية ، وبدلا من البحث عن رجال بغير أخطاء — وهؤلاء لا وجود لهم — يحاول أن يستفيد بخير من عنده من الرجال — على علاتهم — وليس على ما كان ينبغى أن يكونوا .

ومن مظاهر الصبر الأخرى ، الاستمرار فى بذل الجهود. وعندما يتحقق أحد الأهداف ، لا يتصور الزعيم الحقيقى ان شئون أمته قد انتظمت الى الأبد . فلا شيء فى هذه الدنيا يمكن ان يستقر بصفة دائمة .

قال نابليون : « ان أخطر اللحظات تأتى مع النصر » .

والحديقة المعتنى بأمرها لا تلبث أن تنمو فيها الأعشاب الطفيلية اذا أهملت بعض الوقت . والأمة الفنية القوية لا يمكن ان تظل فى حال من الفوضى سنين عديدة ، دون ان تنتقل أمورها الى أيدى شر أبنائها ، ويغير عليها جيرانها. فزعيمها يعرف أن جهوده لا يمكن أن تسفر عن نتائج باقية على الدهر ، وأن عليه أن يبدأ تلك الجهود فى صباح كل يوم .

والحذر فضيلة أخرى لا تقل فى أهميتها عن كل ما تقدم . قال « ريشيليو » : ان الكتمان هو روح الشئون القومية .

ولقد فقد شارل الأول ملك انجلترا عرشه ورأسه بسبب عدم حرصه على كتمان بعض الأسرار ، حيث بلغ من قلة حذره أنه اخبر زوجته الملكة الحسناء بما كان ينوى أن

يفعله ببعض أعضاء البرلمــــان . واخبرت هي واحدة من وصيفاتها ــ كانت موضع ثقتها ــ بما كان على وشـــك الحدوث . ولما كان لهذه الوصيفة أصدقاء من أعداء الملك ، فقد بادرت الى انذار الأعضاء الذين كان يتهددهم الخطر . فلما أزفت الساعة المحددة لتنفيذ المؤامرة الكبرى ، وجد الملك ان عصافيره قد طارت من القفص ، وأن أفراد الشعب قد حملوا في وجهه السلاح . هذا هو المبدأ : قل الشيء الضروري فقط للشخص الذي يجب على المرء أن يقوله له ، حين يكون قوله ضروريا ، وحسب ! .

كتب الكولونيل ديجول يقول : « لا شيء يقوى السلطة ، بقدر ما يقويها الصمت » . والكلام ينال من قوة الفكر . وهو يسمح لشجاعة المرء بأن تتسرب مبتعدة عنه . وصفوة القول انه يبعثر التركز المطلوب .

هل كان هناك من يضارع « بونابرت » في ميله الى قلة الكلام ؟ ولقد اقتدى به « الجيش الكبير » في ذلك .

قال « فيني » : لقــــد عرفت ضباطا أحاطوا أنفسهم بسياج من الصمت ، فكانوا لا يتكلمون الا لاصدار الأوامر .

ولقد أدرك الرئيس « كولدج » حق الادراك أن صمته كان نافعا له ، ومن ثم فقد لزم جانب الصمت ، كما أنه قصد بذلك أيضا الى زيادة جو الغموض المحيط به .

وكانت للملك لويس الرابع عشر طريقة عظيمة جدية توحي بالخوف والاحترام الى الشـــــعب ، وتحول بين الأشخاص الحائزين لاعجابه الشديد ، وبين رفع الكلفة معه حتى في خلوته بهم .

ولا شك في أن من أشد الصعوبات التي يواجهها الزعيم ،

أن يحافظ على التوازن بين التحفظ والحزم الضروريين بالنسبة الى مركزه ، وبين الملاينة المطلوبة منه فى انتقاء مساعديه . على أن هذه الصعوبة قد يمكن التغلب عليها بسهولة ، باستخدام اللباقة التى هى من مميزات رجل مولود فى أحضان التبعات الجسام .

ويضاف الى كل هذه الصفات شجاعة البدن (وهى الفضيلة الوحيدة التى تحول دون الادعاء) ، والصحة الجيدة . فالصحة الجيدة تزيد من سلطان الزعيم ، وتسهل عليه أن يتوخى الصبر الجميل ، وأن يكون عظيم الجلد على العمل ، وقوى الارادة .

لقد كان من أعظم صفات المارشال « جوفر » أنه كان يتمتع بشهية طيبة ، ومقدرة على النوم . ونحن مدينون لهاتين الخلتين بالنصر في معركة « المارن » . فالتوازن الجسدى يسفر عن حدة الذهن . وهدوء الأعصاب أهم ما يتحلى به رجل مقدر له أن يحكم .

وان المرء ليذكر تلك المناسبة التي أصدر فيها « جالينى » بعض أوامره في ساحة القتال ، ثم فتح كتابا . ولقد عجب « ليوتى » لهذا التصرف ، وكان ضابطا صغيرا فى ذلك الحين فقال له « جالينى » : لقد فعلت كل ما أستطيع ، وسأنتظر الآن حتى أرى ما يحدث ، وبينما انا فى الانتظار ، سأتجه بفكرى الى شىء آخر .

ولقد كانت هذه طريقة مثلى لتصفية ذهنه واستمرار هدوء أعصابه . ولقد اقتدى به « ليوتى » فيما بعد ، فحين حوصر فى مدينة « فاس » ، وخيل اليه انه قد فقد كل شىء ، تناول كتابا وراح يقرأ .

قال « مونتانى » : يسرنى أن ارى قائدا أمام حصن ينوى

مهاجمته فى عاجل قريب ، وقد القى كل اهتمامه الى حديث أصدقائه . كما يسرنى أن أفكر فى « بروتس » وهو يختلس ساعات قلائل من وقت واجباته فى الليل ، ليقرأ ويلخص « بوليبياس » .

أن التافهين الذين تنقض ظهورهم اعباء شئونهم ، هم الذين لا يعرفون كيف ينحونها جانبا ، ثم يحملونها من جديد .

***

والشخصية تحتل المكان الأول من الأهمية . بيد أن للذكاء اهميته الجوهرية على أى حال .

ومن المستحسن ان يكون الزعيم متعلما واسع الآفاق فى تعليمه . فالتاريخ والشعر يزيدانه علما بالعواطف الانسانية . والثقافة تهيىء الفرص أمام الرجل العامل بين الحين والحين ، كى يظفر بسكينة النفس ، وتضع تحت تصرفه نماذج من الاتساق والصفاء .

وانه من بعض وجهات النظر ، لعمل فنى ، أن يقاد هيكل أمة ، أو يقاد جيش . والرجل الذى اكتسب من دراساته احساسا بالجمال ، يكون أدنى الى النجاح فى ذلك من سواه .

قال المارشال فوش : اذا كانت قيمة الدراسات العلمية كامنة فى تعويد العقل على القواعد والمعايير المادية ، فان قيمة دراسة الأدب ، والفلسفة ، والتاريخ ، انما هى انتاج الأفكار المتصلة بالعالم الحى . وهى بذلك تدرب الذكاء وتوسعه ، وتحتفظ له بالحيوية الدافقة والقدرة على الاثمار ، عندما يدخل ملكوت اللانهاية . وسوف يزيد المستقبل من حاجة ضابط الجيش الى اكتساب الثقافة

العامة الى جانب المعرفة المتصلة بشئون مهنته .

والمعرفة المهنية ضرورية تماما بطبيعة الحال . وعندما ظهر كتابى « أحاديث عن القيادة » ، منذ زمن طويل ، كتب الى المارشال « فايول » يقول :

« يستطيع الرجل أن يصير ضابطا ممتازا اذا كان يتمتع بالشخصية ، وحسن التقدير ، وفوق كل شىء على قدر عظيم من المعلومات العامة التى لا يتسنى اكتسابها الا بعد دراسة طويلة » .

« ولم يدرك الناس الادراك الكافى أن كثيرين فى القيادة العليا فى الحرب الماضية كانوا أســــــاتذة سابقين فى « المدرسة الحربية » مثل : فوش ، وبيتان ، ومثلى أنا ، كثيرين من غيرنا . . . وكانت تلك هى أول مرة يصبح فيها أساتذة قوادا ، وذلك بفضل التعليم العملى الأساسى لذى تهيئه تلك المدرسة . وهذا التعليم يقوم كله على اساس من التاريخ والاقتباس : دراسة كتب المراجع ، والتمرينات التحريرية فى الشتاء ، ودراسات ، ومناورات فى الميدان فى الصيف .

« وتستطيع ان تتصور أن الرجل الذى قضى سنوات فى حل مختلف المسائل فى الخطط الحربية ، لا يجد نفسه فى ساحة القتال وقد أسقط فى يده .

« والحلول يمكن العثور عليها دائما اذا كان التعليم قد اتبع مناهج واضحة مقررة تجمع بين اعتبـــــارات الجسم والذكاء والاخلاق ــ ولها اهمية فى الحرب ــ حتى يقوم كل منها بدوره على الوجه الأكمل . ويجب الحرص على الا يهمل أمر احدها من أجل الآخر : فكلها متساوية فى ضرورتها » .

وذكاء الزعيم يجب أن يمتاز بالبساطة والوضوح ، فان العمل يكون عسيرا اذا امتـــــلأ العقل بمختلف النظريات والمشروعات . والصناعة التى يزيد تنظيمها عما ينبغى ، يضيع فيها من النقود مثل ما يضيع فى صناعة غير منظمة على الاطلاق ، لأن « ناقل الحـــــركة » يستنفد كل قوة المحرك . (ولهذا السبب نجد أن بعض المصانع الصغرى التى يديرها رجل واحد ، تتفوق على مصانع كبرى بسبب قلة التكاليف وجودة الانتاج) .

فيجب أن تكون لدى الزعيم أفكار قليلة وبسيطة جدا ، اكتسبها من تجاربه ، وتأكد من صوابهـــــا من طريق الاستعمال . وهذا الهيكل الذى تخلقه التجربة من شأنه أن يحوى كثيرا من المعلومات الصحيحة التى يستعان بها فى اداء العمل المطلوب .

ومن واجب الزعيم أن يعـــرف كيف يستخدم عقول الآخرين . يقول « ريشليو » : على المرء ان ينصت كثيرا ويتكلم قليلا ، ليتسنى له أن يحكم شـــعبا على الوجه المرضى .

على انه لا ينبغى الانصات الا لرجال معينين ، هم الذين لديهم المعلومات الصحيحة . ومن المستحسن كثيرا الا يقال شىء ، ومن المستحسن كذلك أن يرغم الرجل الثرثار على السكوت .

وينبغى أن يتمتع الزعيم بذكاء لماح حاد . فالزمن عامل فى كل عمل . فالمشروع الناقص متى وضع موضع التنفيذ فى الوقت المناسب ، خير من المشروع الكامل الذى يتأخر تنفيذه أكثر مما يجب .

وقد يبلغ من أهمية الوقت ، فى بعض الأحيان ، أن

يصير له كل الاعتبار . فوزير الطيران لا ينبغى له أن يقول : « كيف يتسنى لي — بمن لدى من المساعدين ، وميزانيتى ، ومصاعب الادارة — أن أضع خمسة آلاف طائرة ؟ » . بل يجب عليه أن يقول : « بما أنه يجب أن يكون عندى خمسة آلاف طائرة فى الربيع القادم ، ما هى الميزانية التى يجب أن أصر على طلب اعتمادها ، وما هو المجهود الذى يجب أن أطلب من مساعدى أن يبذلوه ، حتى يتم العمل فى الموعد المحدد له ؟ » .

وفى صناعة الثياب — كما هى الحال فى الحرب ، وفى ادارة مصنع ، واصدار صحيفة — قد يكون البطء مصدر خطر لا مزيد عليه . هنا يفكر الرئيس بسرعة ، ويحيط نفسه بمساعدين يعملون بسرعة .

وأخيرا ، يجب أن يحسب الزعيم حساب التقاليد والعادات . فبمجرد البقاء على قيد الحياة — فى رأيه — فضيلة . وهو يبنى مستقبل مواد يتيح له الماضى أكثرها متانة . وهو يقطع ويعيد التشكيل ، ولكنه لا يقذف بشيء عرض الحائط .

وقد روى « كبلنج » فى احدى قصصه الخيالية الجميلة كيف عاقبت آلهة الأنهار بناة الجسور على أنهم تحدوا قوانين العمل القديمة .

ونحن أبناء القرن العشرين ، مزودون بوسائل مدهشة لغزو الكون . ولكن الكون له أساليب رهيبة فى الانتقام لنفسه . وليس فى وسعنا دائما أن نتكهن بنتائج أعمالنا .

وعند حدوث ثورة : يبدو أن الرجال يدمرون التحصينات التقليدية للأمة ، ولكن يجب على المرء أن ينتظر

حتى يرى نهايتها ، قبل ان يكون رأيا . ولقد انتهت الثورة الفرنسية بالعودة الى النظام الذى قامت على أنقاضه .

والزعيم الحكيم لا ينسى أن العقبة الكبرى التى صادفها الساحر الناشىء ، انما صادفها وهو يحاول ان يسكن حراك العصى السحرية التى حركها برقاه وتماويذه .

***

وسواء كان الزعيم وزيرا ، أو ضابطا ، او بناء أو مديرا ، فانه يتصل بمساعديه بثلاث طرق : بما يصدره من الاوامر ، والتقارير التى يتلقاها ، والتفتيش الذى يقوم به .

ويجب أن يكون الأمر الصادر واضحا قبل كل شىء . فالتفكير قد يكون قليل الوضوح ، والخطة يكون فيها دائما شىء من الخيال ، ولكن « الأمر » يجب أن يكون دقيقا على الدوام . وكل الأوامر يمكن الخطأ فى فهمها ، والأمر الغامض لا يمكن فهمه أبدا .

ولقد قال نابليون : لكى يتقن المرء عمل شىء ، يجب أن يعمله بنفسه . وهذا غير صحيح .

غير أن الزعيم الحكيم هو من يعترف بأن القليلين من الناس يحسنون الفهم ، وأن كل انسان معرض للنسيان ، ولهذا لا ينبغى الاكتفاء بمجرد اصدار الأمر ، بل على المرء أن يتحقق من تنفيذه ، كما أن عليه ، عندما يصدره ، أن يتوقع اى شىء يحول دون أن يترك اثره المطلوب .

فحماقة الكائنات البشرية ، وسوء طوية الحظ ، لا حدود لهما . والشىء الذى لا يتوقع المرء حدوثه ، يحدث على الدوام .

والزعيم الذى يحاول أن يشلّ هجوم الحظ العاثر ،

والذى يقوى مواطن الضعف فى خططه ضد الحماقة ، يكون اقدر على فرض مشيئته من ذلك الذى لا يعمد الى مثل هذه الاحتياطات .

على أن هذه الاحتياطات يقل الاضطرار اليها عندما ينجح الزعيم فى احاطة نفسه بمساعدين علمته تجاربه أن يثق بهم . فلكل زعيم أمة هيئة مكتبه . ولكل قائد ضباط أركان حربه الخصوصيون . وهؤلاء المساعدون يكونون على علم تام بما فى رئيسهم من انواع الشذوذ ، وهم يعرفون كيف يقومون بخدمته ، ويفهمون أوامره على الفور ، ويتحققون من تنفيذها بكل دقة .

ومهما يكن من شىء ، فليس فى الدنيا سوى القليلين من الناس ، الذين يمكن الاعتماد عليهم . ولقد قيل عن الرئيس الأمريكى « ولسون » انه كان يؤمن بالانسانية ، ويكفر بالناس جميعا . والزعيم الحق هو من يكفر بالانسانية ويؤمن بعدد قليل من الرجال .

فكيف يمكن اختيار هؤلاء الرجال ؟ .

ان من بين واجبات الزعيم أن يخالط جماعات من الرجال يستطيع أن يختار من بينها مساعديه . ولقد كان من مصادر قوة المارشال بيتان عندما تولى قيادة الجيش الفرنسى ، أنه كان أستاذا سابقا فى المدرسة الحربية فتخرجت على يديه أجيال بأسرها من الضباط الشبان . كما أن « جامبتا » قد طاف بكل ارجاء فرنسا على أمل التعرف على رؤساء الادارات .

والرجل الذى نال شرف حكم امة ، يجب عليه أن يكتشف خير رجالها ليملأوا كراسى المناصب الحكومية وواجبه لا يكون مقصورا على الاستفادة بالمادة الموجودة وحسب ، بل يكون من واجبه ومن الخير له أن يعمل على

خلق مادة جديدة . وهذا هو ما تفعله الأحزاب السياسية فى الخارج . ومثال ذلك ما يفعله حزب المحافظين فى انجلترا ، حيث يراقبون الجامعات الكبرى بأعين مفتوحة على الدوام ، على أمل العثور على شبان يمكن أن يتحولوا يوما ما الى رجال دولة . وهناك معهد يتلقون فيه دراستهم الخاصة . فاذا اثبتوا انهم يتمتعون بذكاء لماح يحصل لهم الحزب على مقعد فى البرلمان . ويحاول رئيس الحكومة أن يهيىء للمتفوقين من بينهم فرصة اكتساب بعض الخبرة ، عن طريق تعيينهم سكرتيرين برلمانيين ، ثم وكلاء وزارات .

ومن واجب زعيم الحزب أن يحرص على اختيار طبقة حاكمة . وذلك أيضا من واجب رؤساء المؤسسات الكبرى ، وبعض هؤلاء يدرك هذا . فان « كريزو » مثلا ، له مدارس تدار بطريقة رائعة ، حيث يقسم الطلاب تقسيما محايدا ، حتى يمكن اعداد كل طالب لأعلى منصب يحتمل أن يصبح اهلا له فى المستقبل .

وخلق التفاهم التام بين المساعدين ، يكون فى كثير من الأحيان أمرا عسيرا . ولا ينبغى أن يكون ثمة أى ادعاء أو تعصب محلى ـ كما قد يحدث ـ فى أية هيئة على نحو يخلق شعورا عدائيا بينها وبين سائر الهيئات الأخرى .

ففى السكك الحديدية ، عندما تكون هناك مصاعب بين رجال الحركة ورجال الادارة ، وفى أسلحة الجيش ، عندما يحدث خلاف بين القيادة والضابط فى الميدان ـ يكون من الأهمية بمكان أن يفهم الجميع أن الجيش ، أو المصنع ، أو الأمة ، انما يمثل جسما حيا مستقلا بذاته ، وان كل صراع بين أعضائه معناه الانتحار دون شك .

وكثيرا ما يحدث بين المساعدين الذين يضمرون اعظم

الاعجاب لرئيسهم ويتفانون فى خدمته ، أن تستبد بهم الغيرة ويتنافسوا فيما بينهم على مرضاته دون قصد . ومن واجبه هو أن يتكهن بمثل هذه المواقف التعسة ويتصرف فيها ، لأنها تتهدد كفاية المجموعة بالخطر الشديد .

وعلى نحو ما يستطيع السائق الماهر أن يدرك بمجرد الانصات لمحرك سيارته ، ان خللا قد طرأ على جزء معين من أجزاء ذلك المحرك : كذلك يدرك الزعيم الموهوب أن مساعديه لا يخدمونه على الوجه الأكمل ، ومن ثم يبحث عن السبب ، ويعثر عليه . وكثيرا ما يكون السبب تافها : فقد يكون مجرد هزة من كتفين لا تزيد عن عادة عصبية ، ولكنها فسرت بأنها اهانة .

ويتلقى الزعيم التقارير عن حالة مساعديه المعنوية ، وعن نتائج اوامره، وهو دائما لا يؤمن بصحة تلك التقارير . ولقد عرفت مرة واحدا من أصحاب المصانع كان يقول : ان كل المعلومات زائفة .

ولقد كان على حق فى ذلك . فكل شيء — على وجه التقريب — يكون مبالغا فيه ، أو مشوها ، أو مكتوما . والوسيلة الوحيدة لكى يتجنب المرء الخطأ فيما لديه من الحقائق ، هى أن يقوم بالتفتيش شخصيا من آن لآخر . وهذه الزيارات قد يكون لها تأثير مدهش . فما تلبث أن تنهال عليه التقارير الصحيحة الدقيقة على الفور .

ويروى المارشال بيتان كيف انه فى سنة ١٩١٥ تولى القيادة فى قطاع ظلت القيادة أسابيع وهى تصر على الهجوم فيه . ولقد كانت البلاغات تذكر انباء انتصارات قليلة ، وخسائر كبيرة الى حد ما ، بطبيعة الحال . ولقد تكهن بيتان بحكمته ، أن فى الأمر شيئا خفيا ، فتوجه الى

الخطوط الأمامية ومعه اجهزة لمساحة الأرض ، ولم يلبث ان ادرك ان البلاغات كانت تزيف لارضاء القيـــادة ، وان الانتصارات كانت من نسج الخيال . والتقارير التى ترفع الى القائمين بأمر القيادة تكون فى الأغلبية الساحقة من الأحايين تقارير مرضية او يتم تقديمها بطريقة تعزز نظريات الضابط الذى قام باعدادها .

والزعيم الذى يصعب ارضـــاؤه يستطيع أن يظفر بقسط من المحبة يزيد عما يظفـــر به الزعيم القليل الاكتراث . وخير طريقـة لفرض الصرامة هى أن يحيط المرء نفسه بأولئك الذين يقدر مزاياهم . ويستطيع كل انسان أن يحتمل النقد ما دام من الواضح أن شخصيته وذكاءه لم يتعرضا للشك والارتياب . والطريقة الحكيمة هى أن يعبر المرء بسرعة وقوة ، عما يشعر به شـــعورا قويا . والتعنيف القاسى ، اذا قيل بسرعة ، يكون أقل ايلاما من التبرم العدائى الصامت .

ومن واجب المساعدين أن يدركوا انه اذا لم يتم تنفيذ أمر من الأوامر الصادرة اليهم فانهم ســـوف يدفعون الثمن . ولكنهم لن يتعرضوا لأى لوم ان اسفر تنفيذ ذلك الأمر عن وقوع كارثة . فالزعيم الحق يتحمل دائما كل مسئولية عن تصرفاته .

والملك هو المدافع الطبيعى عن شعبه ضد جشع علية القوم . ومن واجب كل زعيم أن يتحقق من أن عماله ، أو جنوده أو بحارته ، يلقون من مساعديه معاملة تنطوى على العدل والاحترام . وهذا أصعب ناحية من واجباته . لأنه لا ينبغى أن يعمل على اضعاف نفوذ معـاونيه ، أو يصبر على اساءتهم استغلال ذلك النفوذ . ولا قـاعدة

مقررة فى هذا ، كما هى الحال فى كل شىء آخر . فهو كمن يمشى على حبل « بهلوان » ، ضاربا بعصا توازنه ذات اليمين وذات الشمال ، كى يحافظ على التوازن .

وفى سنة ١٩١٧ ، كانت صرامة بيتان ، وعدالته ، وهيبته ، وشعوره الودى ، فى قمع حركات التمرد ، مثلا رائعا من أمثلة ذلك التوازن .

ومن واجب الزعيم ، بقدر الامكان ، أن يتنبأ بالسخط ، ويرد المظالم قبل أن تبلغه الشكايات . ولكى يتسنى له ذلك ، ينبغى أن يظل على اتصال وثيق دائم بالرجال الذين بيده مقاليد أمورهم . فليذهب الى الخنادق ان كان قائدا حربيا ، وليذهب الى المصنع مع رجاله بين الحين والحين ، اذا هو المدير .

ومن الضرورى أن يكون لديه شىء من قوة الخيال . فلا غنى له أبدا عن فهم حياة الرجال الآخرين ، كى يستطيع ان يحمى أولئك الذين هم دونه من التعرض لآلام لا ضرورة لأن يتعرضوا لها . فان السر فى ظفره بمحبتهم يكمن فى محبته هو لهم ، ومقدرته على أن يزن أعمالهم بنفس الاتقان الذى يؤدونها به هم أنفسهم . والرجال يحتملون تلقى الأوامر ، بل يحبون ذلك ، اذا كان من يصدرها ، بلباقة .

ان الحكم والقيادة فنان مستقلان فى زمن السلم . والقيادة هى تزعم مجموعة من المخلوقات البشرية فى ظل نظام مرعى ، فى سبيل الوصول الى هدف معين .

وضابط الجيش يعلم ان جنوده سوف يطيعونه ، الا فى حالات نادرة من التمرد الخطير . وهو كذلك يعرف تماما

ما هو هدفه : الدفاع عن منطقة معينة ، او الاستيلاء عليها .

ورئيس المؤسسة التجارية الكبيرة يعرف أن عليه أن يقدم سلعة معينة بثمن محدد ومقادير محددة ، وانه ان أخفق فى ذلك أصابه الخراب وتعطل رجاله من العمل . وفيما عدا حالات اختلال توازن الظروف الاجتماعية ، يكون هو سيد نفسه ، ما دام مطيعا للقانون .

والدكتاتور يشبه القائد العسكرى ، فهو يتولى القيادة أكثر مما يتولى شئون الحكم .

ورئيس حكومة الأمة المستقلة ، يجب أن يوجه نحو أهداف غامضة متغيرة ، أعمال جماعة من الناس لا يحملها على طاعته سوى الخوف من أن تسود الفوضى ، على نحو ما لا يخشى فى أزمان السلام الاجتماعى . وهو يتعرض فى كل ما يفعله لنقد خصومه الذين يزيد فى قلة رحمتهم له ، رغبتهم فى أن يحل رجل آخر محله . أما معاونوه فانهم لا يكنون له شيئا من الاحترام . فهم انداده وخلفاؤه .

ما هى المميزات التى ينبغى أن ننشدها فى رجل نكل اليه أمر تصريف شئوننا ؟ .

فوق كل شىء ، ادراك ما هو فى الامكان . ففى السياسة ، لا جدوى مطلقا من وراء رسم المشروعات الجليلة النبيلة ، اذا لم يكن فى الامكان تحقيقها بسبب الحالة السائدة فى البلاد . واندفاعات الأمة المتحررة ، تكون فى جميع الأوقات بمثابة « متوازى أضلاع » من القوى .

والعظيم من رجال الدولة يدرك ما هى تلك القوى على وجه الدقة ، ومن ثم يقول لنفسه : « اننى أستطيع أن

اصل الى هنا فقط . وليس الى أبعد من هذا قط » .
وهو لا يسمح لنفسه بأن يحابى طبقة ما لأنه يتكهن برد الفعل المحتوم من جانب الفئات التى أهمل أمرها .

والطبيب البارع لا يعالج مريضه من مرض عابر بعقار يسبب له مرضا دائما فى الكبد . وكذلك شأن كل حصيف الرأى من رجال الدولة ، فهو لا يترضى الطبقة العاملة دون مبالاة باحتمال اغضاب الطبقة البورجوازية الوسطى . كما أنه لا يدلل هذه الطبقة الأخيرة على حساب الأولى . بل يحاول أن يعتبر الأمة جسدا كبيرا حيا تعتمد أعضاؤه بعضها على بعض . وهو يقيس درجة حرارة الرأى العام كل يوم ، فاذا ارتفعت حرارة الحمى كان عليه أن يحمل الأمة على الاستجمام .

ومع أنه قد يقدر قوة الرأى العام حق قدرها ، فان رجل الدولة القدير البارع ، يدرك أن فى وسعه أن يؤثر على الرأى العام بسهولة ، الى حد معقول . وهو يقدر مقدرة الشعب على النظر الى جهوده بغير اكتراث .

والشعب يلجأ أحيانا الى العنف . واحتجاجاته الغاضبة تكون مشروعة اذا جلبت الحكومة عليه الفقر ، أو انتزعت منه حريته التقليدية ، أو تدخلت تدخلا خطيرا فى شئون حياته المنزلية . ولكن أفراد الشعب يسمحون لأنفسهم بأن يتولى قيادتهم رجل يعرف الى اين هو ذاهب ويريهم بوضوح أن مصالح الوطن هى غاية ما يصبو اليه ، وأنهم يحسنون صنعا اذا هم جعلوه موضع ثقتهم .

وتمييز ما هو فى الامكان ، ليس مجرد المقدرة على ادراك أن أشياء معينة غير ممكنة ــ فتلك ميزة سلبية ــ بل هو كذلك بالنسبة الى الرجل المقدام ، ادراك أن بعض

الأشياء التى يبدو أنها صعبة الى أبعد حد ، هى فى الواقع وحقيقة الأمر مستطاعة ممكنة .

ورجل الدولة العظيم لا يقـول لنفسه : « هذه الأمة ضعيفة » . بل يقول : « هذه الأمة نائمة ، وسأعمل على ايقاظها . فالقوانين والأنظمة من صنع الناس . وسوف أغيرها اذا اقتضت الضرورة » .

ومهما يكن من شىء ، فالعزم على عمل شىء ما ، يجب أن تعقبه أعمال ، لا مجرد كلمـات . والسياسيون غير الممتازين ينفقون معظم أوقاتهم فى رسم الخطط والتبشير بالبرامج . فهم يتحدثون عن اصلاح الهيئات ، ويخترعون نظما اجتماعية ليس فيها أى عيب ، ويضعون المشروعات التى تكفل السلام الدائم .

ولقد قلنا فى معرض الحديث عن فن التفكير ان المشروع ليس عملا أبدا . ورجل الدولة الحق فى خطـاباته التى يلقيها على الجماهير ، يعرف اذا اقتضت الضرورة ، كيف ينحنى باحترام أمام النظريات الجديدة ، وينطق بعبارات تقليدية فى مصلحة أولئك الذين يحرسون أبواب المعبد ، ولكنه فى الواقع انما يشغل نفسه بالعناية بحاجات الوطن الحقيقية . مثال ذلك أن يقول : « فى سنة ١٩٣٩ يجب على فرنسا قبل كل شىء أن تحافظ على السـلام ، وتعزز تحصيناتها الجوية بانتاج مزيد من الطائرات ، وتزيد انتاجها فى الصناعات الأخرى . وأخيرا ، تنظم ماليتها » . وهو يحاول تحقيق هذه الأهداف المحددة على وجـه الدقة ، بطرق يعتقد هو أنها هى المثلى . فاذا وجد عقبات فى طريقه ، سلك طرقا أخرى .

والغرور ، والاعتزاز بالذكاء ، وحب التقيد بالقواعد المقررة ، من أخطر عوامل الفشـــل التى تتهدد الرجل السياسى . وبعض زعماء الأحزاب لا يحجمون عن التضحية بالوطن فى سبيل نظرية أو مجموعة من المبـــادىء . والزعيم المخلص يقول : « فلتذهب المبادىء ، لانقـاذ الوطن » .

هل يكون عمله ناقصا ؟ وهل يسفر عن ظلم ؟ انه يدرك هذه الاحتمالات . لأن كل جزء معقد من العمل ، انما يكون ناقصا .

وفى الكتاب المدهش الذى ألفه « برنانو » بعنـــوان « مذكرات قسيس من الريف » ، يحاول قسيس طاعن فى السن أن يحمـل قسيسا شابا على أن يفهم أنه حتى القديس لا يستطيع أن يحول أهل المنطقة جميعا الى قوم من الاتقياء الصالحين . ولكى يبرهن على صحة رأيه، يروى العجوز قصة امرأة بلجيكية كانت تقوم على خدمة احدى الكنائس فى الريف ، وأرادت أن تجعل كنيستها مضرب الأمثال فى النظافة : « ... ولقد كانت دائبة النشاط لا تعرف كللا و لامللا . فلم تكن لتقصر فى تنظيف أو غسل أو طلاء بالشمع . وكان من الطبيعى أن تجد طبقة جديدة من الغبار فوق المقاعد فى صباح كل يوم . وأن تجد أعشابا جديدة قد نبتت فى الفناء ، ثم ... خيوط العناكب ــ يا السماء ! ــ خيوط العناكب التى لا تكاد تزيلها من الوجود ، حتى تعود سيرتها الأولى » .

على أن الخادم لم يتطرق اليأس الى نفسها . بل عكفت على التنظيف والغسل . وبدأت الطحالب تنبت على أعمدة الكنيسة ، وأيام الآحاد تملؤها بالقاذورات ، وأخــيرا ،

قتلتها أيام الأعياد قتلاً .

ويختتم القس الطاعن فى السن حديثه عن تلك المرأة بقوله : « على أنها ، من بعض وجهات النظر ، قد راحت ضحية ، ولا سبيل الى انكار ذلك . ولم يكن خطؤها هــو محاربة القذارة ، بل محاولتها التخلص منها بصورة تامة ، كما لو كان مثل ذلك ممكن الادراك ... ان الريف مكان قذر ، بحكم الضرورة » .

والقارة أكثر قذارة ، لا سيما قارة قديمة مثل أوربا ، التى تعرضت على تعاقب قرون من الزمن ، لغزو الطحالب والنمل ، والمرارة والبغضاء .

ولقد كان الرئيس « ولسون » أشبه بتلك الخــــادم البلجيكية . لأنه أراد أن يحيل هذا الكوكب القديم الذى يعلوه الغبار ، اتحادا لرجال القانون على الفور .. ولقــد كانت فكرة رائعة بغير شك ، ولكنها مستحيلة التنفيذ . كما أن من المستحيل اليوم أن يرى النـــاس كيف تسير الأمور ، ويقوموا بتنظيف أوربا مرة واحدة وتكون هى الأخيرة .

والعظيم من رجال الدولة ، كربة البيت الماهرة ، يدرك أن عملية التنظيف ضرورية فى صباح كل يوم . واذا نشب عراك ، احتمله فى صبر ، موقنا من أن عراكا آخر لن يلبث أن ينشب ، حالما ينتهى الأول . وهو يوافق على تسوية ما ، مع أنها غير مرضية ، ولا تزيد عن كونها مجرد اجراء مؤقت . لأنه يعلم أنه ليس فى شئون البشر ما هو مرض أو دائم . وبعد تكرر التأخير ، يقترب السلام ، دوليا كان أو اجتماعيا . عشر سنوات ، عشرون سنة ، وبعدها يتم انجاز عمل الجيل الذى ينتمى اليه . ثم يبدأ تاليه حياته من يوم الى يوم .

ومن حق الزعيم الجديد بلقب الزعامة ، أن يطـــاع . والمجتمع الذى لا يستطيع احترام الزعيم الذى وقع عليه اختياره ، مجتمع مقضى عليه بالدمار . لأنه لن يلبث أن يصيبه العجز عن العمل . ولا شك فى انه قد يفضل نظاما على آخر من انظمة الحكم . ففى زمن الحرب مثلا ، يضطر مثل ذلك المجتمع الى الاستعاضة عن النظـــام المدنى بالعسكرى . فاذا حدث هذا يجب عليه الولاء للزعماء المختارين .

وانعدام النظام يجلب الهزيمة على الجيش ، والخراب على صاحب المصنع . وعلى هذا النحو نجد أن الشعوب الواقعة تحت رحمة نظامين متعـــارضين ، تكون فى شر حال . ومما يضر بالعمال أن يكونوا ممزقين بين نظامين : النظام الذى يفرضه صاحب العمل ، والنظام الذى يفرضه اتحاد العمال الذى ينتمون اليه . ويجب أن يحدد بوضوح مدى سلطة كل من صاحب العمل واتحاد العمال . وبعد ذلك يباشر كل منهما سلطته كاملة فى حدود اختصاصه . ولقد ظهر أن اتباع مثل هذه الطريقة ممكن ، فى انجلترا والدول الاسكندنافية .

ومن حـــق الزعيم أيضا أن يحتفظ بزعامتـــه . فكيف يمكنه أن يصل الى نتائج طيبة ، الا اذا كان لديه الوقت الكافى ؟ وقبل أن يسند الى رجل ما اعادة تنظيم شئون فريق من الناس ، أو انشاء مصنع للطائرات ، يكون من الضرورى الحصول على معلومات تامة عنه ، والتأكد من أنه خير من يصلح لشغل المنصب .

غير أنه بعد ان يتم الاختيار ، يجب أن يتاح له الوقت الكافى لاكتساب الخبرة ، كمـــا يجب الاحتفاظ به فى منصبه ، الا اذا اتضح أن الرجل الذى وقع عليه الاختيار

قد اختير بطريق الخطأ ، وانه غير جدير بذلك المنصب . والزمن عامل يخلق اتصالات لا حصر لها ، ويسهل استخدام النفوذ . وعندما سئل « ليوتى » عن سر نجـــاحه فى مراكش ، أجاب بقوله : « لقد ظللت بها ثلاثة عشر عاما » .

ولكن ، كيف يستطيع المرء أن يوفق بين النظام وطول العهد بالمنصب ، وبين استعمال الحق فى الانتقاد استعمالا حرا ؟ ألا يجوز أن ينقلب الزعيم غير محدود السلطة الى طاغية أو مجنون ؟ .

لقد اخترع « آلدوس هكسلى » ما أطلق عليه اسم « لعبة القيصر » . وفكر فى أصدقائه ، وسأل نفسه : من من القياصرة يمكن أن يكون « فلان » أشبه به ، لو أنه أعطى السلطة العليا ؟ ولقد نجح فى هذا الاختبار قليل من الشخصيات . . . ومن الواضح أن النقد ضرورى ، ولكن ما هو الدور الذى يستطيع ، وينبغى ، أن يلعبه ؟ .

فى الجيش ، وبصفة عامة ، فى كل الحالات التى يتعين فيها القيام بعمل ، يجب أن تكون هناك طاعة مطلقة ، ويجب أن يصدر النقد عن أولئك الذين بأيديهم أمر القيادة .

ولكن ، فى زمن الحياة العادية للوطن الحر ، يكون النقد من حق الجميع ، فى حدود معينة ترسمها التجربة . واذا اعربت الأمة عن رغبتها بوضوح ، جاز تغيير زعمائها من حين الى حين ، ولكن لا ينبغى التشهير بهم ، أو تغييرهم فى فترات متقاربة أكثر مما هو ضرورى ، أو اخضاعهم لرغبة رجل الشارع .

وفى سبيل خلق حرية حقيقية ، وهو عمل رائع حقا ، يجب أن يكون هناك ــ فضــــلا عن مجموعة صالحة من القوانين ــ تعليم صالح من الناحيتين الخلقية والروحية .

ومدى صلاحيتنا لأن نصير شعبا حرا ، يتوقف على مدى مقدرتنا على احترام زعيم شرعى ، وموافقتنا على وجود معارضة ، والاصغاء الى آرائها ، ولا سيما وضع خير الوطن فوق كل الأغراض الحزبية والمصالح الخاصة . وليست الحرية من بين حقوق الانسان المكتسبة التى لا يمكن أن تنتزع منه ، بل هى كسب مرغوب ولكنه عسير المنال ، ويجب أن يصارع من أجله على الدوام .

وهذه التربية تزداد الحاجة اليها بصفة خاصة بالنسبة الى أولئك المقدر لهم أن يتزعموا . فبالاضافة الى مقدرة الزعيم على السيطرة على غيره ، يجب أن يكون لديهم شعور عميق بالواجب . وهو لا يستطيع أن يحتفظ بمركزه الا اذا اثبت جدارته به كل يوم .

والرجل لا يكون زعيما صالحا اذا كان لا ينشد سوى تحسين أموره الخاصة بعد أن يوضع على رأس مجموعة من الناس ، أو مؤسسات المال والأعمال . وكذلك لا يكون الرجل زعيما صالحا ، اذا رضى بأن يتولى قيادة فى الجيش ، ثم وضع ملذاته فوق مسـئولياته . وكذلك الحال فيمن يتولى الزعامة على آخرين ، فيستسلم للغضب أو النفور ، أو — من الناحية الأخرى — للمحاباة أو المحسوبية . وكذلك الحال فى ذلك الذى يكون له نصيب فى الاضطلاع بأعباء الشئون الخارجية لبلاده ، فيضحى بمصالحها الدائمة فى سبيل الأحقاد والمكائد الدولية .

ان اختصاص الطبقات المتزعمة هو التوجيه ، اى الارشاد الى طريق الشرف والعمل .

والزعامة ليست امتيازا ، بل هى شرف للزعيم ، وامانة فى عنقه ! .

فن الشيخوخة

من أعجب الأمور أن تدرك الشيخوخة الناس . حتى انه يصعب علينا فى كثير من الأحيان أن نصدق أن الشيخوخة تستطيع أن تدركنا كما تدرك الآخرين .

وقد وصف « بروست » فى كتابه « الزمن المعاد » ـ أبدع الوصف ـ ما يعترينا من الدهشة عندما تجمعنا المصادفة ـ بعد ثلاثين أو أربعين سنة ـ برجال ونساء كانوا فتيات وفتيانا حينما كنا نحن كذلك أيضا . وهو يقول فى ذلك : « اننى لم أستطع أن أفهم أول الأمر لماذا أبطأت كل هذا الابطاء فى التعرف على صاحب المنزل وأضيافه ، ولماذا خيل الى أن جميعهم متنكرون ، وكأنما لبسوا شعورا مصطنعة قد عفرت بالمساحيق وغيرت مظهرهم كل التغيير ... ولقد خيل الى أن الأمير نفسه اتخذ لنفسه ما اتخذ ضيوفه من وسائل التنكر فالتحى بلحية بيضاء ، وراح يجرر قدميه وكأنهما فى حذاء من الرصاص ثقيل . وكان شاربه أبيض اللون أيضا ، كأنما تغطيه طبقة من الجليد . وبدا لى كأنه يزحم الطريق أمام شفتيه المطبقتين ، وأنه كان ينبغى أن يزيله بعد أن أوفى على غايته من التأثير » .

ولقد كان « بروست » يعرف الأمير فى ميعة صباه .

« وما كان يعنينى هو أنه كان صديقا لى ، فتى ظللت أعد سنوات عمره دون قصد ، اذ شعرت بأننى لم أعش منذ ذلك الحين ، فكان عددها مساويا لعدد سنوات عمرى .
وقد سمعت الناس يقولون ان مظهـــره يدل على عمره ، وأدهشنى أن أرى على وجهه بعض العلامات التى لا تظهر الا على وجوه الطاعنين فى السن . وعندئذ أدركت ان هذا كان سببه أنه طاعن فى السن حقا ، وان الحياة تجعل من الأطفال شيوخا عندما يعيشون عددا كافيامن السنين » .

أجل ، اننا لا نرى ، كأننا ننظر فى المرآة ، ما حدث فى وجوهنا وقلوبنا ، الا اذا لاحظنا آثار الزمن على رجال ونساء فى مثل أعمارنا . فنحن لا نزال فى نضرة العمر ، فى رأى أعيننا ، التى أنفقت معنا السنين ، ولا تزال لدينا آمال الصبا ومخاوفه ، كما أننا نغفل عن المكان الذى يشغله شباب الجيل الناشىء .

وفى بعض الأحيان ندهش لسماع كلمة . يوجه الينا الخطاب كاتب شاب فيقول : « يا أستاذى العزيز » ، فى حين نظن أنفسنا فى مثل عمره ، وعمر زملاء له على وجه التقريب .

ومن الأمور الأليمة سماع من يتحدث عن شابة فيقول : « لو لم تكن مجنونة لما رضيت بزوج كهـــل فى الخامسة والخمسين من عمره ، قد ابيض شعره ! » حين نكون فى الخامسة والخمسين ، ولنا شعر أبيض ، وقلب لا يريد أن تدركه الشيخوخة .

***

متى تبدأ الشيخوخة ؟ .
لقد طالما تصورنا أننا نستطيع الهروب منها . ان عقلنا

يظل واعيا كما أن قوتنا تظل سليمة فيما يبدو . ولقد قمنا باختبارات عديدة . « هل أستطيع أن أصعد ذلك التل ، بنفس السرعة التى كنت أصعده بها فى شبابى ؟ » أجل ! اننى ألهث قليلا لدى بلوغى القمة ، ولكن الوقت الذى استغرقته هو نفس الوقت . كما أننى كنت من قبل ألهث قليلا على الدوام .

والانتقال من الشباب الى الشيخوخة شديد البطء ، لدرجة أن من يطرأ عليه التغيير قلما يتنبه اليه . وعندما يتبع الخريف الصيف ، ويتبع الشتاء الخريف ، فان التحولات تحدث تدريجا حتى لتخطئها الملاحظة اليومية .

على أن الخريف يزحف فى بعض الحالات ـ كالجيش الذى حاصر « ماكبث » ـ مختبئا وراء أوراق الشجر فى الصيف ، التى لم يكد لونها يتغير ، ثم تجىء عاصفة عاتية ذات صباح يوم من أيام نوفمبر ، فتمزق القناع الذهبى عن وجه الحديقة ، وتترك وراءها هيكل الشتاء العظمى الجاف ، وتموت الأوراق التى كنا نحسبها على قيد الحياة ، وتتشبث بأغصانها بألياف قليلة ضئيلة . وهكذا تكون العاصفة قد كشفت الستار عن الشر ، ولم تتسبب فيه .

والمرض هو العاصفة التى تثور فى غابة الانسانية . وربما بدا الرجل أو المرأة صغير السن رغم تقدم سنه . ونحن نقول : « انها مدهشة » . أو نقول : « انه يفوق المعتاد » . ونحن كذلك نعجب بنشاطهم ، وحدة أذهانهم ، ولباقتهم فى الحديث . ولكننا لا نلبث أن نكتشف يوما ما ، بعد ارتكابهم حماقة لم تكن لتكلف شابا فى مقتبل العمر أكثر من صداع أو وعكة برد ، أن العاصفة قد أطاحت بهم ...

نوبة قلبية أو نزلة شعبية . وقد يضمر الوجه فى غضون أيام قلائل ، وقد يحدودب الظهر ، وقد تفقد العينان بريقهما . وتستطيع لحظة أن تحيلنا رجالا طاعنين فى السن ، ومعنى هذا أننا كنا نسير فى طريق الشيخوخة زمنا طويلا .

فمتى يحدث فى حياتنا تحول هذا الخريف ؟ .

قال « كونراد » أن الرجل حين يبلغ عامه الأربعين ، يرى أمامه خطا من الظل يعبره مرتعدا ، ويعتقد أن دنيا الشباب المسحورة قد أوصدت أبوابها فى وجهه الى الأبد . ونحن الآن نضع ذلك الخط من الظل فى قرابة الخمسين ، على أنه موجود على كل حال ، وأولئك الذين يعبرونه ، برغم نشاطهم وحدة أذهانهم ، يتعرضون للرعدة الخفيفة ولحظة الجزع القصيرة ، على نحو ما قال « كونراد » .

على أن الشيخوخة أكثر جدا من الشعر الأبيض ، والتجعدات ، والشعور بأن السيف قد سبق العذل ، وان المباراة قد انتهت ، وان خشبة المسرح قد أصبحت ملكا للأجيال الناشئة .

فالشر الحقيقى ليس ضعف الجسد ، بل هو ما يعترى الروح من قلة الاكتراث بالحياة . وعند عبور خط الظل ، نفقد الرغبة فى العمل ، وليس المقدرة عليه .

ومن الممكن بعد خمسين عاما من التجارب وخيبة الرجاء ، أن يحتفظ الانسان بفضول الشباب الدائب ، والرغبة فى المعرفة والفهم ، والحب بكل ما فى القلب من حرارة ، والاعتقاد بأن الجمال ، والذكاء ، والشفقة ، تتحد بحكم الطبيعة ، والاحتفاظ بالايمان بقوة العقل .

وبعد عبور خط الظل ، تستطيع العين أن ترى الأشياء والناس على حقيقتهم فى الضوء المناسب ، حيث لم تعد

تبهرها الأنوار الوهاجة الصادرة عن شمس الرغبة .

كيف تستطيع أن تؤمن بكمال اخلاق الحسناوات من النساء ، بعد أن عشقت احداهن ؟ كيف يمكنك أن تؤمن بالتقدم ، بعد أن عرفت فى حياتك المديدة العسيرة أن التغير العنيف لا يمكن أن ينتصر على الطبيعة البشرية ، وأنه لا شىء سوى أقدم العادات والطقوس ، يستطيع أن يهيىء للناس ملجأ الحضارة ، المبنى من الورق الرقيق ؟ .

يقول الرجل الطاعن فى السن : « ما الفائدة ؟ » . ولعل هذه العبارة أخطر ما يمكن أن ينطق به . لأنه بعد أن يقول: « ما فائدة الصراع ؟ » سوف يقول يوما ما : « ما فائدة الخروج من البيت ؟ » ثم يقول فى يوم آخر : « ما فائدة مغادرة غرفتى ؟ » . وبعد ذلك : « ما فائدة نهوضى من الفراش ؟ » . وأخيرا يأتى اليوم الذى يقول فيه : «مافائدة الحياة ؟ » وهذا يفتح أبواب الموت .

***

فيما عدا الكائنات التى تنجو من الموت بانقسام كل منها الى كائنين جديدتين ، تدرك الشيخوخة كل كائن حى فى وقت معين من عمره يختلف باختلاف أنواع تلك الكائنات .

فلماذا لا يعمر بعض أنواع الذباب سوى ساعتين ، فى حين يمكن أن تعيش السلحفاة أو الببغاء قرنين من الزمن ؟ ولماذا يقدر لبعض أنواع السمك ـ مثل الكركى والسبوط ـ أن يعيش ثلاثمائة سنة ، فى حين أن كلا من الشاعر بيرون والموسيقار موزار لم يعش سوى ثلاثين سنة ؟ .

« أن الانسان لا يعلم ما يصنع الله » .

منذ مائة سنة كان متوسط عمر الانسان قرابة اربعين

عاما . وهو اليوم فى ارقى الشعوب حضارة ، قرابة ستين عاما . وهذا تطور سريع يحدو بنا الى الظن بأنه لولا الحروب والثورات التى تعترض سبيل الصحة ، فسيكون العمر المادى للانسان فى القرن القادم مائة سنة . وهذا على أى حال لن يؤثر على مسألة الشيخوخة على الاطلاق .

على أن قسوة الرجال على الشيخوخة تزداد بازدياد قربهم من الطبيعة . والذئب العجوز يفرض احترامه على سائر ذئاب القطيع ، ما ظل قادرا على صيد فريسته وقتلها .

وفى « كتاب الغابة » وصف الشاعر « كبلنج » ثورة الذئاب اليافعة على اخذها الى المعركة بقيادة ذئب عجوز منهار القوى . ولقد كان اليوم الذى عجز فيه الذئب العجوز عن اقتناص الغزال ، ايذانا ببدء نهايته ، فقد وضع بعض شباب الذئاب حدا لبؤس العجوز الذى تساقطت أسنانه .

والرجال البدائيون فى هذه الناحية يشبهون الحيوانات . يروى أحد الرحالة فى القارة الافريقية قصة رجل من زعماء القبائل جاءه متوسلا اليه قائلا : « أعطنى شيئا أصبغ به شعرى ، لأنهم لو رأوا أن رأسى يشتعل شيبا لقتلونى » . وفى قبائل معينة من قبائل جزر البحار الجنوبية ، يرغمون شيوخ الرجال على تسلق أشجار جوز الهند ، ثم يهزونها هزا عنيفا ، فاذا استطاع الرجل العجوز أن يقوى على الاستمساك بالأغصان ، أصبح له الحق فى أن يعيش . أما اذا سقط ، فانهم ينظرون فى قضيته ، وينفذون فيه الحكم .

ومثل هذه العادات يبدو لنا وحشيا ولكن عندنا نحن

ايضا أشجار جوز الهند . فان الخطابة فى الجماهير ، والقاء المحاضرات ، والقيام بأدوار على المسرح ، انما هى تجارب قاسية قد لا يلبث الجمهور بعدها أن يقول عن رجل الدولة ، أو المؤلف ، أو الممثل : « لقد انتهى » . وهذا بمثابة حكم بالاعدام فى حالات كثيرة . والسبب فى ذلك اما أن يكون أن الفقر يصحب التقاعد ، أو أن المرض ينجم عن اليأس .

والحرب هى شجرة جوز الهند بالنسبة الى القائد . كما ان النساء الشواب هى أشجار جوز الهند بالنسبة الى الشيوخ الفاسدين . ورجل الدولة الذى يحمل وزراءه على اختراق أطواق مشتعلة ، كى يختبر مرونة مفاصلهم ، انما يتبع سياسة شجرة جوز الهند .

وفى الجماعات الأقل بدائية ، لا يقتل من تدركهم الشيخوخة من الرجال ، ولكنهم يعاملون بغلظة . ففى اقليم « مونتانى » يروون قصة فظيعة عن والد راى ولده وهو يقوم بتجويف اناء خشبى ، فسأله ماذا كان يصنع ؟ فأجابه قائلا : « انه من أجلك . لتأكل منه عندما تصبح فى سن جدى » .

وتتحدث قصة اخرى عن والد شيخ سحبه ولده من شعره حتى باب المنزل ، ولم يلبث عندئذ ان صاح به : « قف ! لقد سحبت أبى حتى هنا فقط » .

وبين الفلاحين ، حيث الحياة أقرب الى الطبيعة ، تتحكم القوة البدنية الى الآن فى العلاقة بين الأجيال . أما بين سكان المدن ، فان انتصار الشباب يكون محققا فى أزمان الثورة والتغير السريع ، لأن الشباب أسرع من الشيخوخة فى المساوقة والملاءمة . والشبان اليوم يقودون

الطائرات ، كما كانوا بالأمس يقودون السيارات . وفى هذه الآونة ، لم يعد فى وسعهم أن يمتدوا بأبصارهم — كما كان فى وسعهم فى عهود أكثر استقرارا — الى التأكد من الحصول على أعمال ، واكتساب السلطة والثراء .

ان الشباب يتمثل فيه مجرد القـــوة ، وهو يرفع الدعاة ، مثل هتلر ، الذين ينـــادون بأهداف بسيطة ، ولا يزعزعون عن الآمال الضخمة .

وعلى العكس من ذلك ، الحضارات الفنية العريقة ، فانها تميل الى أن يبسط عليها الشيوخ نفوذهم ، حيث يتولى الشيخ مقاليد الأمور . لأنه فى عالم لم يطرأ عليه أى تغيرات منذ عهد بعيد ، تصبح التجربة مؤهلا قيما .

وفى بلد مثل انجلترا ، يختزن الكثير من احداث الماضى ، وتحكمه العادات ، نجد أن النصر والغـــلبة فى جانب الشيخوخة .

وفى الصين القديمة ، كان الشيوخ موضع عطف نبيل : « لا ينبغى أن يشاهد رجل أشيب الشعر ، وهو يحمل أى شىء ثقيل فى الطريق » . وفى الصين الحديثة ، بدأت هذه المشاعر والاعتبارات تتضـــاءل . وفى كل حكومة شابة ، تزيد قيمة القوة على قيمة حكمة السلف . غير أنه لا يمكن أن تحتفظ اية حكومة بشبابها على الدوام . وكلما تقدمت بها السنون ، ازداد احترامهـــا للناضجين من الرجال .

والزعيم الذى بنى مستقبله على الشباب ، لا يلبث أن يفقد الشباب . وهو يفعل مثل ما يفعل الذئب العجوز ، اذ يحاول أن يخفى شعوره بالخزى ، ويحافظ على عافيته ، ويتظاهر بجسارة الشباب واندفاعه ، ولكن الزمن لا يلبث

بعد حين ، قرب أو بعد ، أن يجعل منه شيخا ، ثم جثة هامدة .

وهكذا الشباب والشيخوخة .. أرجوحة تتوالى حركاتها على ايقاع طبيعى . والظـــروف تتحكم فى كل شىء . ولا فائدة فى أن يتمنى المرء غير ذلك : تغـــيرات سريعة ، مخترعات جديدة وغريبة ، انتصار الشباب ، الاستقرار والتقاليد ، هيبة الشيخوخة . ولعل خير نظام بالنسبة الى الجيلين ، كان نظـام « هوميروس » الذى وضـــعه للمحاربين : الأبطال الشبان يتولون القيادة ، و «نستور» الحكيم يشغل منصب وزير الدولة .

على أن المشكلة أشد تعقيــــدا بالنسبة الى الفرد . فالشيخوخة تجلب مصاعب لا حصر لها . ولكنى لا أعتقد أنها مصاعب لا سبيل الى التغلب عليها . ومهما يكن من شىء فان التغلب عليها يحتم مواجهتها فى صراحة . وسأحاول أن أرسم صورة كاملة منفرة لتلك الشرور ، وأناشد قرائى الا يسمحوا لها باخافتهم .

حين يكون لدى الطبيب مريض مصاب بداء وبيل ، ومن ثم يعزم على اتخاذ احتياطات معينة ، فانه لا يلبث ان يقول : « هذا هو ما سيحدث لك ، اذا لم تحرص على العناية بنفسك » . ثم يأخذ فى تعديد أعراض ، كل عرض منها أفظع من سابقه ، وبعد ذلك يستطرد قائلا : « ولن يحدث شىء من هذا ، اذا أنت اتخذت الاجراءات الوقائية التى اقترحها عليك » .

وهنـــا ، اذن ، ما يمكن أن تكون عليه الشرور التى تصحب الشيخوخة ، والتى لن يصيبك شىء منها ، اذا عرفت كيف تكون أسرع منها .

قبل كل شيء ، باستثناء الحـــالات الخاصة ، يكو
الجسم الذى تزحف اليه الشـــيخوخة ، أشبه بالمحسر
العتيق المجهد ، وبفضل العناية الحـــــذرة ، والاختبار
والاصلاح ، يمكن أن تظل فيه المقدرة على العمل ، ولك
لا يكون كسابق العهد به ، ولا ينبغى أن يكلف ما يفو
طاقته من الجهد .

وبعد بلوغ سن معينة ، يصعب العمل ، ويصبح العم
اليدوى مستحيلا فى بعض الأحيان ، كما يصبح العمـــ
الذهنى غير مستقيم . وفى قليل من الأحيان ، يظل الفنانو
محتفظين بمواهبهم حتى النهاية .

ولقد كتب « فولتير » روايته المعروفة « كانديد » وه
فى الخامسة والستين . كما نظم « فيكتور هيجو » بعض
القصائد الرائعة فى شيخوخته . وأتم « جيته » الخاتم
البديعة لرواية « فاوست » الثانية . وفرغ « فاجنر » م
تأليف موسيقا « بارسيفال » وهو فى التاسعة والستين
وفى عصرنا ، أعاد « بول كلودل » كتابة أثر من آثار
الأدبية الباقية ، كان قد كتبه لأول مرة وهو فى الخامسـ
والعشرين . وقد أعاد كتابته من الألف الى الياء ! .

ومن جهة أخرى ، فان غير هؤلاء ينضب معين الهامه
نضوبا مبكرا . وكثـــيرا ما يكون السبب فى ذلك هو أن
مواهبهم كانت نتيجة لما تعرضـــــوا له من المحن فى بواكر
أعمارهم . وأنهم لم يعنوا أنفسهم أبدا بشئون العــــالم
الخارجى .

ان القلب يسيطر على العقل .

قال « لاروشـــفوكو » : ان الشيخوخة طاغية يحر
الاستمتاع بملذات الشباب ، ويعاقب عليها بالاعدام . وقبل

كل شيء ، نجد أن ملذات الحب ممنوعة ، لأن النســاء والرجال متى أدركتهم الشيخوخة،واجهتهم أشد المصاعب التى تحول بينهم وبين ايحاء الحب ــ بالرغم من امتلائهم بقوه القلب وشباب الروح ــ الى من يصغرونهم فى السن . وعندما يحدث مثل هذه الفراميات ، يجب أن يوضع موضع الاعتبار ذات الدور العظيم الذى يلعبه الاحترام،والاعجاب، وانكار الذات .

ولقد طالما زودنا « بلزاك » بالشواهد والأمثلة . حين يقع الرجل الذى أدركته الشيخوخة فى شراك الحب . ويالها من مأساة ! فالعاشق الشيخ اذ يجد نفسه مرغما على أن يكسب بفضل العطايا والمآثر ما كان يربحه بفضل جاذبيته الشخصية فى أيامه الماضية ، لا يتورع عن تحطيم نفسه من أجل كل شابة تستطيع بمهارتها أن توقظ فى قلبه أملا مجنونا .

ونحن نجد أن « شاتوبريان » ، الذى عرف حق المعرفة مثل ذلك العذاب ، قد ترك مخطوطا فظيعا عنوانه « الحب والشيخوخة » ، وهو تصوير مطول حزين ، لحالة عاشق لا يعرف كيف يصبح شيخا . « ان أولئك الذين أحبوا النساء كثيرا سوف يحبونهن على الدوام وهذا هو عقابهم » . والنساء اللائى أحببن الكثيرين من الرجال ، يلقين عقابهن حين يسمعن من بين الشابات منهن من تقول : « لقد أخبرونى بأنها كانت فيما مضى ساحرة الجمال »» .

وفى حالات كثيرة ، يهرم القلب نفسه . اذ يحدث فى الشيخوخة ذبول غريب . فهل يمكن أن يكون السبب فى ذلك أن شهوة الجسد تعجز عن دعم المشاعر الى الحد الكافى ؟ أم ان السبب فى دلك هو أن ادراك قصر الحياة،

قد أضعف الشهوة والميل ؟ .

على أن ما فى بعض الشيوخ من أنانية ، يثير الدهشة دائما . ولقد أنفق « « آفيل » حيـــــاته بأسرها مع « يونيس » . حيث أصبح عشيقهــا وهى فى الســـــابعة والعشرين ، وأصر على أن تهجر زوجها ، ولكنه لم يستطع أن يتزوجها لأنه كان هو أيضا زوجا لامرأة أخرى . ومن ثم تركت أسرتها ، وأطفالها ، وأصدقاءها ، واحترامها ، وتفانت فى سبيل ملذاته ، وعمله ، ومستقبله . ثم كانت بينهما بعد العشق صداقة عمرت طويلا ، وعندما كان هو فى الثمانين، وكانت هى فى السبعين من العمر ، كانا لايزالان يلتقيان كل يوم . وأخيرا ، أدركتها المنية ، فشعر كل من يعرفها ويعرفه ، بالرثاء له . وراح الناس يقولون أنه سيموت كمدا بعدها . ولكن .. لم يحدث شىء من هذا القبيل ، فقد نجا من الصدمة التى أصابته بموتها وشيكا . وكما أنه كان أكبر سنا من أن يعشق ، كان أكبر سنا من أن يتعذب .

وأنانية الشيوخ هذه تحول دون مصادقتهم الشباب الذين يفتقـــــدون الدفء ، الذى اذا هو اقترن بحنكة الشيخوخة ، كان جاذبا لهم .

والبخل أيضا من علامات تقدم السن . ومن أسبابه الخوف من الاحتياج . فالرجل الهرم يعلم أنه ليس من اليسير عليه أن يكسب قوته ، كما يعلم أن من العسير عليه أن يزاول عملا شاقا ، ولهذا يحرص على ما عنده ، ويحتاط لـكل الاحتمالات ، بمخـابىء متعـددة وخزائن مقفلة .

على أن للبخل أسبابا أخرى . فكل مخلوق بشرى لابد

من أن تكون له شهوة ما ، وهذه الشهوة لا فرق فيها بين مختلف الأعمار . وهى ـ كما هو معروف ـ تتيح ملذات ممتعة : كاحصاء النقود ، واستغلالها ، ومتابعة تقلبات الاسواق المالية ، والاحتفاظ بقليل من القوة على الرغم من ضعف الجسم .

والبخل يصبح بمثابة رياضة يستطيع عشاقها أن يحظوا بمسرات تفوق كل المألوف ، من طريق التدرج فى ازالة كل أسباب الانفاق . وفى هذا الموضوع ، يحسن أن تعيد قراءة « أوجينى جراندى » .

قال « لابرييير » : « ان خوف العوز ليس هو ما يجعل المسنين من الرجال شديدى الحرص على المال . لأن منهم من عنده من الأموال الطائلة ما يحول بينه وبين خوف العوز . وعلى أى حال فكيف يخافون الحرمان من أسباب الراحة فى الحياة ، فى حين أنهم يحرمونها على أنفسهم طواعية واختيارا ، كى يرضوا شح أنفسهم ؟ » .

ان هذه الرذيلة يرجع معظم السبب فيها الى الشيخوخة . والرجل الطاعن فى السن يميل بطبيعته الى الاستسلام لها على نحو ما كان يستسلم للملاذ فى عهد صباه ، والطموح فى عهد رجولته . والبخل لا يتطلب قوة ، ولا شبابا ، ولا صحة جيدة . وكل ما يتعين على المرء هو أن يحتفظ بماله فى خزائن متينة مقفلة ، وأن يحرم نفسه من كل شىء ! والطاعنون فى السن يجدون فى هذا ترضية لحاجتهم الأصيلة الى شهوة ما .

وعيوب العقل تزداد فى الشيخوخة . ومثلها فى ذلك عيوب الملامح سواء بسواء . والرجل الهرم يعجز عن الأخذ بالأفكار الجديدة ، لأنه مفتقر الى المقدرة على

هضمها ، ولهذا يتشبث فى اصرار خبيث ، بالآراء التى اعتنقها منذ عهد نضـــوجه الغابر . وهو يؤمن مزهوا بمقدرته على معالجة أية مشكلة . ويثير غضبه أن يعارضه انسان ، ويعد ذلك انتقاصا من الاحترام الواجب له . ولا يلبث أن يقول لمحدثه : « فى أيامنا ، لم نكن نعارض من هم أكبر سنا منا أبدا » . وهو ينسى فى ذلك ان هذه الكلمات نفسها كانت توجه اليه من جده .

ولما كان عاجزا عن متابعة ما يدور من حوله باهتمام ، حتى لا يتخلف عن ركب الزمن ، فانه يروى القصص عن ماضيه مرة بعد أخرى . مما يدخـــل الملل على نفوس سامعيه من الشباب ، فينصرفون ويتحاشون لقـــاءه تماما آخر الأمر .

والوحدة شر بلايا الشيخوخة ، حيث يختفى أصدقاء لعمر والأقارب واحدا بعد آخر ، دون أن يجد المرء عنهم ديلا . وتتسع الصحراء ، والموت خليق بأن يكون مستحبا ، لو لم يكن اقترابه السريع ، يهدد الناس بهذه الصورة الغامضة .

وهذا هو « تولستوى » الذى كان فنـــانا بالغ الدقة ، يرسم صورة تبهر الأنفاس ، لامرأة لم تعرف كيف تتقدم بها السن :

« بعد أن فقدت ولدها ، ثم فقدت زوجها قبل أن يمضى طويل وقت ، وجـدت نفسها على غير انتظـار ، منسية فى هذا العالم ــ مخلوقا بلا غاية أو هدف . كانت تأكل ، وتشرب ، وتنام ، وتجلس . ولكنها لم تكن تعيش . لم يكن للحياة عليها أى تأثير .

« لم تكن تريد من الحياة شيئا سوى الراحة . ولم

تستطع أن تعثر على الراحة الا فى الموت . ولكن عليها أن تعيش حتى يدركها الموت ، أى أن عليها أن تستخدم كل حيويتها حتى ذلك الحين . ولقد تمثل فيها ــ الى حد عظيم ملحوظ ــ صفات الأطفال الصــــغار الذين لم يشبوا بعد عن الطوق ، والشيوخ الطاعنين فى السن . ولم يكن فى حياتها أى هدف ظاهر . بل كانت مشغولة ــ كما كان يبدو ــ بمجرد مزاولة أعمالها الفردية بما فى بعضها من الشذوذ ! .

« كانت تشعر بضرورة الأكل والشرب ، والنوم قليلا ، والتفكير قليلا أيضا ، والحديث وذرف بعض الدموع ، والقيام ببعض العمل ، وفقد أعصابها أحيانا ، وهكذا .. لسبب بسيط هو أن لها معدة ، وعقلا ، وعضــــلات ، وأعصابا ، وكبدا .

« على أنها لم تكن تفعل كل هذا بوحى من اى دافع خارجى ، أو كما يفعل الناس فى عنفوان حياتهم ، حيث يكون فوق ، ووراء ، الهدف الذى يكافحون من أجله هدف آخر ملحوظ ، هو استخدام قوتهم .

« كانت تتكلم لمجرد شعورها بضرورة استعمال رئتيها ولسانها . وكانت تبكى كالأطفال لأنه كان لابد لها من أن تتمخط ، وما الى ذلك . والأشياء التى يعدها المستمتعون بكامل قواهم اهدافا وغايات ، كانت بالنسبة اليها مجرد أعذار وحسب .

« وحالة الطفولة الثانية هذه ، قد أدركها أهل البيت جميعا ، وان لم يتحدث عنها أحد قط . كما بذلت كل الجهود الممكنة فى سبيل تحقيق رغباتها ، وفيما عــــدا نظرات عارضة ، تصحبها أنصاف ابتسامات حزينة ،

يتبادلهـــا « نيكولاى » و « بيير » ، كانت « ناتاشا » والكونتيسة « ماريا » تعربان عن فهمهما المشـــــترك لحالتها .

« ولكن تلك النظريات كانت تنطق بشىء آخر كذلك ، فقد كانت بمثابة تصريح بأنها قد لعبت دورها فى الحياة ، وأن ما كانت العين تراه منها الآن ، لم يكن كله شخصها ، وان الكل سوف يصل الى نفس الخاتمة آخر الأمر ، وأن النزول على رغباتها كان مبعث سرور وارتياح : ما أكرم أن نضايق أنفسنا مرضاة لهذه المخلوقة التعسة ، التى كانت فيما مضى عزيزة علينا الى حد بعيد ، وكانت ممتلئة بالحياة مثلنا !! .

« كانت تلك النظرات تقول : لا يعجز عن فهم هـذا سوى الأشـــخاص المنحرفين الحمقى الى أبعد حد ، والأطفال الصـــغار ، ومن ثم يجدون ما يبرر التهرب منها ! » .

والشيخوخة تقضى على قوتنـــا ، وتذهب بمسراتنا واحدة بعـد أخرى ، وهى كذلك تذوى الروح كمـــا تذوى الجسد ، وتجعل المغامرة والصــداقة من أشق الأمور ، وأخيرا ، يظللها التفكير فى الموت .

أن فن بلوغ الشـــيخوخة عبارة عن مكافحة الشرور وجعل نهاية الحياة سعيدة على الرغم منها . ولكن ، هل يكون هذا مستطاعا حين تهــــاجم تلك الشرور جسم الانسان ؟ أو ليس كبر السن تغيرا جسديا طبيعيا ، يجب علينا أن نتقبله حين يطرأ ، بقبول حسن ؟ أو ليس فى الامكان كتابة قصـــة خرافية عنوانها : « الشجرة التى

ارادت الاحتفاظ بأوراقها » ؟ أنها تحاول الامساك بها ، والصاقها باغصانها ، ولكن عواصف الخريف تحيلها هيكلا أسود مثل لذاتها ، فى الموعد المضروب .

ومهما يكن من شيء فقد تعلم الناس ــ بفضل الحضارة والتجربة ــ كيف يكافحون ، ان لم يكن ضد الشيخوخة نفسها ، فضد مظهرها على الأقل . وهنا تلعب الزينة دورا رئيسيا .

والمتقدمات فى السن من النساء يعرن ثيابهن من الأهمية أكثر مما تعيرها الشابات . وهذا أقرب الى الطبيعة من كل شيء آخر .

والحلى البراقة تسترعى النظر ، رتصرفه عن عيوب جسم من تتحلى بها . ولألاء قلادة جميلة من اللؤلؤ ، يجعل الانسان ينسى العنق المتجعد الذى تحيط به . وبريق الخواتم والأساور يخفى عمر الأيدى والمعاصم . وعصبات الرءوس وأقراط الآذان ، كزخارف الوشم عند القبائل البدائية ، تبهر العين بحيث لا تتنبه الى التجاعيد وقبح الأقدام .

وكل شيء يهدف الى تعسير التمييز بين الشباب والشيخوخة ، يعد من أعمال الحضارة وأكثر أجيال التاريخ تهذيبا ، قد ابتكر الشعر المستعار ، وهو تكريم من الشعر .

وتأثير مساحيق الوجوه وأصباغ الشفاه ، هو جعل النساء المتقدمات فى السن يشبهن حفيداتهن ، وجعل المرضى من الناس يشبهون الأصحاء منهم .

وبيوت حياكة الثياب ، ومحال التجميل الماهرة ،تبتكر من الأزياء ما ييسر على العجائز أن يحتفظن بالأمل . وبعد

سن معينة ، يكون فن ارتداء الملابس عبـــارة عن اخفاء عيوب الانسان ، وذلك ضرب من التأدب .

والنقاب ابتكار مدهش يخفى الصورة ويخلع على من تضعه على وجهها مسحة من الجمال . وكل زينة نقاب ، يخفى خرائب الزمن بقدر المستطاع .

فهل يستطيع العلم يوما ما ، أن يحول بين الشيخوخة وتخريب أجسادنا والقضاء عليها ؟ وهل يخلق نبع شباب يعيدنا ماؤه الى ميعة الصبا حقا ؟ .

لقد طالما قيل ان عمر الانسان لا تدل عليه شهادةميلاده، بل تدل عليه حالة شرايينه ومفاصله . وابن الخمسين قد يكون أكثر هرما من ابن السبعين . وعلى هذا فلابد أن يكون من المستطاع جعل الرجل أصغر سنا ، بفضل المحافظة المادية على خلاياه .

ولقد نجح المشتغلون بعلم الأحياء فى ذلك ، فى حالة بعض مخلوقات الطبقة المنحطة من الأحياء ، فقد وجدوا أن بعضا معينا من أنواع الحيوانات الهلامية (الرخوة) اذا ما وضع فى كمية صغيرة من ماء البحر ، يسمم نفسه بافرازاته نفسها ، ومن ثم تدركه الشيخوخة بسرعة ، فى حين أنه اذا جدد له الماء كل يوم ، تأخرت شيخوخته . ومن الجائز أن تكون شيخوخة خلايانا راجعة الى تراكم الافرازات الفائضة ، وأن يكون فى وسعنا أن نطيل أعمارنا بالتخلص منها .

ولقد أمكن الاحتفاظ بشباب بعض الحيوانات باستئصال أعضاء معينة من أجسامها ، أو حقنها بهرمونات معينة .

والجرذان التى تعالج بهذه الطريقة تستعيد فتوتها ، وجاذبيتها ، ونشاطها الجنسى ، لمدة تبلغ قرابة شهر من

الزمن . وامكن اجراء أربع عمليات من هذا النوع . وبهذه الطريقة تطول حياة الجرذ بمقـــدار النصف ، ويزيد استمتاعه بها بصورة ملموسة .

على أن آثار هذا العلاج تكون قصيرة الأجل على نحو مطرد . وتجارب الدكتور « فورونوف » على الكباش ذائعة الشهرة . ولا تزال نتائج تجاربه على الآدميين اقل منها نجاحا .

ولكن كل هذا يبدو قليل الأهمية حين يكون فى وسع أى رجل أن يعيش ثمانين أو تسعين ســنة ، اذا عاش سليما معافى . فهل تريد ان تطول أعمارنا الى أكثر من ذلك ؟ .

فى سن الثمانين ، يـكون الرجل قد خبر كل شىء : الحب ونهايته ، والطموح وخواءه ، وعدة معتقدات خرقاء ، وتصويباتها . وخوف الموت لا يكون بالغ الشدة ، كمـا أن العواطف والاهتمام ، تكون منصبة على اشخاص قـد أدركتهم المنية ، واحداث وقعت فى الماضى .

وفى دار عرض الأفلام السينمائية التى لا ينقطع فيهـا العرض ، يكون من حق المتفرج أن يحتفظ بمقعده كمـــا يشاء ، ولكنه فى الواقع ، حين تظهر المناظر التى سبق أن رآها على الشاشة من جديد لا يلبث أن ينصرف . ونفس الحوادث تتكرر كل ثلاثين سنة ، ومن ثم تصير باعثة على الضجر ، ولهذا ينصرف المتفرجون واحدا بعد الآخر .

عنـــــدما أقام لفيف من المؤلفين الانجليز حفلة تكريم للأديب المعروف « هـ . ج . ولز » ، لمناسبة عيده ميلاده السبعين ، ألقى فيهم خطابا قال فيه ان تلك المناسبة قد

ايقظت فيه شعوره وهو طفـــل ، حينما كانت تقول له مربيته : « يا ولدى هنرى ، لقد حانت ساعة نومك » .

والطفل يمتعض حين تحين ساعة نومه . ولكنه فى أعماق نفسه يحس أن النوم سوف يستولى عليه ، وأنه يريد تماما أن يستريح .

ولقد استطرد « ولز » فى خطابه الى أن قال : « ان الموت مربية ، حنون ، صارمة ، فى آن . وعندما يؤون الأوان ، لا تلبث أن تقول لنا : يا ولدى هنرى ، لقـــد حانت ساعة نومك ، ونحن نمتعض قليلا ، ولكننا نعـلم حق العلم أن موعد الراحة قد حان ، وأننا مشوقون اليها فى قرارة نفوسنا » .

***

واذا نحن لم نحزن أكثر مما ينبغى للتفكير فى أن الحياة محدودة الأجل ، كان فى وسعنا على الأقل أن نرجو بلوغ النهاية ونحن أصحاء العقول والأبدان ، وهذا مستطاع بغير شك .

وليس من الضرورى أن تـكون الشيخوخة مصحوبة بالمساوىء المتعددة التى سبقت الاشارة اليها . فكثير من الحيوانات يموت دون أن يطرأ عليـــه أى تغير جسدى جوهرى فى انتقاله من الحياة الى الموت . والجسدالمدرب تدريبا جيدا يظل محتفظا بمرونته ورشاقة حركته زمنـا طويلا .

والسر فى ذلك هو عدم اهمال النفس أبدا . والشىء الذى تم عمله بالأمس ، يمكن أن يعاد عمله اليوم ، اما ما يبطل ، فلا يمكن استئنافه .

ومن المســـتطاع تحقيق الأعاجيب بفضـــل المران

والمواظبة . وكثيرون من الرجال قد بلغوا السبعين ومازالوا قادرين على مزاولة الملاكمة أو السباحة أو لعب التنس أو الشيش . والطريقة المثلى هى المران المنتظم حتى آخر لحظة ممكنة وليس فى فترات متقطعة ، أو ارضاء لنزوات طارئة .

ومن المستحيل وقف زحف الشـــيخوخة متى بدأت زحفها . ومن المستحب كثيرا أن ننكر على الشيخوخة استيلاءها على أجسامنا ، وهو كذلك من ميسور الأمور الى حد كبير .

ويقول فى ذلك « مونتانى » : ما أسهل اطالة أجل ضعف الشيخوخة ، من طريق ادراك ذلك الضعف قبل الأوان . وأنا أفضل أن أكون شيخا هرما لمدة طويلة ، على أن تدركنى الشيخوخة قبل الأوان .

ولا ينبغى أن يكف المرء عن نشاطه البدنى أو العاطفى قبل الأوان . والقلب كالجسم ، هو فى حاجة الى المران . ومن الطبيعى أنه لا يمكن تحريك العاطفة بطريقة متعمدة . ولكن لماذا يكون مجرد تقدم السن سببا فى أن ينكر المرء على نفسه تلك العواطف التى يمكن التمرس بها تمرسا حقيقيا أصيلا ؟ .

الأن الشيوخ اذا عشـــقوا صـــاروا موضع الزراية والسخرية ؟ انهم لا يـكونون كذلك الا اذا نســوا أنهم شيوخ طاعنون فى السن . ولا شىء يدعو الى السخرية فى أمر شخصين هرمين اذا كانا متحابين حبا صادقا . فــكل منهما لا يزال يجد فى الآخر تلك الصفات التى كانت موضع الاعجاب فى زمن الشباب . فالرقة فى المعاملة ، والحنان ، والاعجاب ، ليس لها سن .

والواقع أنه كثيرا ما يحدث ، بعد أن يذهب الشباب وعواطفه الملتهبة ، أن يطفى على الحب شعور جميل من التفانى وانكار الذات . فيختفى سوء التفاهم الحسى باختفاء الرغبة الجسدية ، كما تختفى الغيرة باختفاء الشباب ، ويضعف العنف بضعف قوة الجسد .

وقد تتكون من بقايا الشباب العاصف شيخوخة لطيفة وادعة . وعلى هذا تكون حياة الرجل والمرأة معا ، أشبه بنهر تتدفق مياهه تدفقا مخيفا من فوق صخور مدببة الرءوس بالقرب من منبعه ، ولكن مياهه الصافية لا تلبث أن تتهادى متباطئة قبيل وصولها الى البحر ، حيث تنعكس على سطحها العريض صور أشجار الشاطئين ونجوم السماء .

والحب فى الشيخوخة يمكن ان يكون صادقا ومؤثرا كالحب فى الشباب سواء بسواء . اذ يكون فيه نقاء الصداقة ، كما يكون فيه مثل ما فى حب الشباب من شدة القلق .

ويحدثنا « فكتور هيجو » عن مدى تأثره عندما رأى « مدام ريكامييه » مع « شاتوبريان » جنبا الى جنب ، بعد أن أصيبت بالعمى وأصيب هو بالشلل ، فيقول : « كانوا يحملون المسيو « دى شاتوبريان » الى حيث يجلس بجوار سرير « مدام ريكامييه » » . ولقد كان ذلك منظرا مؤثرا الى أبعد حد . فالمرأة التى لم يعد فى وسعها أن ترى شيئا ، كانت تتلمس الرجل الذى لم يعد فى وسعه أن يحس شيئا ، وكانت يداهما تلتقيان ! تبارك الله — كانا قريبين من الموت ، وكان كلاهما لا يزال يحب الآخر ! » .

وكان الوزير الانجليزى المشهور « دزرائيلى » يجر

نفسه جرا الى المجتمعات كل ليلة ، ليظفر بنظـرة الى « الليدى برادفورد » . ولا شك فى أنها قد سببت له قدرا معينا من العذاب ، ولكن « دزرائيلى » كان رجـلا خياليا الى أبعد حد ، وكانت هى هدف آخر احلامه .

ومن واجب النساء أن يستخدمن سحر اغرائهن فى تحريك أوهام الشيوخ الطـاعنين فى السن ، لتمتلىء أيامهم الأخيرة بوساوس الشباب الساذجة . وكم من مرة خيل للناس أن حياتهم العاطفية قد انتهت الى الأبد ، ثم عادت شعلتها فجأة بصورة تبعث على الدهشة ! .

وفضلا عن هذا فان الحياة العـاطفية ليست مجرد مشاعر غرامية وحسب ، بل هى أبعد ما تكون عن ذلك . فحب الشيخ الهرم ، لأبنائه وحفدته ، يستطيع ان يملأ كل أفقه فى أحيان كثيرة . وما أجمـل ان نتأمل ابناءنا وبناتنا وهم يحيون حياتهم ونحن نستمتع بما يدخـل الغبطة على نفوسهم ، ونتألم حين يتألمون ، ونحب حين يحبون ، ونشترك فى معارك كفاحهم .

وكيف يمكن أن نشعر بأننا دخلاء على لعبتهم فى حين انهم يلعبونها فى بيتنا ؟ وكيف يمكن أن نشعر بالشقاء حينما يكونون سعداء ؟ .

وبعد سرورنا باكتشاف الشعراء الذين نحبهم ، الا نجد مزيدا من المتعة حين نتأمل ابنـاءنا وهم ينعمون بقراءة ما نعطيهم من الكتب ؟ .

وعندما تعجز الحياة عن أن تتيح لنا مزيدا من مباهجها بسبب شيخوختنا ، هل يمكن أن يتصور المرء متعة أعظم من ادخال السرور على نفوس أولاده ؟ .

والأجداد فى كثير من الأحيان أكثر انسجاما مع حفدتهم

منهم مع أبنائهم . فالشيخ الهرم الذى طلق حياةالنشاط ، يستعيد ما كان له فى طفولته حياة النشاط ، يستعيد ما كان له في طفولته من المرح والاستهتار . فهو دائما على استعداد للعب ، ورواية القصص ، والاصغاء الى الأسرار . وحتى قوة الطفل تكو مساوية لقوته هو . فهو لا يستطيع أن يجرى مع ولده ، ولكنه يستطيع أن يمشى بخطى متعثرة مع حفيده . فخطواتنا الأولى وخطواتنا الأخيرة ، لها نفس القيود .

وكذلك ليس بالصحيح ما يقال عن وحدة الشيخ الهرم بحكم الضرورة . على أنه لا مندوحة له عن الشعور بالوحدة اذا كان اهتمامه محصورا فى نفسه ، أو شديد البخل ، أو ميالا الى السيطرة ، أو ضعيف العقل . ولكنه اذا كافح عيوب الشيخوخة المألوفة ، وصح عزمه على أن يكون كريما ، متواضعا ، غير ضنين بالعطف ، فانه لن يلبث أن يجد من الشبان من ينشدون صداقته ويرجون الانتفاع بخبرته . والصعوبة التى تواجهه انما هىتزويدهم بهذه الخبرة ـ التى بفضلها أصبح رجلا غير واهم أو غير مخدوع على الأقل ـدون نيل من مدى حماسة الشباب الطبيعية .

على أن الخبرة لا تعلمنا أن كل حماسة حماقة فنحن نتعلم منها أن ننتظر النتائج ببساطة،لا من الكلمات الرنانة، ولكن من العمل الشاق والشجاعة الفائقة . والشباب خليق أن يتقبل مثل هذه التعاليم ، من رجال جديرين بأن تصدر عنهم .

وفى منتصف شهر ديسمبر تقريبا من كل سنة ، أسير فى طريق « لاتوربى » الذى يقوم على حافته المرتفعة

بيت صغير كبيوت الفلاحين الرومانيين ، يسكنه السياسي المؤرخ « مسيو جبرييل هانوتو » . وهناك شجرة زيتون عالية تجعلني أفكر في « فرجيل » .

وعلى رغم أعوامه الخمسة والثمانين ، يصعد صاحب البستان المنحدر العميق المؤدى الى أشجار البرتقال بسرعة تفوق سرعة الكثيرين ممن يصغرونه في السن . وما يلبث ان يقول بصوت عذب النبرات : « لقد علمتني جدتي أن أتكلم الفرنسية كما كانوا يتكلمونها في زمن لويس الخامس عشر . ولقد علمتها جدتها هذه اللغة » .

وتفكير المسيو « هانوتو » يشبه لهجته ، من حيث الجمع بين القديم والحديث . « سأعطيك قليلا من النصائح ، كي ترددها كلما شعرت بحاجة الى ما يطيب خاطرك . وهي بسيطة وعظيمة الأثر . وهذه هي : أي شيء يجوز أن يحدث ... كل شيء ينسى ... كل صعوبة يمكن التغلب عليها .. لا أحد يفهم أي شيء .. اذا عرف كل انسان ما قال كل انسان عن كل انسان لما تحدث انسان الى انسان » .

وهذا المثل الأخير ، الذي يسحر عقلي ، قد انتزع الأثر اللاذع من شائعات كثيرة اليمة .

ويستأنف الشيخ الفيلسوف الى حيث يقول : « فوق كل شيء لا تخف أبدا . فان العدو الذي يرغمك على التراجع ، يكون هو نفسه خائفا في نفس اللحظة بالذات » .

فدراسة التاريخ ، والحياة المديدة ، قد علمتا هذا الرجل الثقة بالنفس والهدوء ، لا اليأس وقلة الاكتراث . فهو في الخامسة والثمانين ، يضع الخطط العديدة للمستقبل ، ويفكر في القيام برحلات طويلة متعددة ، وهو

يبنى ، ويرسم المشروعات .

وعلى هذا النحو ، قال لى المارشال « ليوتى » بعد أن انتهى معرض المستعمرات : « وماذا عسى أن أفعل الآن » ؟ فقلت له : ان من المحقق أن الحكومة سوف تجد وسيلة ما للانتفاع بكم . فصاح فى وجهى قائلا : « ولكن متى ؟ . ولكن متى ؟ .. اننى سأبلغ الحادية والثمانين قريبا . ويجب أن ابدأ فى اداء عملى الجديد على الفور » .

وهذا هو الموقف السليم من الحياة . ولقد قبل أن الشيخوخة هى الشعور بأن قد سبق السيف المذل ، وأن المباراة قد انتهت ، وأن خشبة المسرح قد صارت الآن ملكا للأجيال القادمة ، وأن نقمة الشيخوخة الحقيقية ليست فى أن يذوى الجسد ، بل فى أن يصبح الروح قليل الاكتراث ، لا يبالى الحياة . وهذا ما يجب علينا ــ وما نستطيع ــ أن نكافحه .

والرجال تدركهم الشيخوخة بسرعة أقل ، اذا ظلت تربطهم بالحياة أسباب قوية . ومن اليسير أن نصدق أن الرجل ينهكه ويقضى عليه أن يحيا حياة عاصفة ، زاخرة بالمشاعر العنيفة ، والكفاحات ، والدراسات ، والبحث الذى لا ينتهى . والواقع أن العكس من ذلك يبدو أنه هو الصحيح .

لقد كان كل من كليمنصو وجلادستون قد تجاوز الثمانين سن عمره عندما تولى رياسة الوزارة ، وكان كلاهما يتمتع بحيوية. دافقة مدهشة . وما بلوغ الكبر الا عادة سيئة لا يجد الرجل المشغول فى وقته متسعا ليتعودها .

ولكن كيف يتسنى للرجل أن يظل مشغولا ؟ افلا يصعب

عليه العثور على عمل عندما تدركه الشيخوخة ؟ وهل من الوسائل المثلى أن يتولى الشيوخ الهرمون مقاليد الحكومات أو ادارة الأعمال ؟ .

في حالات كثيرة يكون الشيخ أفضل ادارة من الشباب . ولقد أنقذت روما على يد « فابيوس » الهرم . وفى حرب سنة ١٩١٤ كانت جيوش الحلفاء وجيوش أعدائهم معا ، تحت قيادة جنرالات طاعنين فى السن . ولم يطلب « أجاممنون» عشرة رجال من طراز «آجاكس»، بل من طراز « نسطور » ، ولقد كان متأكدا من سقوط طروادة ، لو انه حصل على أولئك الرجال العشرة .

والدبلوماسيون والأطباء كبار السن يكون من مزاياهم التجربة المتأصلة فى النفوس ، فضلا عن الحكمة . ومن ثم لا يتأثرون بعواطف الشباب ويكونون قادرين على أن يصدروا أحكامهم بدقة وهدوء .

يقول « شيشيرون »: « ان الأشياء العظيمة لا يمكن ادراكها بالقوة البدنية وخفة الحركة ، بل بالمشورة ، والسلطة ، والحكمة الناضجة التى لا تنقص الشيوخ ، بل توهب لهم بسخاء عظيم » .

***

وهناك طريقتان مرضيتان لتقدم السن ، الأولى هى عدم التقدم فى السن ، وهى طريقة الرجال الذين ينجون من الشيخوخة ، بفضل حياتهم الحافلة بالنشاط . وهذا هو مغزى أسطورة « فاوست » ، التى أكملها الشاعر « جيته » فى ختام قصيدته .

لم يفد « فاوست » الهرم شيئا من وراء استعادته مظهره الشاب ، فقد خدعه الحب والطموح . ولكن العمل

ينقذه آخر الأمر . فبالرغم من عماه وقرب منيته ، راح « فاوست » يكدح فى تجفيف بحيرة آسنة الماء ، وتحويلها الى مرعى ، وهو يستعذب سلفا طعم متعة النجاح والتحرر ، قبيل أن تدركه الوفاة . واذ يتأهب « مفستوفيلس » لتسلم الروح التى اشتراها ، تهبط الملائكة وتحمل الجزء الخالد من « فاوست » الى الجنة ، ذلك الجزء الذى لم يتزعزع ايمانه قط بمقدرة العمل ، وبفضل هذا الايمان حظى بالخلاص .

والطريقة الثانية لتقدم السن على الوجه الصحيح ، هى تقبل الشيخوخة فى هدوء ورضا ، مما يؤدى بالمرء الى السعادة . فلقد مضى زمن من الصراع ، وانتهى اللعب فى المباراة ، ورقدة الموت أصبحت قيد خطوة ، ولم يعد للنكبات ما كان لها من أثر أليم .

وعندما سئل « سوفوكليس » الهرم عما اذا كان لا يزال يستمتع بملاذ الحب ، أجاب بقوله : « فلتحفظنى الآلهة من ذلك ! لقد حررت نفسى من الحب ، فكأننى حررتها من عبودية سيد متوحش لا يرحم » .

ولقد قابلت عددا من الشيوخ الهرمين كانوا من الحكمة بحيث يشبهون الحكماء الذين نراهم فى أحلامنا . فهم بفضل تحررهم ، ليس من نزوات الحب فحسب ، بل من تبعات المستقبل أيضا ، لا يحسدون الرجال الذين يصغرونهم فى السن ، بل يشفقون عليهم من أنه لا يزال عليهم أن يخوضوا بحار الحياة المضطربة . ولما كانوا محرومين من بعض المسرات أعظم الاستمتاع . وهم يعرفون كيف يمكن أن يكون النصح غير ذى جدوى ، ويدركون أن كل انسان يجب أن يعيش حياته الخاصة .

ونحن يسرنا أن نصغى الى ذكرياتهم لأنها تنجينا من انتقادهم . وبين الحين والحين ، عندما تصبح الامور أكثر صعوبة مما نستطيع مواجهته ، نطلب اليهم أن يستأنفوا زعامتهم لنا . ويزيد من رغبتنا فى ذلك أن الجميع يعلمون زهدهم فى هذه السلطة .

وهنـــاك أكثر من طريقتين لتقدم السن على وجه غير مرض . وأسوأها التشبث الدائم بما لايمكن الاحتفاظ به.

وما أكثر رجال الأعمال الذين يرفضون التنازل لغيرهم عن بعض سلطاتهم ، والذين يجعلون من أبنائهم مجرد عبيد لهم ! فى حين أن هؤلاء كانوا خليقين بأن يمنحوهم الحب والاحترام ، لو أنهم كان لهم من الحكمة ما يجعلهم يشركونهم فى تحمل مسئولياتهم .

وما أكثر البخلاء من الآباء الذين يرغمون أطفالهم على أن يعيشوا فى ضنك ، حتى يتشبثوا بأيديهم المرتجفـة برموز المسرات التى لم يعودوا قادرين على الاستمتاع بها ! .

وما أكثر من يتفانون فى الطموح حتى نتسم حياتهم الى آخر أيامهم بالغيرة وعدم القناعة ! .

وفن تقدم السن هو الفن الذى هـــدفه أن تنظر الأجيال القادمة الى الانسان نظرتها الى عون وسند ، لا الى جدار ينهار ... نظرتها الى مستودع أسرار ، لا الى منافس .

***

وللتقاعد عن العمل حديث ذو شـــجون . وبعض الناس لا يقدرون على حياة التقاعد لأنهم لم يهيئوا لهـــا أنفسهم . وبالنسبة الى رجل محتفظ بما فى نفسه من حب الاستطلاع ، يمكن أن يـكون التقـــاعد فى سن

الشيخوخة أمتع فترة فى حياته . ولكن عليه أن يدرك تفاهة الشهرة الشعبية ، وأن يلتمس السكينة فى غمرة الدعة . كما أن عليه أن يحتفظ برغبته فى المعرفة والفهم . وفى قريته ، أو حديقته ، أو بيته ، يجب أن يشغل فراغه بعمل شخصى معين .

والرجل الحكيم بعد أن يعطى كل نشاطه للخدمة العامة ، يعمد فى شيخوخته الى التفرغ تماما لشئونه الخاصة والعمل على تحسين أحوالها . وهذا يكون أسهل عليه ، اذا كان قد استطاع الاقبال على الشعر ، وعلى مواطن الجمال فى الطبيعة ، حتى فى أشد سنوات عمره ازدحاما بالعمل .

أما عن نفسى ، فاننى لا أستطيع أن أتصور شيخوخة أمتع من تلك التى يقضيها الانسان فى ريف غير سحيق جدا ، حيث يمكنه أن يعيد قراءة كتبه المفضلة ، والتعليق عليها ، وقد قال « مونتانى » : « ان العقل ينبغى له أن يتفتح فى الشيخوخة ، كما تزدهر شجيرة « الدابوق » على شجرة سنديان قد ماتت » .

والموتى أصدقاء يعجز الموت عن انتزاعهم منا . والكتاب العظماء رفقاء خالدون ، يستطيعون أن يجملوا شيخوختنا كما أسعدوا أيام صبانا .

والموسيقى كذلك صديق مخلص الى حد يفوق الوصف . وهى بالنسبة الى أولئك الذين فقدوا منا ايمانهم بالطبيعة الانسانية ، ملجأ ينعمون فيه بعوالم أخرى ممتعة .

ومنذ وقت غير طويل ، عندما كانت تعزف سيمفونية بتهوفن السابعة ، عزفا جميلا بوجه خاص ، أمعنت النظر

الى وجوه السامعين من حولى ... كان الجميع ، كبارا وصغارا ، فى نشوة غامرة من السرور . ومن الطبيعى أنه كانت بينهم جماعة مبعثرة هنا وهناك فى المرورين ، والمتعبين ، والمرضى ، ولكنهم لم يكونوا أقل سرورا من الآخرين . فلقد أقبلت عليهم أمواج من الأصوات ، وعانقهم رذاذ رطب من النغم ، واستطاعت عبقرية المؤلف الموسيقى أن تفك أسارهم وترد اليهم حيويتهم . ولقد شاطرتهم السرور ، ووجدت نفسى فى انسجام تام مع عظماء الماضى الذين أعدوا العدة لكى تكون وفاتهم مصحوبة بالموسيقى التى أحبوها أعظم الحب .

يقول « باسكال » : « الرجل السعيد هو من يبدأ حياته بالحب ، ويختتمها بالطموح » . على أن حياته يمكن أن تكون أوفر حظا من السعادة ، اذا هو بعد ارضاء طموحه ختمها فى هدوء . وبهذا يستطيع الرجل أن يجتاز خط النور ، بعد اجتيازه خط الظل بعشر سنوات أو عشرين ، فى سن الخمسين . ولقد خيل له أن هجمات الشيخوخة الأولى مؤلمة ، وكان من الصعب على نفسه أن يجد أن الأفكار التى كان يظنها ملكا له ، قد اعتاض عنها أفكارا جديدة ، وبلبلتها شخصيات وافدة . ولكنه الآن ينعم بالهدوء ، ويشعر بالسعادة لكونه متفرجا يقظا محايدا . وتكفى قسمات وجهه الراضية ، ونظرته الناطقة بالصراحة الباسمة ، للدلالةعلى حالته المعنوية . كلا ! ليست الشيخوخة جحيما يجب أن يكتبوا على بابه : « أيها الداخل ، اترك كل أمل » .

وأسباب اليأس التى يعتقد الشيخ الهرم أنها لديه ، قد وضعت موضع التحليل ، وسرعان ما ظهر أن ليس

بينهـــا ما يستعصى على العلاج . واذا كانت الشيخوخة مصحوبة بضعف ، فالمسألة اذن مرجعها الى الصحة . فهنالك شيوخ ملحوظو القوة ، كما أن هناك شبابا ضعفاء متكاسلين .

والناس ينكرون على الشيخوخة كثيرا من الملذات ، ولكن ما لا ينكرونه عليها من الملاذ فيه مزيد من الجمال مرجعه ادراك كونها قصـــيرة الأجل . وهم يقولون ان الشيوخ يجدون صعوبة فى العثور على أعمال ، ولـكنهم كثيرا ما يعملون ، ويتزعمون ، ويحكمون ، خيرا مما يفعل الشباب . وهم لا يكونون بغير أصدقاء ، بل الأمر على العكس من ذلك ، يحاطون بهم ان كانوا أهلا للصداقة . وأخيرا فان خوف الموت فى سن الشيخوخة يمكن التغلب عليه بقوة الايمان والفلسفة .

***

وهناك طريقتان جيدتان للموت : طريقة « الأبيقورى » لذى يعتقد أن الموت عبارة عن لا شىء ، وطريقة الرجل المسيحى الذى يعتقد أن الموت كل شىء .

ويقول « أبيقور » : « عود نفسك على فكرة أن الموت لا شىء ، فيما يتصل بنا . فالخير والشر مجـرد مسألة اعتبارية ، والموت معناه فقد كل الاعتبارات . وادراك ان الموت لا شىء ، من مباهج الحياة الفانية ... والحيـــاة لا تدخر أية أهوال لمن يفهم حق الفهم أنه ليس هنالك شىء بعد نهايتها ... فليس هناك موت ما دمنا لا نزال على قيد الحياة ، ونحن لا نكون أحياء بعد أن يدركنـــا الموت » .

والفيلسوف المسيحى لا يخاف الموت لانه يعتبره مجرد

انتقال يؤمن بأنه سوف يلقى بعده أولئك الذين كان يؤثرهم بحبه ، ويستمتع بحياة أفضل من حياته اليومية الى ما لا نهاية .

وليس بالمستغرب أن يموت القديسون والأبطال ميتات نبيلة . وبغض النظر عن العظماء ، فان هناك نبلا فى موت العامل المجتهد ، الذى يؤدى عمله حتى النهاية .

والكتاب تحيط بوفاتهم العظمة . وان المرء ليتذكر كيف حفلت اللحظـات الأخيرة لـــكل من بلزاك وبروست بالشخصيات التى أبدعها خياله . ولقد ظل أحدهما يهتف باسم الطبيب « بيانشون » ، بينما ظل الآخر يكتب بخط مضطرب اسم « فورشيفى » .

ومات شارل الثانى ملك انجـلترا ميتة ملك ، و « جنتلمان » . وقال لمن حوله وهو يلفظ أنفـاسه الأخيرة : « لقد قضيت فى الاحتضار زمنا طويلا . أرجو أن تسامحونى » .

ولما سئل « ريشيليو » عما اذا كان يريد أن يصفح عن خصـومه ، قال : « ليس لى أعـداء سوى أعـداء الدولة » .

وقد أعرب « كورو » عن أمله الصادق فى أن يتمكن من مزاولة التصوير فى الجنة . وقال الموسيقى « شوبان » عند احتضاره « اعزفوا ألحان موزار احياء لذكراى » .

ومات نابليون كما ينبغى أن يموت الزعيم ، وهو يتمتم بقوله : « فرنسا ... جيش ٩٩ قائد الجيش » .

وفى بعض الأحيان تستأثر المهنة بكل تفكير الرجـل حتى تكاد تعيش من بعده . كان الفيلسوف « هال » طبيبا . وقد ظل يجس نبضه حتى النهاية . وقال لأحد

زملائه : « يا صديقى ! لقد كف شريان القلب عن الخفق» .
وكانت هذه العبارة آخر كلماته .

وكان « لانينى » العالم الرياضى قد نشر فى بداية القرن الثامن عشر ، طريقة مبتكرة وموجزة ، لاستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية . وعندما حضرته الوفاة خيل لمن حوله أنه فى غيبوبة ، ولم يعد يستطيع التمييز بين أصدقائه ، وقد مال عليه أحدهم وقال : ما هو الجذر التربيعى للعدد مئة وأربعة وأربعين ؟ فأجاب بقوله : « اثنا عشر » ، ثم أسلم الروح .

قال « مونتانى » : لو أننى كنت مؤلف كتب ، لوضعت كتابا يصف صورا متعددة من لحظات الوفاة . وقد صنف اثنان من الكتاب الانجليز هما « بيريل ولوكاس » ، الكتاب الذى تمنى « مونتانى » تصنيفه . وان قراءته لتزيد من احترام المرء للشجاعة الانسانية ، فليس فى صفحاته الا القليل من ذكر الجبن . « الموت — يوم — لا أكثر . . . ففى نعاس الموت هذا ، ماذا عسى أن تكون الأحلام ؟ » .

قد لا يكون هناك مزيد من الاجابة على سؤال «هاملت» الرهيب . ولكن المفيد أن نعلم أن آدميين كثيرين فى كل جنبات الحياة ، قد وجهوا نفس السؤال بشجاعة .

فن السعادة

يتحدث « فونتينيل » فى كتابه عن السعادة ، فيعرفها بأنها هى الحالة التى يود المرء أن يظل فيها دون تغيير على الاطلاق . ولا شك أننا اذا استطعنا أن نصل الى حالة فكرية وجسدية تجعلنا نقول لأنفسنا « أتمنى لو بقى كل شىء على حاله الى الأبد ! » . وكما قال « فاوست » للحظة التى كان فيها سعيدا « امكثى حيث أنت ، أيتها الجميلة ، فائقة الجمال » . اذا استطعنا ذلك فنحن سعداء بغير شك .

ولكننا اذا كنا نعنى بكلمة « حالة » مجموعة الظواهر التى تشغل ادراك الشخص فى لحظة ، فان هذه الفترة التى لم تتغير ، تبدو مستحيلة على التفكير . بل يستحيل الشعور بها كفترة من الزمن . فكيف لا يكون هناك تغيير ، فى حين أن العناصر التى تتكون منها تلك السعادة التامة ، شديدة الضعف ؟ .

ولو أن المسألة كانت تتصل بشخص ، لأمكن أن يتدخل الموت . ولو كانت مسألة موسيقى ، لأمكن ان تتوقف ألحان الموسيقى . ولو كانت مسألة كتاب ، لأمكن أن تقرأ صفحته الأخيرة آخر الأمر . ونحن قد نريد أن تبقى حالة ما فترة من الوقت دون تغيير ، ولكننا نعلم أن هذا

البقاء مستحيل . ونعلم أيضا اننا اذا استطعنا ان نبقى اللحظة على حالها ، فان السعادة التى جلبتها علينا سرعان ما تتضاءل ، لأن الجدة تكون قد ذهبت .

وعلى هذا يكون من واجبنا أن نميز بين العناصر التى تجعلنا فى حالة سعادة ، تلك العناصر العديدة التى تستطيع التغيير دون أن تنال منها ، وتلك العناصر الضرورية لفترة بقائها .

وفى رواية تولستوى « آنا كارنينا » ، يسير « ليفين » فى شوارع المدينة ، بعد عقد خطبته مباشرة ، مبديا اعجابه بكل شىء : فالسماء اشد زرقة ، والأطيار تغرد بأصوات أكثر عذوبة ، وحارس الباب ينظر اليه نظرة فيها مزيد من المودة . ولكن « ليفين » فى ذلك اليوم ، كان يمكن أن يشعر بسعادة مماثلة فى أية مدينة أخرى ، وأن يراها وأهلها على مثل ذلك الجمال . ففى ذات نفسه نور يسطع على كل شىء ، وهذا النور الداخلى هو سر سعادته .

وليست الأشياء والأحداث التى يراها المرء ويستمتع بها هى منبع السعادة . ولكن منبعها هو حالة عقلية تستطيع أن تضفى صفاتها على الأحداث . ومن واجبنا أن نتمنى لهذه الحالة طول البقاء ، بدلا من أن نتمنى عودة الأحداث السارة .

فهل هذه الحالة فعلا حالة داخلية ؟ وهل نستطيع أن نميزها بغير التغيرات التى تتركها فى الأشياء الخارجية ؟ .

اننا اذا نحن استبعدنا الاحساس والذاكرة من أفكارنا، فانه لا يتبقى لنا سوى فراغ ليست فيه كلمة واحدة !

فأين يمكن العثور على البهجة الخالصة والسعادة الصافية ؟ .

وكما هي الحال في بعض أنواع الأسماك المضيئة ، التي ترى المياه العميقة ، وأعشاب البحر ، والأحياء المائية الأخرى ، يسطع عليها النور كلما اقتربت منها ، ولكنها لا تتبين المصدر المتحرك لذلك النور أبدا ، لأنه في ذات نفسها ... كذلك حال الرجل السعيد ، فهو يدرك تأثيره على الآخرين ، ولكنه يجد صعوبة في ادراك سعادته ، ويجد مزيداً من الصعوبة في التنبؤ بها .

***

ولعل من الأسهل الوصول الى حقيقة الأمر باحصاء العقبات التي تعترض سبيل السعادة .

فهناك ، بادىء ذي بدء ، الفقر والمرض ، وهما يحلقان في الهواء بأجنحة سوداء . وهما أكثر المصائد اثارة للرعب . وكلما تكررت زياراتهما كثيرا ، أصبح غير نافع فيهما سوى القليل جدا من أنواع العلاج .

ومن السهل ، ولكنه من غير المفيد ، أن يتظاهر المرء ويدعى ، على نحو ما فعل بعض الفلاسفة ، ان الألم مجرد كلمة . وهم يقولون في ذلك : « ان الألم الماضي لم يعد لها وجود ، وآلالام الحاضر لا يمكن تمييزها ، وآلام المستقبل ليست معنا بعد » ، وهذا في الواقع غير صحيح . فالرجل يستطيع بمحض ارادته أن يفرق بين الفترات المختلفة من وجوده . وتذكر آلام الماضي يجعل من آلام الحاضر عبئا يتزايد على الدوام .

ولا شك في أن الرجل القوى يستطيع أن يصارع الألم . ولقد قاسى « مونتانى » أهوال مرض أليم جدا ، واحتمل

ذلك بشجاعة فائقة . ولكن ، ماذا يفعل الرجل الحكيم ، او القديس ، اذا كانت حياته لا شيء ، سوى آهة عذاب ؟.

لقد استطاع الفيلسوف « ديوجين » ألا يكترث بالفقر ، حيث كان لديه دفء الشمس وطعامه وشرابه ، وكان وحيدا فى الحياة . فماذا كان يحدث لو أنه كان رجلا متعطلا من العمل ، يعول أربعة أطفال ، فى مدينة طقسها بارد ، لا يمكن الحصول فيها على الطعام الا فى مقابل النقود ؟ هنا تجثم النكبة الحقيقية . ومن الاهانة تقديم عزاء الفلسفة الى قوم يشعرون بآلام البرد والجوع . فهم انما يحتاجون الى الطعام والحطب .

على أن هذه الحالات المتناهية من الفقر والمرض ، لا ينبغى الخلط بينها وبين الحالات المخففة التى هى برغم ما فيها من الآلام ، أهون احتمالا الى أبعد حد ، والتى لا تضع فى طريق السعادة عقبات يستحيل تذليلها .

ولقد اصاب بعض الفلاسفة حين ميزوا بين مطالبنا الطبيعية الضرورية ـ كالطعام والشراب ـ وبين مطالبنا الطبيعية غير الضرورية . فهناك فقر حقيقى وأمراض حقيقية تبعث على أشد الرثاء . ولكن فى العالم من مرضى الوهم بمقدار ما فيه من المرضى حقا. فلعقولنا سلطة لا يكاد يصدقها أحد على أجسامنا ، والكثير مما نشعر به من الألم مجرد وهم . وبعض الرجال مرضى حقا وصدقا ، وبعضهم يعتقدون انهم مرضى ، وآخرون يصيبون انفسهم بالمرض .

وعندما كان « مونتانى » يشغل منصب العمدة فى مدينة « بوردو » كان يقول لمواطنيه : « اننى على استعداد الآن اضع قضاياكم بين يدى ، لا فى كبدى ولا فى رئتى » .

وفى العالم فقر موهوم كما أن فيه مرضا موهوما . وتصريح المرء بأنه عاثر الحظ ، لأن أزمة يتأثر بهـــا الجميع قد أنقصت دخله المالى ، هو اهانة لأولئك الذين هم فقراء حقا ، ما دام لديك سقف فوق رأسك ، وطعام تأكله ، وملابس ترتديها .

ولقد حدثنى بعض أصدقائى مرة عن خادمة أقدمت على الانتحار فلقيت حتفها ، لأنها اضطرت الى الانتقال الى غرفة لم تجد فيها مكانا لقطعة من الأثاث عزيزة عليها — وهذه حالة أخرى من حالات النكبات الموهومة .

ويأتى الفشل بعد الفقر والمرض ، الفشل فى تحقيق ما يصبو المرء الى تحقيقه ، والفشل فى الحب . ونحن نرسم الخطط للمستقبل ، فلا نلبث أن تفسد علينا ، وتنهار آمالنا . نحن نريد أن نكون محبوبين ، ولكننا لا نحظى بالحب ، فلا تلبث الغيرة أن تسمم ليالينا وأيامنا . ونحن نرجو الحصول على عمل والنجـاح فيه ، وأن نسافر ، ولكننا نفشل فى ذلك .

وهنا ينتصر الفلاسفة الزهاد بسهولة . لأن معظم هذه النكبات موهوم ، فهنـــاك آراء متعارضة . لماذا يحزن الرجل اذ يستحيل عليه تحقيق مطامحه ؟ هل السبب فى ذلك أنه يعانى ألما جسديا ؟ كلا على الاطلاق . فالسبب هو أنه يتذكر عيوبه التى أسفرت عن فشله فى الماضى ، ويسائل نفسه عما اذا كان نجاحه فى المستقبل سيفسده كيد منافسيه . واذا هو — بدلا من التفكير فيما كان من احتمالات المستقبل — حاول أن يصل الى ادراك دقيق يحدده له الحاضر تحديدا دقيقا ، فماذا تكون النتيجة ؟ حالة ترضية تماما عن شئونه فى جميع الظروف على وجه

التقريب . وانه ليسرنى ان أرى ذوى المتاعب الوهمية وقد اتبعوا طريقة القديس « اغناطيوس » ، وهى تكوين صورة ذهنية واضحة لأهدافهم ، دون تشويه .

لقد كان من ودك أن تتولى منصب المحافظ فى بعض الولايات ، ولم تنجح فى ذلك . فما عسى أن تكون النتيجة ؟ .

لن تكون مرغما أن تقابل طول النهار أشخاصا تفضل ألا تقابلهم . ولن تكون مرغما على حمل أعباء مئات من الأمور لم يتسع وقتك لدراستها بامعان . ولن يعارضك قوم يكنون لك العداء ويدسون أنوفهم فى خاصة شئون حياتك ويكشفون عن آثام لم تقترفها . وسوف ترغم على أن تحيا حياة وادعة وتستمتع بأوقات فراغك ، وتعيد قراءة كتبك المفضلة ، واذا كنت ميالا الى المخالطة ، امكنك أن تتجاذب وأصدقاءك أطراف الحديث ... هذا هو ما يسفر عنه فشلك اذا استعنت بشىء من الخيال . فهل هذه نكبة ؟ .

لقد كتب « ستندال » يقول : « الليلة ، أشعر بشىء من الضيق ، لأن اثنين من مرءوسى قد رقيا الى وظيفتين كبيرتين فى حين لم احصل أنا على اية ترقيـة . على أننى أعلم أننى كنت خليقـا بأن أصـاب بمزيد من الضيق لو اننى أرغمت على دفن نفسى مدة أربع أو خمس سنوات فى جحر حشروا فيه ستة آلاف ساكن » .

اذا استطاع الرجال ان ينظروا الى احداث حياتهم نظرة أوسع افقا ، فانهم لا يلبثون أن يكتشفوا فى كثير من الأحيان أنهم لم يرغبوا حقا فى الأشياء التى فشلوا فى الحصول عليها . وهناك فرق كبير بين الرغبات التى يتحدث عنها الناس ، كقول بعضهم : « اننى اريد أن

اتزوج ... أن أصير عضوا فى مجلس الشيوخ ... أن ارسم صورة رائعة » ، وبين الرغبات الفعلية الملحة التى تستنفد كيان المرء كله .

وهذه الرغبات الأخيرة تعلن وجودها فى صورة عملية . واذا لم تكن الرغبة غير معقولة ومستحيلة التحقيق ، فان تحقيقها كثيرا ما يتم بفضل المثابرة الكافية . فالرجل الذى يرغب فى الحظوة بالتكريم يحظى بالتكريم ، ومن يريد أصدقاء يظفر بالأصدقاء . والمرأة التى تريد غزو القلوب تغزو القلوب . ولقد رغب بونابرت فى شبابه فى السلطة ، وكانت العقبات فى سبيله الى ادراكها تبدو مستعصية على التذليل ، ولكنه قد تمكن من تذليلها .

ولا شك فى أن هناك حالات يستحيل فيها النجاح بسبب الظروف الملابسة ، فليس من السهل تحريك الكون . وكثيرا ما تكون الصعوبة كامنة فى الرجل نفسه . فهو يظن أنه يرغب فى الوصول الى نتيجة معينة ، ولكن قوة داخلية تجذبه فى الاتجاه المضاد .

وما أكثر المرات التى سمعت فيها من الكتاب انهم يريدون أن يؤلفوا كذا وكذا من الكتب ، اذا لم يحل دون ذلك نوع الحياة التى يحيونها ! ولو أنهم كانوا صادقى الرغبة فى تأليف تلك الكتب ، لأقدموا على تغيير نوع حياتهم . ويمكن العثور على دليل ينطق بقوة ارادة « بلزاك » ومدى تفانيه فى عمله ، فى نوع الحياة التى كان يحياها ، أو فى أعماله نفسها ، على وجه التحقيق .

وفى الكتاب العاشر من جمهورية أفلاطون ، نزل الأرمنى « ار » الى مدينة الموتى تحت الأرض ، واكتشف كيف

تعامل ارواحهم :

« عندما حضر « ار » هو والأرواح ، كان عليهم أن يتوجهوا فورا الى « لاشيسيس » ولكن جاء نبى قام أولا بتصفيفهم وفقا للنظام . ثم تناول من حجر « لاشيسيس » أنصبة وعينات من الحياة . ثم صعد الى مكان مرتفع ومضى يقول : اسمعوا كلمة لاشيسيس ، ابنة الضرورة . أيتها الأرواح الفانية ، انظرى الى دورة جديدة من الحياة الفانية . لن يقع عليكم اختيار عبقريتكم ، ولكنكم سوف تختارون عبقريتكم بأنفسكم . وليقم الأسبق منكم أولا ، باختيار الحياة التى ستكون مصيره المحتوم . ان الفضيلة منحة بلا مقابل . وبقدر ما يكرمها الرجل أو يهدر كرامتها ، يزيد نصيبه منها أو ينقص . ومن يختر يتحمل مسئولية اختياره . ولا لوم على الرب .

« وبعد أن فرغ المترجم من الحديث بعثر فيما بينهم الأنصبة ، فتناول كل منهم النصيب الذى وقع قريبا منه ، ماعدا « ار » نفسه ، اذ لم يكن مسموحا له بذلك . وبعد هذا عرف كل منهم العدد الذى حصل عليه . ثم وضع المترجم أمامهم عينات الحياة ، وكانت هناك حيوات تزيد كثيرا عن عدد الأرواح الحاضرة ، كما كان هناك أنواع من الحياة ، كل حيوان وكل انسان فى كل حالة . وكان من بينها طغيانات استمر بعضها بينما كان الطاغية نفسه على قيد الحياة ، فى حين تحطم بعضها فى وسط الطريق ، وانتهى أمره الى الفقر والنفى والتسول . وكانت هناك حيوات رجال مشاهير ، وبعض من اشتهر بفضل الهيئة والجمال ، كما اشتهروا بفضل القوة والنجاح فى الألعاب ، أو بفضل المنبت الحسن ومزايا أسلافهم ، وبعض ما كانوا

على النقيض من الشهرة ، بسبب صفاتهم العكسية ، ومن النساء كذلك . على أنه لم يكن لهن أية شخصية معينة . لأنه لابد من أن تتغير الروح على نحو ما يلائم الحياة التى يقع عليها الاختيار . ولكن كان هناك كل الصفات الأخرى ، وقد اختلطت جميعا بعضها ببعض . كما أنها قد اختلطت أيضا بعناصر الثراء والفقر ، والصحة والمرض .

« ولقد تقدم صاحب الاختيار الأول ، وبعد لحظة وقع اختياره على الطغيان الأعظم ، ولما كان عقله يسوده ظلام الحمق والفجور ، فانه لم يفكر فى الأمر كله ، ولم يتبين لأول وهلة أنه كان مكتوبا عليه فيما كان مكتوبا من أنواع الشرور الأخرى ، أن يفترس أطفـــاله افتراس ضاريات الوحوش . ولكنه حين وجد فى وقته متسعا للتفكير ، وعرف ماذا كان من نصيبه ، راح يلكم صدره بقبضة يده ندما على سوء اختياره ، غير عابىء بتعاليم النبى ، لأنه بدلا من أن ينحى باللائمة على نفسه فى نكبته ، أخذ بوجه الاتهام الى الحظ والآلهة ، وكل شىء آخر ما عدا نفسه » .

ومن حق كل منا أن يختبر نصيبه . والرجل يصح عزمه على زواج امرأة معينة ، بقصد تحسين وضعه الاجتماعى أو العملى ، أو من أجل المال ، ولكنه يعرف كما يعرف الناس جميعا أنها امرأة من الطراز الثانى، لا الأول . وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر ، يجأر بالشكوى من غبائها . . . أو لم يكن يدرك هـذا من ذى قبل ؟ لقـد كان ذلك فى نصيبه .

وليس مما يقتضى قدرا عظيما من الخبرة ، اكتشاف أن البحث الجشع عن المال ينتهى بالرجل الى الشقاء فى كل الحالات على وجه التقريب . فلماذا ؟ لأن هذا النوع

من الحياة يجعلهم يعتمدون على أشياء في خارج أنفسهم . ولا أحد أكثر تعرضا للأذى من الرجل الطموح ، فان حادثا لا يعلم شيئا عنه ، أو ملاحظة يعاد ابداؤها على نحو خاطىء، قد تكسبه عداوة رجل من أصحاب النفوذ ، أو تحمل أمة على اضطهاده . وسيقول انه قد كان ضحية الحظ العاثر ، وان القدر كان له بالمرصاد . والقدر يقف بالمرصاد دائما لأولئك الذين ينشدون ربحا لا يعتمدون فى الحصول عليه على أنفسهم . ولقد كان هذا في النصيب أيضا . والأقدار لا لوم عليها .

والجشع والطموح من أسباب الصراع بيننا وبين زملائنا فى الانسانية . وأسوأ من هذا الى حد كبير ، أن نكون فى صراع مع أنفسنا . فنحن نشعر بالسعادة حين نستطيع أن نتأمل فعالنا بالأمس وفعالنا طول حياتنا فنقول : « ربما كنت قد تصرفت بحكمة ، ولعلى كنت مخطئا ، ولكننى لم أدخر وسعا ، وقد أخذت بآرائى الخاصة . واستطيع أن أقول ما سبق لى قوله مرة أخرى ، أما اذا كانت آرائى قد تغيرت ، فان فى وسعى أن أعترف بغير خجل ، بأن أخطائى كانت لها أسباب كثيرة مبررة ، ترجع الى اصغائى لمعلومات خاطئة ، أو تقديرى غير الصحيح » . وعندما يوجد هذا الانسجام الداخلى ، تختفى الحاجة الى مناقشة النفس الأليمة .

وفى واقع الحياة ، نجد أن الاتفاق مع النفس على هذا النحو أمر نادر . ففى كل منا كائنان : عضو فى المجتمع ، ومخلوق بشرى مرهف الحس ـ رجل عاقل ، وحيوان . ومن أشد الأمور تكديرا للخاطر أن ندرك أننا فريسة لنزوات أنفسنا ، وأننا لسنا على شىء من الحكمة الا فى جزء

من حياتنا فقط . والاتفاق المنسجم بين المرء ونفسه غاية صعبة المنال ، لأن كثيرا من أفكارنا لها مصادر تختلف كثيرا عن تلك التى نحب أن نعطيها لها . فنحن نتظاهر بأننا نتحدث حديثا معقولا ،حين يكون حديثنا مجرد تنفيس عن أحقادنا القديمة بالجدل الزائف ، والحجج الواهية .

ونحن نناصب العداء طائفة معينة من الناس ، لأن واحدا من أعضائها قد سبب لنا ضررا جسيما . ونحن نرفض الاعتراف بمواطن الضعف هذه فينا ولكن ضميرنا يخبرنا بوجودنا ، ومن ثم نسخط على أنفسنا ، فنشعر بالمرارة ، ونصير أميل الى العنف والاعتساف ، ونهين أصدقاءنا لعلمنا بأننا لسنا الرجال الذين كنا نحب أن نكونهم . وهنـــــا تتجلى أهمية عبارة سقراط المعروفة « اعرف نفسك » . ولكى يظهر الرجل الذكى بهدوء النفس ، يجب عليـــه قبل كل شىء أن يتجرد من جميع ما يشوه التفـــكير من الأهواء والذكريات .

ومن أسباب التعاسة الأخرى : خوف الأخطار . ولا اعنى بهذا ان أخطارا معينة ليس ثم ما يبررها ، بل هى ضرورية لا غنى للمرء عنها . والرجل الذى لا يحرص على اجتناب طريق سيارة مسرعة ، يلقى حتفه بسبب افتقاره هــذا الى الخيـــال البصرى . والأمة التى لا تخاف جيرانها المسلحين الذين يناصبونها العداء ، لا تلبث أن تصبح أمة مستعبدة .

ولكن المحاولة لا تجدى على الاطلاق ، اذا كانت خاصة بأحداث لا يمكن التنبؤ بوقوعها . ولقد عرفنا جميعا رجالا يسرفون فى اتقاء المرض الى درجة تحطم حياتهم . والرجل الذى يخاف ضياع أمواله ، يتصور الوسائل المتمددة التى

سيدركه بها الخراب ، ويحرم نفسه السعادة الراهنة استعدادا للنكبات التى لو حلت به فان قصارى ما تصنع أن تنحدر به الى الحالة التى وصل به خوفه اليها .

والرجل الغيور يتكهن بمقابلات خطرة بينه وبين رجال آخرين ينافسونه فى المرأة التى يحبها ، وينتهى الأمر بأن يقضى على حبها له بوسواسه الأحمق ، وبذلك يتسبب فى حدوث الكارثة التى كان يخشاها .

الألم الذهنى الحاد الذى يسببه الخوف يزيد من انعدام جدواه أن التوقع عادة يكون أسوأ من الحقيقة الواقعة الى حد كبير . فالمرض مخيف ، ولكن الخوف منه يخفف وطأته عما يوحى الينا بأن نتوقعه من مشاهدة المصابين من زملائنا ، لأن الحمى وتعود المرض يخلقان نحو ما يحدث ، جسدا آخر يتأثر بطريقة مختلفة .

والكثيرون منا يخافون الموت ، ولكن لا يمكن أن يكون شىء مما نتصوره عن وفاتنا حقيقيا . فنحن ندرك أننا قد نموت فجأة . كما أن أعراض الموت فى الحالات الطبيعية ، تكون لها أحوالها البدنية المختلفة ، المتفقة معها . وانى لأذكر جيدا حادثا وقع لى كاد يتسبب فى موتى . ولقد فقدت الوعى ، ولكن ما أذكره عن الثوانى القليلة التى سبقت وقوع الحادث مباشرة ، لم يكن مصدر ألم . وأنا أعرف رجلا مثله كمثل الأرمنى « ار » ، من حيث انه قد عاد من مدينة الموتى ، أعنى أنه قد غرق فعلا ثم عادت اليه الحياة ، وقد صرح بأن « موته » لم يكن أليما .

وما تتصوره عن المستقبل يكون زائفا فى كل الحالات على وجه التقريب . فنحن نتصور وقوع نكبات مستقبلة ، من وجهة نظر رجال يعيشون فى الحاضر . والحياة عسيرة

كما هى هى ، فلماذا نضيف الى عسرها عاملا يبعث على الادراك الحزين ؟ .

فى بعض المسرحيات الشهيرة منظر تدور حوادثه على ظهر باخرة كبرى : يقف زوجان شابان يقضيان شهر العسل الى جانب سياج الباخرة ، وتصل الى مسامعنا الحان تعزفها فرقة موسيقية ، ويبتعد كلاهما عن الآخر قليلا ، فيظهر زورق من زوارق النجاة مكتوب عليه اسم الباخرة بأحرف ظاهرة « تايتانك » ... وبالنسبة لنا نحن المتفرجين ، يصير المنظـــر محزنا ، لأننا نعلم أن الباخرة التى اسمها « تايتانك » لن نلبث أن تغرق ، ولكن ممثلى الرواية لا يشعرون بشىء سوى الاستمتاع بمساء جميل آخر . ولو أنهم كانوا يخـــافون حدوث كارثة ، لكان لخوفهم ما يبرره ، ولكن ذلك الخوف كان من شأنه أن يفسد عليهم جمال ساعتهم دون جدوى . وكثيرون من الناس يفسدون حياتهم بتوهم وقوع كارثة بين لحظة وأخرى . والناس لديهم ما يكفى من البلاء الى أن يحل يومه .

والضجر عند الأثرياء الكسالى ، من أكثر أسباب التعاسة انتشارا . والناس الذين يجـــدون مشقة فى كسب القوت قد يقاسون آلاما هائلة ، ولكنهم فى مأمن من الضجر . والأثرياء من الرجال والنســـاء يستولى الضجر على أنفسهم عندما يعتمـــدون على المسرح فى متعتهم ، بدلا من أن يجعلوا حيـــاتهم نفسها جديرة بالاهتمام .

والمسرحيات تساعد على تهيئة الســـعادة لمن يكون لحياتهم شىء من القيمة ، لأن مواهبهم الخلاقة يوقظهـــا

المسرح . فالرجل العاشق يستمتع بالرواية الغرامية الهزيلة ، لانها تتصل بحياته الخاصة . ورجل الدولة حين يشاهد رواية « يوليوس قيصر » ، تطير به أحلامه الى مكتبه . ولكن دور المتفرج اذا صار دورا دائما ، أى اذا لم يكن المتفرج ممثلا يؤدى دوره على مسرح الحياة الواقعية ، فان الضجر يكون له بالمرصاد ، وسرعان ما يصير فريسة ألوان موهومة من المخاوف : اختبارات للنفس لا تنتهى ، وأسف على الماضى الذى لا يمكن استرجاعه من جديد ، ومخاوف من المستقبل المجهول .

***

ومن الغريب أن كثيرين من الرجال يجدون متعة مريرة خبيثة ، فى التصريح بأنه لا يوجد أى علاج لهذه النكبات الحقيقية والموهومة . فهم ينعمون بمتاعبهم ، ويعاملون كل من يحاول مساعدتهم معاملة عدائية . ولا شك فى أنه ، فى غضون الأيام الاولى من الحداد على ميت عزيز ، أو وقوع أى كارثة فاجعة لم يكن هناك ما يبرر وقوعها ، يكون الألم فى كثير من الأحيان فوق طاقة العزاء ، ولا يكون فى وسع الأصدقاء أن يفعلوا شيئا أكثر من أن يشعروا بالفجيعة صامتين متجلدين .

ولكن ، ألسنا جميعا نعرف محترفات الحزن من النساء اللائى يبذلن كل ما فى وسعهن كى يحافظن ـ بفضل المظهر الخارجى المفتعل ـ على أحزان كانت خليقة بأن يسمح للزمن بازالة آثارها ؟ .

وانى لأشعر بالرثاء لأولئك الذين يتشبثون بأهداب ماض لا يمكن استرجاعه ، فى حين أن حزنهم لا يؤثر فى أحد غيرهم ، ولكننى انكر عليهم اشد الانكار أن

أجدهم يأملون — ببث الدعوة الى اليأس — أن يثبطوا همم من هم أصغر منهم سنا وأكثر حظا من الشجاعة ، أولئك الذين يتوقعون السعادة من الحياة .

هذا النوع من السلوك ينبغى أن يكبح جماحه . فالحزن الحقيقى يكتشف عن نفسه على نحو لا يمكن اجتنابه ، حتى حين تبذل الجهود لاخفائه كيلا تتأثر به سعادة الآخرين . ولقد رأيت مرة ، فى جماعة من الرفقاء المرحين ، شابة كانت الشخصية الرئيسية فى مأساة فاجعة . وكان صمتها ، وابتساماتها المغتصبة ، وانشغال بالها على نحو لا يتسنى اجتنابه ، يفضح حقيقة شعورها باستمرار . ولكنها بفضل شجاعتها قد أظهرت هدوءا مصطنعا كان سببا فى امكان استمتاع رفقتها باجتماعهم .

واذا عجزت ذاكرتك عن العمل الا بمساعدة العزلة غير الطبيعية والانتخاب كل يوم ، كان معنى ذلك أنها قد فقدت دقتها . والطريقة المثلى لتكريم الأصدقاء الذين ماتوا ، هى معاملة من لا يزالون على قيد الحياة من أصدقائنا بمودة مماثلة .

ولكن كيف يتصرف المرء ازاء ما قد يسيطر عليه من الأوهام ؟ وماذا عسى أن يحميه من شر هذه الحالات الذهنية العاتية التى تستولى علينا حتى فى المنام ؟ .

ان الطبيعة تتكفل بتقديم ايسر انواع العزاء منالا . فللبحر والجبال والغابات تأثير مهدىء ، بسبب الفرق بين عظمتها وسكينتها ، وبين ضآلتنا . وكثيرا ما يكون من بواعث ارتياحنا فى أشد لحظاتنا حزنا ، أن يرقد المرء وحيدا بين الأعشاب تحت ظلال الأشجار ، ويمكث على تلك الحال نهارا بأكمله .

وفى أعمق أحزاننا تكون هناك دائما بعض الالتزامات الاجتماعية ، واذا نحن حجبنا انفسنا عنها بعض الوقت فاننا بذلك نقلل من تعرضنا للألم . وهذا هو السر فى ان الأسفار علاج ناجع للآلام النفسية . فان المرء اذا بقى فى الجو الذى حدث له فيه المكروه ، فان أوهامه تثار باستمرار ، وذكرياته تتزاحم مقتربة اليه .

والموسيقا عالم آخر يستطيع المتألم أن يلجأ اليه فرارا من آلامه . فالموسيقا تستولى على الروح استيلاء تاما . وكثيرا ما تكون كجدول يتدفق ماؤه فيعبر ثنايا العقل فينقيها ، أو هى بمثابة أمر استدعاء لآلامنا لا يلبث أن يضعها موضعها الصحيح على نحو يشبه الاعجاز . وفى مقابل كل عبارة تذكرنا بها توجد عبارة أخرى تخفف من وطأتها ، وهذا الحوار الصامت الذى لا تفكير فيه ، والذى يؤدى بنا آخر الأمر الى توطيد العزم ، لنا فيه عزاء . والموسيقا ــ بما فيها من أنغام بينة تسم معالم سير الزمن ــ تخلصنا من أفكارنا الخاطئة عن دوام العذاب النفسى .

« اننى لم أجرب قط حزنا لا أنجح فى علاجه بقضاء ساعة فى القراءة » ... عبارة شائعة ، وان كنت لا أفهمها تماما . فاننى أعجز عن تخفيف ما ينتابنى من الحزن الحقيقى بالقراءة . ولا أستطيع فى مثل تلك الحالات أن أحصر اهتمامى فى كتاب أقرؤه . فالقراءة تتطلب عقلا غير مشغول . وأعتقد انها يمكن أن تلعب دورا نافعا فى فترة النقاهة النفسانية . ولا يمكن التخلص من الآلام الموهومة الا بالقيام بمزيد من الأعمال الدقيقة التى لا يمكن أن يكون أداؤها مصحوبا بعدم

الاكتراث : كالكتابة ، أو تشغيل آلة دقيقة ، او السير فى مسالك محفوفة بالخطر . والتعب الجسدى مستحسن لأنه يجلب النعاس .

« لا فائدة فى شىء من هذا كله » . بهذا يهتف الخبير فى حزن . ويستطرد قائلا : « ان أدويتك ضعيفة ولا تأثير لها . فلا شىء يستطيع ان يوقظ اهتمامى بالحياة ، ولا يستطيع أن ينسينى حزنى » .

كيف هذا ؟ هل جربت هذا العلاج ؟ ينبغى على الأقل أن تقوم ببعض التجارب ، قبل أن تنتقص من قيمة نتائجها . فهناك تدريبات تمهد الطريق الى السعادة ، وان كانت لا تسفر عن سعادة ايجابية .

اجتنب قضاء الساعات الطوال فى التفكير فى الماضى . ولا أعنى بهذا ان التفكير ليس من الحكمة ، فكل قرار هام يجب أن يسبق اتخاذه تفكيره ، فاذا كان التفكير متصلا بغاية معينة ، فانه لا يمكن أن ينجم عنه اى ضرر . ولكن الشىء الضار هو التفكير الذى لا ينتهى فى بعض الخسائر ، أو الاهانات ، أو الاساءات ، وبالاختصار ، فى شىء يستحيل علاجه .

يقول المثل الانجليزى : « لا تبك على اللبن المراق » . وينصحنا « دزرائيلى » بألا نفسر شيئا أو نشكو شيئا أبدا . ويقول « ديكارت » : لقد تعلمت كبح جماح رغباتى ، وألا أحارب قوانين العالم ، وأن أومن بأن ما لا يمكن أدراكه هو بالنسبة الى مستحيل تماما .

والعقل يجب تنظيفه وتجديده من حين الى حين . ولم أعرف قط واحدا من الرجال العاملين حقا يكون غير سعيد وهو يؤدى عمله . وكيف يمكن أن يكون كذلك ؟

فهو كالطفل حين يلهو ، يكف عن التفكير فى نفسه حين يؤدى عمله .

يقول الفيلسوف المعاصر « برتراند رسل » : انه حين يقرأ مؤلفات أصدقائه أو يصغى الى أحاديثهم ، يكاد يؤمن بأن السعادة مستحيلة فى دنيا العصر الحديث . على أنه يجد أن هذه الفكرة خرقاء ، حين يتحدث الى البستانى الذى يتولى شئون حديقته . فالبستانى يرعى ما فى الحديقة من الخضر والدواجن ، ويعرف عمله وحديقته خير المعرفة ، ويعرف كذلك أن محصوله سيكون عظيما ، ، وهو فخور بذلك .

وهنا نجد نوعا واحدا من أنواع السعادة ، مكافأة كل فنان عظيم ، وكل رجل خلاق . وبالنسبة الى الأذكياء من الناس ، كثيرا ما يكون العمل بمثابة فرار من التفكير ، ولكنه فرار معقول بل حكيم « ان من يريد دون أن يفعل ، انما يربى الفساد » . وللمرء أن يقول أيضا : « ان من يفكر دون أن يفعل ، انما يربى الفساد » .

والتفكير الذى لا يؤدى الى شىء ينطوى على خطر . ورجل العمل لا تزعجه تناقضات الدنيا وتعقيدات الحياة ، فهو يتقبلها على نحو ما تجىء ، ثم تبنى المجموعة نفسها بنفسها . ومن جهة أخرى ينظر الجمود الى انحلال الكون الظاهر نظرته الى شىء يدعو الى الأسف ... أسف مصطنع تماما .

والعمل نفسه لا يكفى ، فان على المرء أن يعمل فى انسجام مع المجتمع الذى هو جزء منه . وحالة الصراع الدائم مجلبة للاعياء ، وهى تجعل العمل شاقا ، بل مستحيلا فى بعض الأحيان .

اختر جماعة من الناس لتعيش بين ظهرانيهم ، بحيث تكون جهودهم متفقة الاتجاه مع جهودك . وحيث يكون نشاطك موضع الاهتمام . وبدلا من ان تعيش فى صراع مع أسرتك التى تعتقـــد أنها لا تفهمك ، ومن تحطيم سعادتك وسعادة الآخرين على صخرة ذلك الصراع ؛ ابحث عن أصدقاء لهم تفكير يتفق مع تفكيرك . فاذا كنت رجلا متدينا ، فعش بين قوم متدينين . واذا كنت رجلا ثائرا ، فعش مع رجال من نوعك . فما زال فى وسعك أن تقنع المتشككين ، ولك سند فى هذا من أولئك المتفقين معك فى الرأى .

وكثيرون من الناس يعتقدون خطأ أن المرء لكى يكون سعيدا ، يجب أن يكون متمتعا باعجاب واحترام عدد كبير من الناس . ولكن تقدير الدائرة المحيطة به ضرورة لا غنى عنها . فلقد كان « استيفان ملارميه » موضع حب عميق من أتباع قليلين ، ولكنه كان أوفر حظا من السعادة من رجل من المشاهير يعلم أن سمعته ليست فوق مستوى الشبهات عنـــد أولئك الذين يكنون له الاعجاب . ولقد أدخلت حياة الدير السكينة الى عدد من الأرواح لا يحصى ، بفضل وحدة الفكر والهدف .

ولا تجلب على نفسك الشقاء بتصور المآسى العديدة التى لا يمكن التنبؤ بها . فمنـــذ أيام قابلت فى حدائق « التويلرى » رجلا تعسا مبتئسا ، حيث كان الأطفال يلهون ويمرحون ، وحيث النافورات الجميلة وأشعة الشمس الساطعة .

كان يسير تحت الأشجار وحيدا حزينا ، يفكر فى نكبات مالية او حربية قال انه يتوقع حدوثها فى غضون

عامين ، وقد قلت له : « أمجنون أنت ؟ بحق الشيطان ــ من يدرى ماذا عساه يحدث فى العام القادم ان الحياة شاقة ، وما أقل اللحظات التى نعيشها فى هدوء . ولكن المستقبل لن يكون بحال مصداق تشاؤمك الحزين . فلتسعد بالحاضر ، ولتكن كهؤلاء الأطفال المرحين الذين يطلقون زوارقهم ذات الشرع البيضاء فى البحيرة . قم بواجبك ، ودع الباقى بين يدى الله » .

ومن الواضح أنه يجب التفكير فى المستقبل فى ضوء قدرة المرء على التأثير فى مجرى الأحداث . ورجل العمل لا يمكن أن يكون قدريا . فالمهندس المعمارى يجب أن يفكر فى مستقبل البيت الذى يبنيه ، والعامل يجب به أن يتخذ من الاحتياطات ما يكفل له شيخوخة لمئنة غير محتاجة ، وعضو المجلس النيابى عليه ان درس الآثار المحتملة التى قد تسفر عنها الميزانية التى ينوى التصويت فى جانبها . ولكن يجب أن يستعيد الانسان هدوء عقله بمجرد الفراغ من اتخاذ القرارات والاجراءات . ومن العبث محاولة التنبؤ بالأشياء دون أن تكون هناك وسيلة الى ذلك .

وعندما يكون الانسان مستمتعا بالسعادة فعلا ، يكون من الأهمية بمكان ألا يفقد شيئا من العوامل الصالحة التى ساعدته على ادراكها . فكثيرون من النساء والرجال ينسون الاحتياط عندما ينجحون ، كما ينسون كذلك التواضع واللطف ، وكلها كانت عوامل فعالة قادت خطواتهم الى النجاح : فهم شديدو الكبرياء أو قليلو التفكير ، وتحول ثقتهم المسرفة بأنفسهم دون اضطلاعهم بالمهام الشاقة ، ومن ثم لا يلبثون أن يصبحوا غير

جديرين بما قدر لهم من حسن الحظ . وهم يدهشون عندما ينقلب حظهم من حسن الى سيىء .

ولقد كانت عادة تقديم الضحايا والقرابين زلفى الى الآلهة فى الزمن القديم تلمسا للسعادة ، عادة لها مبرراتها . ولقد أقدم « بوليقراط » ، طاغية «ساموس» على القاء خاتمه الثمين فى البحر قربانا ، وهناك طرق عديدة لالقاء خاتم « بوليقراط » فى البحر ، وأبسط الطرق : التواضع .

على أن وسائل تلمس السعادة هذه،ليست من ابتكارنا، فهى معروفة ، وقد نودى بها منذ عهد الفلاسفة المفكرين . وكان قدماؤهم من الزهاد وطلاب المتعة على على السواء ، ينصحون بأن يستسلم المرء لقضائه ، ويتواضع فى رغباته ، ويحيا الحياة التى تلائمه . ولقد كانت هذه فلسفة « ماركوس أوريلبوس » ، وفلسفة « مونتانى » أيضا . وهى كذلك فلسفة الحكماء من المعاصرين لنا .

على أن عدو الحكمة ما يلبث أن يهتف : « ماذا ؟ هذا التسليم بقضاء سقيم ؟ هذه السعادة التافهة ؟ عدم الرضا بحياة محفوفة بالمخاطر ؟ هذا الخمول ؟ أهذا كل ما تعطوننا ؟ اننا لا نريد السعادة ، بل نريد البطولة » .

« انك على شيء من الحق ، يا عدو الحكمة . وسأحاول الآن أن أوضح أن السعادة ليست خمولا ، بل متعة . وأنت تخطيء اذا كنت تظن ان الحكمة نفسها ضرب من صراع البطولة . والخضوع للأحداث التى لا صلة بينها وبين أعمالنا لا يعنى سوى اننا نستسلم لأنفسنا . ونحن

نرضى بالبحر وعواصفه ، وعن الجماهير المحتشدة وعواطفها الملتهبة ، والرجل وكفاحاته ، والجسد وحاجاته ، لأن هذه انما هى عناصر المعضلة ، واذا نحن لم نرض عنها ، كان ذلك من شأن عالم غامض موهوم . ونحن نؤمن بقدرتنا على تغيير العالم على نحو ما ، غير ذى بال : كأن نقود سفينة فى عاصفة ، ونسيطر على جمهور محتشد ، وفوق كل شىء ، ان نغير ما بأنفسنا .

وليس فى وسعنا أن نزيل كل أسباب المرض ، أو الهزيمة ، أو التحقير . (ولا تستطيع ذلك انت أيضا) ولكننا نستطيع ان نجعل من المرض والهزيمة والتحقير ، فرصا متاحة لاحراز النصر واكتساب الهدوء » .

يقول نيتشه : « ان الرجل لا يتوق الى السعادة مع استثناء الانجليز » . ويقول فى موضع آخر : « اننى لا اريد السعادة ، بل أريد أن أؤدى عملى » . ولكن لماذا لا ينشد الانسان السعادة وهو قائم بأداء عمله ؟ أن السعادة ليست الراحة ، ولا البحث عن المتعة ، ولا الكسل . وأشد الفلاسفة صرامة ينشدون السعادة كما ينشدها الناس جميعا ، ولكن بطريقتهم الخاصة .

والحكمة هى مجرد خطوة أولى فى طريق السعادة . وهى تمهيد الطريق بفضل تخليصها العقل من عذابه الذى لا يجدى شيئا . وهى تخرس المناقشة التى لا تنفع فى مشاعر تافهة الى أبعد حد . وبعد أداء هذه الرسالة ، يمكن أن توجد السعادة .

ولكن ، ما عسى أن تكون هذه السعادة ؟ .

أننى على يقين من أنها خليط من الحب ولذة الخلق ـ وهذا هو نسيان النفس . ويمكن أن تكو نللحب اللذة

اشكال شديدة التباين ، تبدأ بحب يتبادله مخلوقان من البشر ، وتنتهى بحب الانسانية الذى ابدع فى وصفه الشعراء .

والشخص الذى لم ينفق الساعات ، او الأيام ، أو السنين ، مع شخص آخر يحبه ، لا يستطيع أن يعرف ما هى السعادة ، لأنه عاجز عن ان يتصور معجزة طويلة المدى كهذه ــ معجزة تصنع من المناظر والأحداث العادية حياة حافلة بأروع السحر . ولقد كان « ستندال » ممن أدركوا حق الادراك تشابه الحب والسعادة .

وأحب ان الفت النظر هنا الى فصل ورد فى قصة « رحيق بارما » ، ووصف فيه المؤلف مدى سعادة « فابريس » فى سجن مدينة « بارما » . فهو مهدد بخطر الموت ، ولكن هذا شىء لا قيمة له ما دامت أيامه يسطع فيها النور كلما راى « كليليا » رؤية خاطفة . انه لسعيد .

ماذا يفعل حب امرأة بشاب مثل « فابريس » ؟ وماذا يفعل حب الأمومة بالأم ، وحب الزملاء بالزعيم ؟ وماذا يفعل بالفنان حبه لعمله ؟ وماذا يفعل حب الله بالقديس ؟ .

فى اللحظة التى ننجح فيها فى نسيان أنفسنا تماما . فى اللحظة التى نضيع فيها من أنفسنا بفضل دافع روحانى ، لا نلبث أن نعثر على انفسنا فى وجود آخر غير وجودنا ، ونجد أن الأحداث التى لا تعنى ذلك الوجود الآخر ، وقد أصبحت ولا اهمية لها . « اذا كانت المرأة غير راضية ، فانها تنشد الترف ، ولكن المرأة التى تحب رجلا ترضى بالنوم على لوح من الخشب » .

ومن الحقائق أن الرجل اذ يمنح حبه هكذا لكائنات ضعيفة مرهفة ، يصبح أكثر تعرضا للأذى . ومن يكن الحب الشديد لامرأة ، أو أطفال ، أو لبلاده ، انما يعطى القدر رهائن ، ويعرض نفسه للعذاب منذ ذلك الحين حتى ما شاء الله ، حتى وان كان صحيحا معافى واسع النفوذ ، ويصبح عليه أن يطلب الرحمة ، حتى ان كان شجاعا صلبا يصبر على المكاره . فلقد أصبح فى قبضة القدر ، وبات عليه أن ينظر — والقلق يكوى جوانحه — الى مرض أولئك الذين يحبهم حبا حانيا ، وذلك عذاب أعظم ايلاما مما يسببه له أى مرض يصيبه هو ، لأن قواه البدنية سليمة تماما . وانه ليريد أن يمد المساعدة ولكنه يشعر بالعجز عن ذلك . وهو يود لو أسلم نفسه بدلا من رهائنه الغالية العزيزة ، ولكن المرض — بدافع من كبريائه وطغيانه — يختار ضحاياه دون اشفاق ، وهو على الرغم منه يشعر بأنه جبان وخائن ، لمجرد أنه نجا من الخطر . وهذا أقسى ما يحيق بالانسانية من عذاب .

ماذا نعلم الآن عن حكمة الزهد ؟ أولا تزعم لنا هــذه الحكمة ، أن من الجنون أن نصل أقدارنا كل هــــذا الوصل الوثيق ، بأقدار مخلوقات بشرية ضعيفة تكاد تؤذيها خطرات النسيم ؟ أو لم يرفض « مونتانى » أن يتولى شئون زملائه المواطنين ، بكبده ورئتيه ؟ أجل ، ولكن « مونتانى » قد تألم كثيرا حينما كان الضحية « لابويتى » . ولا سبيل الى انكار وجود هذا الصراع . والحكمة المسيحية أكثر عمقــــا من حكمة الفلاسفة الزهاد ، لأنها تضع هذا موضع الاعتبار .

والحل الوحيد الذى لا تشوبه شائبة ، هو أن يضع المرء حبه حيث يكون متأكدا من البقاء . ومن هنـــا تنشأ السعادة الدائمـــة التى لا ينال منها شىء ، بين الأتقياء المخلصين من الناس .

غير أن الغريزة الانسانية تجعلنــــــا تخالط البشر . ولا ينبغى أن يبخل أحد بالثناء على الحكمة فى الحالات الكثيرة التى لا شأن فيها للحب ، فهى تخلصنا من توهم النكبات ، وتقضى على المخـــاوف غير المجدية ، وتصر اصرارا نافعا على الكفر بوجود آلام ما هى الا كلمات وحسب .

ومن أعظم العقبات فى طريق السعادة ، سخف الرجل العصرى ـ بعقله المزدحم بالمبـــــادىء والتعاليم غير الواضحة ـ عندما يحـــــاول اعادة الاتصال بينه وبين المشاعر الحقيقية . والحيـــوانات وقليلو التمدين من الناس ، يظفرون بالسعادة على نحو أشد قربا من نوامس الطبيعة ، لأن رغباتهم أكثر بساطة وصدقا . فى حين أن الرجل المتمدين ، وهو ببغاء قد استعبدتها ثرثرتها ، لا يكف عن تطعيم نفسه بأنواع من الحب والبغض لايشعر بشىء منها فى واقع الأمر .

وفى هذه الفوضى التى ينبعث منها الكثير من النكبات الموهومة ، يستطيع الفنان أن يساعدنا على استرجاع المشاعر الحقيقية أكثر ممايستطيع الفيلسوف . فالمعرفة الروحية وحدها سواء كانت معرفة بالفن أو الحب أو الدين ، هى التى تتغلغل فى جوهر الأشياء ، وهى وحدها التى تجلب الاستقرار والهدوء والسعادة .

والفنـــان الذى يحـــاول أن يظفر بالجمال فى منظر

طبيعى ، والذى يبدو أن نظرته تنطلق كالسهم فى اتجاهه حتى لا يفوته شىء من تفاصيله يشعر بالسعاده الشاملة وهو يؤدى عمله .

وقد شرح « دكنز » فى « أنشودة عيد الميلاد » ، كيف أن رجلا أنانيا طاعنا فى السن قد عثر على السعادة بعد لأى ، لأنه سمح لنفسه بأن يحب عددا من الناس ، ومن طريقهم استطاع أن يتخلص من رذيلته الكبرى .

وكلما نظرنا نظرة خاطفة الى وحدة الكون العجيبة ، حين تصبح التلال الساكنة ، والأشجار بحفيف أوراقها ، والعصافير المنطلقة فى الفضاء ، والحشرة التى تدب على زجاج النافذة — حين يصبح كل هذا ، فجأة ، جزءا من حياتنا ، وتصبح حياتنا جزءا من العالم المحيط بنا ، فاننا نكون مدركين فى ومضة من الالهام ، ذلك الحب للكون الذى يسمو عن الاستسلام له سموا عبرت عنه « أناشيد المسرات » .

« هل تريد أن تعرف سر السعادة ؟ » . لقد ظهر هذا السؤال منشورا فى صحيفة « التايمز » منذ عدة سنوات ، وكل من تصدى للاجابة قد تلقى مظروفا يحتوى على قصيدتين من شعر « سان ماثيو » : « اطلب ، ولسوف تعطى ما طلبت . ابحث وسوف تجد . واقرع الباب ، وسوف يفتح لك : فكل من يطلب يتلقى . ومن يبحث يجد . والباب يفتح لمن يقرعه » . والواقع أن هذا هو سر السعادة .

ولقد كان عند القدماء نفس الفكرة ، فى صورة أخرى ، حين زعموا أن « الأمل » قد ترك فى قاع صندوق « باندورا » عندما هربت منه الشرور جميعا .

والباحث عن الحب يجده . والمتفانى فى الصداقة بغير تحفظ يصادف الأصدقاء . ولا يجد السعادة سوى من يتمناها بكل قلبه .

ونحن فى باكورة حياتنا نضع الأسئلة فى صيغة يتعذر الرد عليها « كيف أستطيع العثور على الرجل الكامل الجدير بحبى ، أو الصديق الصدوق الجدير بثقتى ؟ أين أجد القوانين التى تكفل السلام والسعادة لوطنى ؟ أين وفى أى عمل أنال السعادة لنفسى ؟ » ... ليس فى وسع أحد أن يرد على أولئك الذين يعرضون مشاكلهم على هذا النحو .

فما هى الأسئلة التى ينبغى توجيهها ؟ « أين استطيع أن أعثر على شخص فيه مثل مواطن ضعفى ، ولكننى أستطيع معه أن أبنى مخبأ يحمينى من الدنيا وتغيراتها ، بفضل نوايانا السليمة ؟ ما هى المميزات العسيرة الاكتساب ، التى لا غنى عنها لحياة أمة ؟ لأى الأعمال ينبغى أن أكرس وقتى وجهدى حتى أنسى مخاوفى وندمى ؟ أخيرا ، ما هو نوع السعادة التى سيقدر لى الظفر بها ، ومن هو الشخص الذى سيهيئها لى حبه ؟ » .

على أنه ليس فى شئون الآدميين توازن دائم . واذا كان الايمان ، والفن ، والحكمة ، تعين الانسان على الاحتفاظ بالتوازن وقتا ما ، فان المؤثرات الخارجية وأهواء الروح لا تلبث أن تقضى عليه ، ومن ثم يتعين على الانسان أن يتسلق الصخرة من جديد ، بنفس الطريقة . وهذا الاضطراب من حول نقطة ثابتة ، هو الحياة . والتأكد من وجود مثل تلك النقطة ، هو السعادة .

وكما ان الحب الجارف المنيف ، اذا اقدم المرء على تحليل لحظاته المنفصلة ، تبين له انه عبارة عن خلافات بالغة الصغر ، يتولى تسويتها الاخلاص على الدوام ... فكذلك الحال فى السعادة ، اذا حللهـــــا الانسان الى عناصرها الهامة ، وجد أنها تتألف من صراعات وأحزان ، وان الأمل يتولى انقاذها على الدوام .

●●●